

المركز القومى للترجمة

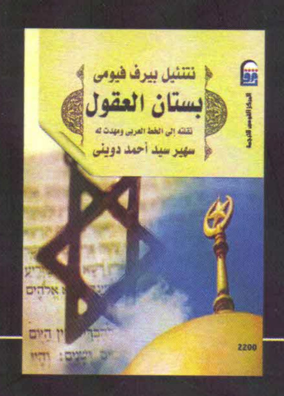
نتنئيل بيرف فيومى

بستان العقول

نقلته إلى الخط العربى ومهدت له

سهير سيد أحمد دوينى

2200



التراث اليهودى العربى جزء من التراث الإسلامى، ألفه اليهود العرب خاصة فى إسبانيا . وهو مؤلف باللغة العربية، ومدون بحروف عبرية، المضمون عربى، والشكل يهودى، جمعاً بين الثقافة الإسلامية التى عاش فيها اليهود العرب فى إسبانيا، والمغرب العربى، ومصر، والعراق، والخصوصية اليهودية فى اللغة العبرية باعتبارها حروفاً. إن عنوان هذا الكتاب "بستان العقول" يدل على مضمونه، فهو تحليل عقلى للموضوعات الثلاثة الأثيرة عند الفلاسفة، ولكن بروح صوفية تنعكس فى الصورة الأدبية "بستان".

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

بستان العقـــول

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2200
- بستان العقول
- نتنئيل بيرف فيومى
- سهير سيد أحمد دوينى
- الطبعة الأولى 2014

هذا نقل من الخط العبرى لكتاب:

בסתאן אלעקול
ספר גן השכלים
לרבינו
נתנאל ז"ל בירב פיומי

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

من تراث يهود العرب (٢)

إشراف ومراجعة: حسن حنفى وأحمد هويدى

بستـــان العقـــول

تــــــــأليـــــــــــــــــف: نتننيــل بيرف فيومى

نقلته إلى الخط العربى ومهدت له: سهير سيد أحمد دوينى



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيومي، نتنئيل بيرف.
سلسلة تراث يهود العرب: بستان العقول/ تأليف: نتنئيل بيرف فيومي، نقلته إلى الخط العربي ومهدت له: سهير سيد أحمد دويني،
ط ١ ، القاهرة - المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٢٣٦ ص، ٢٤ سم
١ - التراث
٢ - التراث اليهودي
٣ - التراث العربي
(أ) دويني، سهير سيد أحمد (مترجمة ومقدمة)
(ب) العنوان ٣٠١,٢

رقم الإيداع ٨٩٦٥ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978-977- 216 - 086- 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

تقديم

بقلم: حسن حنفى

التراث اليهودى العربى جزء من التراث الإسلامى. ألفه اليهود العرب خاصة فى إسبانيا. وهو مؤلف باللغة العربية، مدون بحروف عبرية، المضمون عربى، والشكل يهودى، جمعًا بين الثقافة الإسلامية التى عاش فيها اليهود العرب فى إسبانيا والمغرب العربى ومصر والعراق والخصوصية اليهودية فى اللغة العبرية باعتبارها حروفا.

تصدره الجمعيات الأمريكية تحت عنوان "الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط". فإسبانيا جزء من أوروبا بعد حركة الاسترداد، مع أن هذا النوع من التأليف تم قبلها. وتصدره الجمعيات والجامعات الإسرائيلية تحت عنوان "الفلسفة اليهودية" مع أنها فلسفة عربية لا تختلف كثيرًا عن الكلام والفلسفة والتصوف والفقه الإسلامى مضافا إليها عقيدة "الاختيار". أما عقيدة المسيح المخلص فموجودة فى التراث المسيحى وفى التراث الإسلامى.

وقد أخذ بعض الأساتذة العرب المتخصصيين فى الدراسات العبرية والفلسفية على عاتقهم نشر هذا التراث، وتحويله من الحرف العبرى إلى الحرف العربى، استردادا لجانب من التراث العربى الإسلامى الذى استحوذ عليه الأمريكيون والإسرائيليون. وهم حوالى عشرين نصا متاحا فى شتى فروع المعرفة، الكلام والفلسفة والتصوف والفقه واللغة والطب والفلك. منها المطبوع بالحرف العبرى، ومنها ما زال مخطوطا فى المكتبات، وتفضل المركز القومى للترجمة أن يكون هو الناشر لهذا التراث فى مصر(١).

---

(١) وتم ذلك بفضل موافقة مدير المركز فى ذلك الوقت أ. د. جابر عصفور، المستشار العلمى فى ذلك الوقت أ.د. فيصل يونس.

والنص العربى مملوء بالأخطـــاء الإملائية والنحوية إما من الناســخ الأول وإمّا من النساخ على التوالى. ولما كان هو المقصود بالإعداد مـــن أجـــل القـــارئ العربى فقد تم تصحيحه وفقا لقواعد الإملاء والنحو الصحيحة. ووضعت الأصـــول العبرية فى الهوامش. كما تم إعادة التنقيط واستعمال الفواصل، النقطـــة والفـــصلة، طبقا للعرف العربى، والتمييز بين الجملة المفيدة والجملة غير المفيـــدة. ووضـــعت هذه المتغيرات أسفل الصفحة وليس فى آخر الكتاب لاطلاع القارئ عليهـــا أثنـــاء القراءة. كما أضيفت بعض الهوامش للتعريف بمضمون النص وإشكالاته. واستعمل التاريخ الهجرى وليس الميلادى للتعريف بأسماء الأعلام اســتردادا لهـــذا التـــراث داخل التاريخ العربى، وحرصا على الوعى التاريخى العربى.

وليس النقل الصوتى من العبرية إلى العربية عملاً آليا خالصا يحكمه علـــم الأصوات، بل هو عمل يخضع أيضا لمعنى العبارة المنقولـــة. فلـــو كانـــت غيـــر مفهومة وجب التدخل فيها بالتغيير أو الحذف أو الإضافة حتى تـــصبح مفهومـــة، وتؤدى غرضها. فالنص العربى العبرى ليس مقدسا، ليس قرآنا كريما، بل يخضع لمقتضيات الفهم والنسخ والخطأ البشرى.

والعنوان نفسه "بستان العقول" يدل على مضمونه. فهـــو تحليـــل عقلـــى لله والعالم والإنسان، الموضوعات الثلاثة الأثيرة عند الفلاسفة، ولكن بروح صـــوفية تنعكس فى الصورة الأدبية "بستان". فالعقل ليس مجرد أداة للعد الحسابى أو القياس المنطقى. بل هو حديقة بها من الأشجار والأزهار والورود والمياه والجداول، ممـــا يسر العيون. العقل رؤية جمالية[1]. والفلسفة إشباع روحى "إن الله جميـــل يحـــب الجمال". والقرآن كتاب بلاغة تفوق الشعر.

---

(١) وهذا ما قاله كانط فى "نقد ملكة الحكم" فى العقل الجمالى، بعد العقل المعرفى فى "نقد العقـــل النظرى"، والعقل الأخلاقى فى "نقد العقل العملى".

ويجمع الكتاب بين المعقول والمنقول، بين الأدلة العقليـة والأدلـة النقليـة. الأدلة العقلية من المتكلمين والفلاسفة، والأدلة النقلية من التوراة. وتعنى مجمـوع كتب العهد القديم "تناخ". العقل إسلامي. والنص توراتي. ويستعمل "بستان العقـول" نفس التعبيرات "الحجج العقلية والشرعية"[١].

وعلى الرغم من أولوية العقل على النقل عند المعتزلة والفلاسفة، فإن النص خاصة فى الفصول الأخيرة يكشف عن أولوية النقل على العقل لإثبـات المـسيح المخلص واسترداد العقيدة من التراث الإسلامى المسيحى ولإثبات الحياة الآخـرة، بعد أن أوفاها المسلمون أدلة عقلية لإثبات البعث وخلود النفس، والحساب والعقاب.

ويتضح من مضمون الفصول السبعة آراء المتكلمين والفلاسفة والـصوفية المسلمين، خاصة الأشاعرة وإخوان الصفا والغزالى مباشرة، أو من خلال الفلاسفة اليهود العرب مثل بحيا بن فاقودا فى "الهداية إلى فرائض القلوب" الذى يكاد يكـون ترجمة لأحد فصول "إحياء علوم الدين" للغزالى. فالإسلام كان ثقافة شـعبية لكـل القاطنين فى محيطه، يهود أو مسيحيين، صـابئة أو مجـوس. الفكـرة إسـلامية وتبريرها نص يهودى أو مسيحى. فالنص للتبرير وليس للتدليل. وكانـت فلـسفة إخوان الصفا ثقافة للعامة وإن حملها الخاصة. واستطاع البيرونـي تحويلهـا مـن "الشفاء" و"النجاة" إلى "الإمتاع والمؤانسة" و"المقابسات". وأهمها عقيدة التوحيد. فالله لا يمكن وصفه أو التعبير عنه أو تمثله خشية من الوقوع فى التشبيه. "كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك"، "إن الإقرار بالعجز عن التوحيد هو التوحيد"[٢].

---

(١) بستان العقول، ص١٥٨.

(٢) بستان العقول ص١٠٠.

ويعترف صاحب "بستان العقول" فى نهاية الكتاب أنه لم يأت فيه بشيء من نفسه بل من غيره[١].

ويظهر الأثر الواضح لإخوان الصفا الذين يجمعون بين الفلسفة والتصوف. فالإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير. ولإخوان الصفا رسالة بهذا العنوان. وعلم الأعداد هو العلم الذى ينظم الوجود الطبيعى والوجود الروحى، ولإخوان الصفا فى الرسائل الرياضية رسالة فى العدد. وهو ما سماه الشيعة "علم الميزان"، تقابل كل شيء مع كل شيء كدليل على الوحدانية، الوحدة دون الاختلاف، ورد الاختلاف والتعدد إلى الوحدة والوحدانية.

بل يظهر أثر إخوان الصفا حتى فى الأسلوب فى افتتاح الرسائل والفقرات[٢]. ويخاطب القارئ وكأن الرسالة شخصية له[٣]. وتظهر نظرية الفيض، والعقول العشرة كما هى معروفة عند الفلاسفة. وتظهر طبيعيات الفلاسفة ونظرية العناصر الأربعة، مما قد يشير إلى اقتراب الطبيعيات من المزاج اليهودى. وكثيرا ما يشار إلى الحكماء وهم الفلاسفة[٤].

ويتم التركيز على بعض المقامات الصوفية مثل التوبة والتوكل، والجهاد الأكبر هو جهاد النفس ضد شهواتها. كما تظهر بعض التعبيرات الفقهية الإسلامية مثل الفتاوى[٥].

---

(١) "وأعجب من هذه الإشارات مما أنعم الله سبحانه علينا به، وتعلمناه من سوانا على أنا قدمنا أنا لم نتكلم فى هذا الكتاب كلمة من أنفسنا، ولا استنبطنا فيه معنى من قولنا، بل الكل تعلمناه من سوانا بتوفيق الله ولطفه بنا"، السابق ص 220.

(٢) "اعلم يا أخى أيدك الله وإيانا بروح منه"، السابق ص ١٤٧. "اعلم يا أخى أسعدك الله وإيانا بروح منه" ص ١٩٨. "اعلم يا أخى أيدنا الله وإياك بروح منه" ص ٢٠٥.

(٣) "فاحرص يا أخى أن تكون من أهل هذه الرتبة"، السابق ص٢١٥. "فقد صح لك أيها الأخ الكريم هداك الله تعالى"، السابق ص ٢١٤.

(٤) السابق ص ١٧٧/١٧٢/١٠٣/٥٦.

(٥) السابق ص ٢١٣.

وكل شيء له ظاهر وباطن، جسم الإنسان، وظواهر الكون والشريعة. الجسم ظاهر، والنفس باطن. والعالم ظاهر، والروح باطن. والعبادات ظـاهر، والأحـوال والمقامات باطن. الدنيا ظاهر، والآخرة باطن. الكون ظاهر، وخالقه باطن.

وعرف اليهود الفلسفة اليونانية عن طريق العرب وليس مباشرة، سواء الصحيحة أو المنتحلة مثل خطب قواد الإسكندر حول تابوته لوداعه، وتظهر فيها فلسفة الحكماء[1]. وعرفوا أسماء الكواكب باليونانية عن طريق العرب[2]. لم يتعمقوا فيها، ولم ينفردوا فيها لعزوف طبيعتهم "المادية" عن الروح اليونانية.

ولم تظهر الأخرويات في الفكر اليهودى إلا فى فترة متأخرة، أثناء الأسر البابلى. فالتصوف ينشأ فى الأزمات الاجتماعية والسياسية كنوع من التعويض، ومن أجل تقوية الروح المعنوية، ولإنقاذ النفس بعد أن استعصى إنقاذ المجتمع. وقد خُصص له الفصل السابع، وهو الفصل الأخير، وكأنه الهدف النهائى من الكتاب.

والعجيب أنه لا يوجد فصل عن "الاختيار" كما يوجد فصل عن المسيح المخلص. الاختيار باق. والإسلام خاص بالعرب وحدهم. والشريعة اليهودية لم تُنسخ. وعهد الله مع بنى إسرائيل لم يقطع. ومع ذلك فعقيدة الاختيار موجودة فى الفصل السادس "فى ذكر فضائل المسيح المخلص، عجل له ظهوره، والخلاص عجل الله بذلك وشيكا برحمته"[3]. فعلى الرغم من محن ومآسى بنى إسرائيل فى التاريخ وانتظارهم المسيح المخلص فإنهم ظلوا شعب الله المختار، إنعاما منه عليهم دون انتظار فضيلة أو عمل صالح منهم. نجّاهم الله عدة مرات وأجرى لهم

(١) بستان العقول ص ١٥٦-١٥٧.
(٢) السابق ص ١٥٢.
(٣) السابق ص ١٦٩-١٨٩.

المعجزات. فالاختيار جزء من الوعد الإلهى كالنجاة، دونما حاجة إلى توبة عصاتهم. لا يتخلى الله عن هذه الأمة الضعيفة حتى لو كانوا فى أرض الأعداء. فكيف يرسل الله نبيا انتسخ الشريعة؟ وقد اعترفت الشريعة الإسلامية شريعة العرب بهذا التفضيل وتفضيل الله لهم على سائر العالمين فلا يجوز تغيير أو تبديل أو تحويل التوراة[١]. ولا يقبل الله من أهل الكتاب عملاً حتى يقيموا التوارة. وهى ملة إبراهيم. كل قوم يتعبدون بشريعتهم، ولا نسخ بين الشرائع. وشريعة موسى ليست محدودة بزمان أو مكان[٢]. وقد أرسل الله لكل قوم رسولا بلغتهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾. والقرآن ليس بلغة اليهود. والرسول للعرب وحدهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ فلا يحق لأحد أن يستبعد أو أن يستخف ببنى إسرائيل وهي نفس البنية للنصوص اليهودية العربية الأخرى مثل "الأمانات والاعتقادات" لسعيد بن يوسف الفيومى و"الرد والدليل فى الدين الذليل" ليهودا اللاوى[٣].

وفى النهاية، يكون السؤال: ما الجديد فى "بستان العقول" الذى يبرر تأليفه، ويميـــزه عن سائر كتابات المسلمين خاصة إخوان الصفا؟ والجواب لا جديد فيه إلا من استعمال الثقافة الإسلامية للتعبير عن الرؤية اليهودية للعالم ثم تبريرها

---

(١) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، الســابــق ص ١٨٣.

(٢) إن التوراة ما نسخت ولا تنسخ أبدا إن شاء الله تعالى، ولا تبطل ولا تنسى من أفواه الأمة ما دامت السماوات والأرض، وكذلك الأمة لا تنفذ ولا تبيــد ولا تغنـــى"، الــسابق ص ١٢٣. "وكفى بواحد من هذه الدلائل بأنها لا تنسخ ولا تبطل". "وقالوا لنا قد بعث الله إلينا نبيا مـــن بعدكم وقد نسخ شريعتكم"، السابق ص ١٨١. "إن التوراة ما نسخت كما يزعمون بجبروتهم علينا واستضعافهم لنا، وانقطاع مغوثتنا"، السابق ص١٨٣.

(٣) حسن حنفى: يهودا اللاوى والفلسفة اليهودية العربية، هموم الفكــر والــوطن ج١ التــراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٨٧-٢٢٥.

بالنصوص التوراتية. وقد تم ذلك مع كل حضارة عاش اليهود فيها. وآخرها الحضارة الأوروبية عندما ظهرت الديكارتية اليهودية عند اسبينوزا، والتنوير اليهودى عند مندلسون، والظاهريات اليهودية عند لفيناس، والوجودية اليهودية عند بوبر وروزنز فايج، والماركسية اليهودية عند إما جولدمان. يستحوذون على تراث الغير وينسبونه إلى أنفسهم، لا فرق بين أرض وثقافة.

تصدير

تراث يهود العرب
بين الاهتمام الاستشراقي والاهتمام العربي

بقلم: أحمد هويدى

عاش اليهود عبر عصور التاريخ في بيئات متنوعة الثقافات، وتأثر اليهود تأثرا كبيرا بالبيئات التي عاشوا فيها. وبما أن اللغة العبرية بوصفها لغة للحديث قد اندثرت بعد عام ٥٨٦ قبل الميلاد،.وانحصرت في المجال الديني فقط، فقد استخدم اليهود لغات الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها، فإجادة بعض اليهود لغير لغة يعود إلى سببين: أولهما، ظاهرة عدم الاستقرار في بلد بعينها، وثانيهما، فقدان اللغة القومية كلغة للحديث. وحيث إن اليهود ينظرون إلى لغتهم وأبجديتها بأنها مقدسة، فقد ابتدعوا لأنفسهم أنماطا من الكتابة خاصة بهم. ففي العصر الفارسي عندما كانت الآرامية لغة الإمبراطورية، وظهرت الترجوميم الآرامية لأسفار المقرا، فتم تدوينها بالحرف العبري رغم أن لغتها الآرامية. وتكررت مثل هذه الظاهرة في العصور التاريخية التالية لذلك، فكثير من يهود البلاد العربية دونوا تراثهم باللغة العربية لكن بحرف عبري. وتحاول هذه المقدمة الإجابة عن تساؤلات محددة أهمها: أسباب ودوافع تدوين يهود العرب تراثهم العربي بحرف عبري، وأسباب اهتمام المستشرقين وبخاصة المستشرقين اليهود بتحقيق ونشر وفهرسة هذا التراث، وأخيرا: هل وجد هذا التراث العربي اهتماما من قبل العلماء العرب؟ وما أهمية الاهتمام بنشر هذا التراث عربيا وإسلاميا وتحقيقه؟

أولا: أسباب تدوين تراث يهود العرب المكتوب باللغة العربية بالحرف العبري ودوافعه

تمثل ظاهرة عدم استقرار اليهود في وطن محدد خاصية تميز بها تاريخ اليهود، ونظرا لوجود اليهود في مجتمعات مختلفة فلا يمكن الحديث عن تاريخ يهود عام، وبصورة خاصة بعد حادثة غزو نبوخذنصر لأورشليم وتدميرها عام ٥٨٦ قبل الميلاد. كما أن الحديث عن الفترة السابقة لذلك لم تكن اليهودية كدين أو كقومية قد تبلورت بالصورة التي وصلت إلينا بعد الغزو البابلي لمنطقة فلسطين وإجلاء سكان مملكة يهوذا منها، ولذلك يمكن القول إن الحديث عن تاريخ جماعات يهودية يبدأ منذ هذه الحادثة، أي حادثة غزو نبوخذنصر البابلي.

كان للبابليين تأثير كبير على الديانة اليهودية، ووصل إلى ذروته بعد الغزو البابلي لمملكة يهوذا، كما أثر ذلك الغزو أيضا على اللغة العبرية. فقد صاحب الغزو البابلي بداية اندثار اللغة العبرية لغة للحديث، كما أن قيمتها الدينية قد تضاءلت أيضا، حيث نجد الآرامية قد تسربت لليهود كلغة للحديث بحكم أنها كانت تمثل اللغة الرسمية طوال العصر الفارسي، كما دونت بعض أجزاء العهد القديم باللغة الآرامية لكن بحروف عبرية مثل الأجزاء الموجودة في سفري دانيال وعزرا، بل صارت هناك لهجة آرامية تعرف باسم الآرامية اليهودية، أي إن اليهود ابتدعوا لأنفسهم لهجة آرامية خاصة بهم تختلف عن الآرامية الرسمية والآرامية الفلسطينية... إلخ. كما تعتبر الترجوميم الآرامية أول ترجمة للعهد القديم، وكان هدفها الأساس هو تعريف اليهود بدينهم من خلال اللغة السائدة بينهم.

ويلاحظ أن يهود هذه الفترة قد دونوا مؤلفاتهم الآرامية بالأبجدية العبرية، ولم يقتصر الوضع على ذلك فحسب، بل عندما حلت اللغة العربية محل اللغة

الآرمية في بلاد الشرق بعد الفتوحات الإسلامية دون اليهود جل مؤلفاتهم العربية بالحرف العبري، وقد كان هذا النمط من الكتابة سائدا عند اليهود الربانيين، أما اليهود القراؤون فكان جل كتاباتهم العربية بالحرف العربي.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما المقصود بالتراث العربي اليهودي المكتوب بالحرف العبري؟ وما الدوافع والأسباب التي جعلت كثيرًا من يهود العرب في العصر الوسيط يدونون مؤلفاتهم المكتوبة باللغة العربية بالحرف العبري؟

يقصد بالكتابة العربية ــ اليهودية، طبقا لرأي المستشرقين، تلك الكتابات التي ألفها كتاب عرب يدينون باليهودية، باللغة العربية وتم تدوينها بالحرف العبري، أي إنها لغة عربية لكنها مدونة بحروف عبرية، وكتابها كانوا يهودا، لهذا السبب أُطلق عليها الكتابات العربية ــ اليهودية. والأفضل من وجهة نظرنا أن نطلق عليها الأدب العربي اليهودي المكتوب بالحرف العبري. وهذا النمط من الكتابة قد ابتدعه اليهود لأنفسهم، كما ابتدع يهود فارس أيضا لأنفسهم اليهودية الفارسية أي اللغة الفارسية التي كتبها يهود فارس لكنهم دونوها بالأبجدية العبرية، وفي العصر الحديث نجد أن موشيه مندلسون أحد أبرز اليهود الألمان عندما قام بترجمة العهد القديم إلى اللغة الألمانية لم يدونها بالحرف الألماني، بل دونها بالحرف العبري، وهذه عادة قديمة ابتدعها اليهود في العهد القديم كما في الأقسام الآرامية في سفري دانيال وعزرا. فما السر وراء تدوين بعض العلماء اليهود تراثهم بالحرف العبري؟.

نبدأ الإجابة بتوضيح أن الكتابة بالعربية الخالصة أو العربية بالحرف العبري بدأت على أيدي طائفة اليهود القرائين، وأول من دون بالعربية بالحرف العبري القرائي سليمان بن يروحام، حيث كتب تفسيرا لأسفار المزامير والمراثي والجامعة، ويوجد حاليا في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم ٢٥١٥ــ٢٥١٧،

٢٥٢٠، ثم كتب بها بعده يوسف القرقصاني صاحب "كتاب الأنوار والمناقب" الذي يمثل مقدمة تفسيره لأسفار التوراة، وأكثر هذه الطائفة شهرة يافث بن على اللاوي، ويكنى أبا الحسن البصري، وذلك في تفسيره لسفر دانيال، ثم انتقلت الكتابة بالعربية بالحرف العربي والعربية بالحرف العبري من يهود العراق إلى يهود مصر، ثم يهود شمال أفريقيا والأندلس، ولم يعد هذا النمط من الكتابة العربية بالحرف العربي أو العربية بالحرف العبري يقتصر على القرائين، بل انتقل إلى طائفة اليهود الربانيين التي دونت أكثر مؤلفاتها بالعربية بالحرف العبري.

والسؤال الآن: لماذا يصر اليهود على تدوين أكثر تراثهم بالأبجدية العبرية رغم أن اللغة التي يدونون بها ليست هي العبرية؟ لا يرجع ذلك إلى أن اللغة العبرية هي اللغة التي دون بها العهد القديم أحد أهم مصادر الفكر الديني اليهودي فحسب، بل يرجع ذلك إلى عدة أسباب منها:

١ ــ وجود قصص من العصر الوسيط تدعم أن اللغة العبرية لغة قد منحها الله لهم، وأنه كان لها دور كبير في عملية خلق العالم، وأن الله خلق من أجلهم اللغة العبرية وحروفها، فقد جاء في أحد قصص العصر الوسيط أن الله عندما خلق العالم امتثلت أمامه كل حروف الأبجدية العبرية، وطلب كل منها أن يكون ترتيبه الأول في الأبجدية، وقد تضمن ذلك حوارًا بين الله وبين كل حرف منها انتهى بأن يكون الألف في أولها والتاء في آخرها، وقد وردت القصة كاملة في كتابي أبجدية عقيبا ومختارات شمعوني. وقد استند كل حرف من الحروف في إثبات أحقيته في أن يكون أول الحروف في كلمة مهمة أو جملة من جمل التوراة المعروفة، فالتاء مثلا يدعم مطلبه بأنه أول حرف في كلمة توراة، والزاي هو أول حرف في الجملة التي يلهج فيها بذكر الله من جيل إلى جيل حيث جاء في التوراة زى شمي لعولام.

وقد تأثر بهذه القصص الخرافية في العصر الحديث الشاعر تشيرنيخوفسكي في قصيدته عن الحروف العبرية، حيث تغنى في هذه القصيدة بجمال اللغة وحروفها، وذكر لكل حرف صفة مستوحاة من معنى إحدى الكلمات التي تبدأ به، فالدال حرف الوفرة؛ لأنه تبدأ به كلمة داجان التي تعني القمح، وبدأ قصيدته بحرفي الألف والباء فيقول: ألف حرف، والباء حرف، حرفان مقدسان. اختر أرض أجدادك، وابن بيتك في السهل والجبل يا لهما من حرفين مقدسين. رغم أن اللغة العبرية لم تعتبر لغة مقدسة في نصوص العهد القديم، وكان أول من وصفها بالقدسية هم حاخامات اليهود، حيث أطلقوا عليها "لشون هاقودش".

٢ ــ بالإضافة إلى السبب الديني السابق ذكره، والذي يعد عاملا مشتركا لكثير من الكتابات اليهودية غير العبرية، التي دونت بالحرف العبري، فإن هناك أسبابا أخرى أدت إلى أن يكتب يهود العالم الإسلامي مؤلفاتهم باللغة العربية، سواء بالأبجدية العبرية أو بالحروف العربية. ومن هذه الأسباب:

أ ــ جمود اللغة العبرية بعد حادثة الغزو البابلي لمملكة يهوذا، وانحسارها من بداية نشأتها في المجال الديني فقط، وذلك على عكس لغات شعوب الشرق الأدنى القديم، حيث أظهرت الحضارتان البابلية والآشورية تفوقهما في الرياضيات والطب، واستخدام تعبيرات ورموز تعبر عن ذلك، أما اليهود حتى العصر الإسلامي فلم يظهر تفوقهم في أي مجال غير المجال الديني.

ب ــ بعد ظهور الإسلام وتنوع العلوم التي اشتهر بها كثير من علماء المسلمين مثل الطب والفلك والرياضيات وغيرها، صُدِمَ يهود العالم الإسلامي؛ لأنهم لم يتطرقوا لهذه العلوم من قبل، وبالتالي كانت لغتهم العبرية قاصرة عن استيعاب هذه العلوم لانحسارها في مجال الدين. ويعترف

موسى بن عزرا في كتابه "المحاضرة والمذاكرة" بقدرة اللغة العربية وفرض سيادتها على اللغات الأخرى، فيقول: "ومع اقتدار هذه القبيلة على المقالة وسعة باعها في الخطاب شنت الغارة على كثير من اللغات وعربتها وانتحلتها بظهور الكلمة وعظم السلطان وغلبتها على ملك فارس بخراسان، وعلى ملك الروم بالشام، وعلى ملك القبط بمصر، فاتسع نطاقها، وفشت المعارف في أقطارها وآفاقها، وترجمت جميع العلوم القديمة والحديثة وانتحلتها وزادتها شرحا وبيانا" .

ثانيا ــ مجالات تراث يهود العرب المكتوب باللغة العربية بحرف عبري.

تأثر يهود العالم الإسلامي تأثرا كبيرا بالبيئة التي عاشوا فيها، وذلك بفضل التسامح الذي نعموا به في ظل حكم المسلمين، وذلك باستثناء بعض الفترات التاريخية التي تعرضوا فيها لبعض أنواع الاضطهاد بسبب ظروف مختلفة ومتنوعة. وبسبب التسامح وحياة الاندماج التي عاشها يهود العالم الإسلامي نجدهم قد ألفوا في مجالات مختلفة، ومن هذه المجالات التي ساهم فيها اليهود مساهمة فاعلة الفلسفة والطب والرياضيات والأدب واللغة والدين، والتي تأثروا فيها تأثرا كبيرا بمناهج المؤلفين المسلمين سواء على مستوى المضمون أو على مستوى الشكل، ونشير هنا لبعض الأسماء التي برزت في كل مجال من هذه.

١ــ **مجال الفلسفة:** كتب اليهود العرب في الفلسفة، وتأثروا بالفلاسفة المسلمين سواء المعتزلة أو المتكلمين، ومن أبرز الفلاسفة اليهود الذين كتبوا بالعربية بالحرف العبري، يهودا اللاوي صاحب "كتاب الحجة والدليل في نصر الدين الذليل"، وسعديا الفيومي صاحب "تفسير كتاب المبادئ"، و"الأمانات والاعتقادات"، وموسى بن ميمون، مؤلف "دلالة الحائرين"، وجميع هؤلاء من اليهود

الربانيين، ومن اليهود القرائين يوسف بن إبراهيم كوهن، أبو يعقوب البصير ومن مصنفاته كتاب "المحتوى" و"كتاب التمييز"، ومن الأندلسيين بحيا بن فاقودا له كتاب باسم "الهداية إلى فرائض القلوب"، وآخر باسم "كتاب التنبيه إلى لوازم الضمائر".

٢ ـ **مجال الطب:** اشتهر الكثير من اليهود العرب في مجال الطب وعمل بعضهم في قصر الخلافة سواء الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية، وصنفوا كتبا في مجالات طبية متنوعة، ومن الأطباء اليهود علي بن سهل أبو الحسن بن ربن الطبري، كان طبيب الخليفة المتوكل، ومن مصنفاته: "منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير"، و"حفظ الصحة"، و"في ترتيب الأغذية". وإسحاق إسرائيلي بن سليمان، ويعرف بالاسم العربي أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي قبل ٩٥٣ ومن مؤلفاته: "الاستقساط"، و"أقاويل الأوائل في طبائع الأغذية وقواها"، و"مجموع من أقاويل الأوائل في معرفة البول وأقسامه"، و"مجموع من أقاويل الأوائل في الحميات"، و"الأدوية المفردة". ومن اليهود القرائين موسى بن أليعازار الذي عمل طبيبا في العصر الفاطمي في عصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وله من المؤلفات "الكتاب المعزي في الطبيخ"، و"مقالة في السعال"، و"كتاب الأقرباضين (المضادات)".

٣ ـ **مجال الفلك:** عمل كثير من يهود العرب في مجال الفلك متأثرين في ذلك بالنهضة العلمية الرائعة التي حققها المسلمون في هذا المضمار، ومن الفلكيين اليهود أبو عثمان سهل (سهيل) بن بشر بن حبيب المولود حوالي (٨٢٠ـ٨٣٠)، وكان فلكيا مشهورا من مؤلفاته: "تحويل سني العالم"، و"كتاب الهيئة وعلم الحساب"، و"تحاويل سني المواليد"، و"الأوقات"، و"الكسوفات"، و"التركيب". ومن اليهود القرائين ابن سيمويه، ولا يعرف

الاسم الأول له، ومن مصنفاته: "المدخل إلى علم النجوم"، و"الأمطـــار".
وأبو الطيب ابن علي (٨٢٩ ــ ٨٣٣)، وله: "المفصلات والمتوسسات"، و"القواطع".

٤ ــ **مجال الأدب:** تأثر اليهود العرب في العصر الوسيط تأثرا كبيرا بالأدب العربي، وبخاصة في مجال الشعر، ومن أبرز الكتب الأدبية: كتاب "المحاضرة والمذاكرة" لموسى بن عزرا، ويبرز مؤلفه فضل العرب والعربية على اليهود والعبرية، فيقول مثلا عن فضل العرب في الشعر: كيف صار الشعر في ملة العرب طبعا، وفي سائر الملل تطبعا... وأما القصد بهذه الأوراق القليلة الحجم عرض المماثلة عليك من طريق الملتين أعنى العبرانية والعربية، وموازنتهما في أكثر الوجوه، وأن الواحدة تابعة للثانية، وأخذت منها في الشعر خاصة".

٥ ــ **مجال الدراسات اللغوية:** رغم قدم اللغة العبرية فإن اليهود لم يتركوا مصنفات في مجال الدراسات اللغوية بالمعنى العلمي لهذا المصطلح إلا بعد تأثرهم باهتمام المسلمين باللغة العربية. ومن أوائل اللغويين اليهود العرب هارون بن الحقيق الضرير قبل ٩٠٠، ومن مصنفاته: "علل النحو"، و"كتاب الغريب للهشامي". وسعديا الفيومي ومن أعماله في مجال الدراسات اللغوية: "تفسير السبعين لفظة"، ومن شمال أفريقيا نجد بن قوريش صاحب "الرسالة" الموجهة ليهود فاس لهجرهم اللغة العبرية، ومن الأندلسيين يهودا حيوج ومن مصنفاته: "كتاب الأفعال ذوات حروف اللين"، وكتاب "الحروف ذوات المثلين"، أما يونا بن جناح فمن مؤلفاته: "اللمع"، و"الأصول"، و"المستلحق"، وأما يهودا بن بلعام فله "التجنيس"، و"حروف المعاني"، و"الأفعال المشتقة من الأسماء"، وصنف ابن بارون "الموازنة بين اللغة العبرانية واللغة العربية"، وهو أول مصنف في النحو المقارن.

٦ ــ **مجال الدراسات الدينية:** يعد مجال الدراسات الدينية من المجالات الرئيسية والأقدم التي ساهم فيها علماء اليهود بالتأليف، ومن أبرز اليهود العرب الذين اهتموا بالتأليف في مجال الدراسات الدينية في العصر الوسيط سعديا الفيومي، ففي مجال الشريعة ألف "المواريث"، و"الودائع"، وفي مجال الجدل ألف "القياس على الشرائع السمعية"، و"الرد على عنان"، ومن اليهود القرائين صموئيل بن حفني ومن مؤلفاته "إلزام الأحكام"، و"مدخل إلى التلمود"، و"نسخ الشرائع وأصول الدين وفروعه"، و"الشُفعة".

ثالثا ــ جهود المستشرقين اليهود في تحقيق تراث يهود العرب المكتوب باللغة العربية بحرف عبري.

الاستشراق بمفهومه العام والشامل يقصد به دراسة الشرق وحضاراته ولغاته وآدابه. والاستشراق هو ظاهرة أو حركة غربية نشأت لأسباب ودوافع مختلفة ومتنوعة. وكما تتنوع أسباب ودوافع الاستشراق تتنوع كذلك اتجاهات من عملوا بالاستشـــراق ومناهجهم. ولا يمكـــن وضع المستشرقين كلهم في سلة واحدة سلبا أو إيجابا، سواء أكانوا علمانيين أم نصارى أم يهودًا أم غير ذلك. فالاستشراق له سلبياته وله إيجابياته، ولسنا هنا في مجال الحديث عن ذلك، بل نريد القول: إذا كانت الحروب التي قام بها الغرب باسم الصليب وهُزموا وعادوا من حيث أتوا فكانت لديهم النية والعزيمة للعودة إلى المنطقة، وهذه الرغبة كانت عند اليهود أقوى منها عند النصارى. ومن هنا حدث التقاء بين اليهود والنصارى. ولتحقيق هذا الهدف كان من الضروري تعلم اللغة العربية. أضف إلى ذلك أن تعلم اللغة العربية في البداية كان لأغراض دينية تتمثل في فهم نص العهد القديم في لغته الأصلية التي اندثرت مع انتهاء الوجود السياسي لمملكة يهوذا ٥٨٦ قبل الميلاد.

وحيث كتب بعض اليهود في العصر الوسيط بالعربية ســواء بالحــرف العــربي أو الحرف العبري، فإن نشر هذه الأعمال يساعد اليهود في تعلم العربية دون عناء تعلم الأبجدية والأصوات والصرف وغير ذلك. أضف إلى ذلك اعتبار اليهود أن هذا التراث تراث يهودي خالص ويجب نشره ليتعرف عليه اليهود، ولذلك تمت ترجمة الكثير من هذه الأعمال إلى اللغات الأوروبية وإلى اللغة العبرية. ومن هنا اهتم الكثير من المستشرقين نصارى ويهود بتعلم العربية، وكان من بين التراث المدون بالعربية تراث مسيحي جمعه الأب جورج جراف (١٨٧٥ـ ١٩٥٥) في كتابه القيم "تاريخ الآداب المسيحية العربية" في أربعة مجلدات، كما كان هناك ــ كما ذكرنا ــ تراث يهودي مدون بالعربية سواء بالحرف العربي أو الحرف العبري فقام المستشرق موريتس إشتاينشنيدر بعمل كتاب عن مؤلفات اليهود المدونة العربية سواء بالحرف العربي أو الحرف العبري، وسماه الأدب اليهودي بالعربية ــ اليهودية، وقد تنوع اهتمام المستشرقين اليهود بهذا التراث، فقاموا بفهرسته ونشره وتحقيقه وترجمته إلى اللغات الأوروبية أو إلى اللغة العبرية، ونرصد هنا أبرز مساهمات المستشرقين اليهود في هذه المجالات.

١ــ عمل الفهارس

ساهم المستشرقون اليهود مساهمة فاعلة في عمل الفهارس للمخطوطات العبرية بصورة عامة، والأدب العربي اليهودي المدون بالحرف العربي أو الحرف العبري، ويعتبر موريتس إشتاينشنيدر من أبرز المستشرقين اليهود الذين اهتموا بعمل الفهارس للمخطوطات العبرية؛ سواء أكانت المدونة باللغة العبرية أم لغة غير العبرية لكن بحروف عبرية. ويعد ميدان فهرسة المخطوطات هو الميدان الأول لنشاط إشتاينشنيدر، ولذلك يوصف بأنه أبو الفهرسة اليهودية الحديثة، فقد اهتم

بحصر المخطوطات العبرية، فعمل فهارس للمخطوطات العبرية في مكتبة بودلي بأكسفورد، ثم في ليدن وميونخ ١٨٧٥، ثم طبعة موسعة ١٨٩٦، وكذلك المخطوطات العبرية في هامبورج ١٨٧٨ وفي برلين ١٨٧٨ــ ١٨٩٧.

لكن العمل الأهم والأبرز لموريتس إشتاينشنيدر هو كتابه الأدب اليهودي المكتوب بالعربية (١٩٠٢). ورغم أن هذا الكتاب لم يصنف على ضوء عمل الفهارس، فإنه لا غنى عنه حتى يومنا هذا لأي باحث في تاريخ الأدب اليهودي المكتوب بالعربية. فالكتاب يشتمل على أسماء جميع المؤلفين اليهود الذين دونوا مؤلفاتهم بالعربية بغض النظر عن نوع الخط. ولم يصدر في بابه ــ أي هذا الكتاب ــ مما يغني عنه حتى يومنا هذا. وقد أفاد بروكلمان من منهج إشتاينشنيدر في كتابه تاريخ الأدب العربي.

. .. ...

٢ ــ النشر والتحقيق

قام عدد غير قليل من المستشرقين اليهود بنشر وتحقيق التراث اليهودي المكتــوب بالعــربية ــ اليهــودية، ويعــد الفــرنسي الألماني يوسف ديرنبورج (١٨١١ــ ١٨٩٥) الذي تتلمذ على فرايتاج وعاد من بعدُ إلى باريس من أبرز المستشرقين اليهود، وقد انصب اهتمامه الأول على الأدب اليهودي المكتوب بالعربية ــ اليهودية، حيث قام هو وابنه هرتفج ديرنبورج (١٨٤٤ــ ١٩٠٨) بالتخطيط لسائر أعمال سعديا جاؤون فأصدر الأب مجلدين والابن ثلاثة مجلدات بعدها تعطل المشروع، والمقصود هنا أنهما قاما بنشر الترجمة العربية لسعديا جاؤون لأسفار موسى الخمسة ثم سفر أيوب وسفر الأمثال. وفي مقدمة أسفار التوراة يقول دارنبورج: لإخراج هذه النسخة استخدمت ثلاث نسخ مختلفة الأولى منهم هي النسخة المطبوعة في القسطنطينية، والثانية هي نسخة الفاليجلاططا

المنشورة في لندن عام ١٦٥٧، ومخطوط مضبوط جدا أرسل إلى من أورشليم، وهذه المخطوطة تعود إلى الربي دافيد الكاهن، وكان ذلك الرجل يمنيا جاء واستوطن في فلسطين. وعلاوة على المقدمة القصيرة المكتوبة بالعبرية، هناك مقدمة مطولة مكتوبة باللغة الفرنسية.

ومن الأعمال الأخرى التي قام بتحقيقها يوسف دارنبورج كتاب اللمع وهو كتاب في النحو العبري للوليد مروان بن جناح، ويقع الكتاب في ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط بالإضافة إلى مقدمة باللغة الفرنسية.

وقام المستشرق الروسي بتحقيق كتاب "الموازنة" لإسحاق بن بارون، وهو أول كتاب في النحو المقارن بين اللغتين العربية والعبرانية، وقام بكتابة مقدمة قصيرة جدا باللغة الروسية. وحقق الأمريكي س.ل.سكوس المولود في سيبريا، والذي يكنى بالاسم زالمان ليب ١٨٨٤ـــ١٩٥٣ والمتخصص في فيلولوجيا العربيةـــ اليهودية "معجم الألفاظ" لداود بن إبراهيم الفاسي، ونشره سنة ١٩٣٦ وكتب مقدمة باللغة الإنجليزية، ثم بين الرموز والاختصارات التي يستخدمها، علاوة على ذلك عمل دراسة عن الكتاب تقع في حوالي ١٢٩ صفحة من القطع المتوسط، أما عن النص نفسه فقد صدر في مجلدين المجلد الأول شمل الحروف من الألف حتى الحاء، والثاني من حرف الطاء وحتى التاء. ويشمل المجلد الثاني فهرسا ثم مفتاحًا للفقرات ومواضعها في العهد القديم والمشنا، كما قام بتحقيق ونشر تفسير سفر التكوين لعلي بن سليمان القرائي ١٩٢٨. وحقق المستشرق م. ياسترو كتابي الأفعال ذوات حروف اللين والأفعال ذوات المثلين ١٨٩٧ ليدن، ويشمل مقدمة وبعد نهاية النص حوالي ٥٥ صفحة عبارة عن ملاحظات وتعليقات على

النص، كما قام ثلاثة من الإسرائيليين بتحقيق ونشر كتاب "جامع الصلوات والتسابيح" لسعديا جاعون، وهم إسرائيل دودزون وسمحا آسف ويساكر يوئيل.

٣ ـ الترجمة

إذا كـــان بعض المستشـــرقين قـــد اكتفى بتحقيق النصوص وعمل فهارس أو ملاحظات وحواشٍ، فهناك جماعة أخرى من المستشرقين أضافوا إلى ذلك ترجمة هذه الأعمال، فمنهم من قام بالتحقيق والنشر والترجمة إلى العبرية أو إلى لغة أوروبية.

فمنها ما تمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية، حيث قام المستشرق ديرنبورج بنشر وترجمة كتب ورسائل لأبي الوليد مروان بن مروان بن جناح وهي "كتاب المستلحق" و"رسالة التنبيه" و"رسالة التقريب والتسهيل" و"كتاب التسوية"، حيث ترجم هذه الرسائل إلى اللغة الفرنسية وذودها بمقدمة باللغة الفرنسية، بالإضافة إلى تصويبات وإضافات وفهرست أبجدي للأفعال. كما نشر س مونك الألماني الأصل والفرنسي الشهرة والإقامة كتاب "اللمع" لابن جناح مع ترجمة فرنسية ١٨٥٣، و"دلالة الحائرين" لموسى بن ميمون بالحرف العبري وترجمة فرنسية في ثلاثة أجزاء.

وقام المستشرق فينحاس بترجمة كتاب "الموازنة" لإسحاق بن بارون إلى اللغة الإنجليزية، مع ملاحظات نقدية وتخريج للشواهد الشعرية، وكان النص الأصلي قد قام بتحقيقه المستشرق الروسي باول كوكوفتسوف. أما المستشرق هيرشفيلد هارتج فقد قام بنشر كتاب "الخزري" بالعربية، وترجمه إلى اللغة الألمانية. أما المستشرق الإسرائيلى دان بكر فقد قام بتحقيق وترجمة الكثير من

الكتابات العربية اليهودية إلى العبرية ومن جهوده: "الرسالة" ليهوذا بن قوريش، حيث أصدرها بالعربية اليهودية مع ترجمة عبرية، مع مقدمة علمية وافية عن المؤلف والعمل. كما قام دافيد قافح بنشر كتاب "الهداية إلى فرائض القلوب" لبحيا بن فاقودا مع ترجمة عبرية. وقد اعتمد على مخطوطين علاوة على اعتماده على النسخة التي حققها أبراهام بن شالوم بن بنيامين يهودا والمنشورة في ليدن.

رابعا ـ سمات الكتابة العربية المدونة بحرف عبري

تميزت الكتابة العربية اليهودية بعدد من الخصائص المشتركة، وهناك خصائص خاصة تختلف باختلاف الإقليم واختلاف المؤلف، ونحاول هنا أن نقدم بعض الأمثلة التي توضح السمات العامة وكذلك السمات الخاصة.

١ ـ هناك ستة أحرف غير موجودة في العبرية، وهذه الأحرف: هي الثاء، والخاء، والذال، والضاد، والظاء، والغين، والتاء المربوطة، استطاع الكتاب اليهود أن يميزوا بين هذه الحروف من خلال التشابه مع اللغة العربية، وذلك من خلال عملية الإعجام للتفريق بين هذه الحروف فالفرق بين التاء والثاء، والدال والذال، والصاد والضاد، والطاء والظاء، والكاف والخاء يتمثل في وضع نقطة فوق الحرف، وذلك باستثناء التاء المربوطة فيتم وضع نقطتين عليها.

٢ ـ لم تستخدم معظم المخطوطات العربية ـ اليهودية أي علامة للهمزة سواء الموجودة على الألف أو الواو أو الياء أو المفردة، وذلك باستثناء ترجمة إسحاق بن يهودا بن غياث لسفر الجامعة، حيث وجدت الهمزة عنده في .

مواضعها الصحيحة، أما أبو الوليد مروان بن جناح فقد استخدمها أحيانا وأهملها في أغلب الأحيان، وأكثر استخدامه كان للهمزة المفردة.

٣ ــ تستخدم الكتابات العربية ــ اليهودية تعبيرات ومصطلحات إسلامية، مثل مصطلح النوافل الذي استخدمه بكثرة بحيا بن فاقودا، وكذلك استخدامه الله عز وجل، وفي مقدمة "اللمع" لابن جناح نجد التعبير التالي: الحمد لله الذي خلق الإنسان فعلمه النطق وهداه إلى الإقرار بربوبيته والإعلان بوحدانيته...، كما استخدم التعبير عز وجل.

ويقول سعديا في مقدمة ترجمته للتوراة: قال لما كان حمد لله جل جلاله وشكره على ما به من إحسان غير متناهيين، إذ القدرة التي لها يُحمد والفعل الذي عليه يُشكر... الواحد على حقيقة الوحدانية الحكيم الحكمة المحضة القادر قدرة تامة المحسن إحسانا كاملا...".

٤ ــ تستخدم الكتابات العربية اليهودية الاختصارات مثل שם شمالية כקן كقوله מ معلمنا מהרר يرحمه / رحمه الله

٥ ــ وجدت في بعض الكتابات العربية اليهودية مفردات عبرية تسبقها أداة التعريف العربية مثل المصوت، والأحيم، والفسوق.

خامسا ــ أهمية نقل تراث يهود العرب المدون باللغة العربية بحرف عبري إلى الخط العربي

يعود الاهتمام باللغة العبرية في الجامعات المصرية إلى أوائل القرن الماضي، حيث كانت تدرس ضمن مناهج كلية دار العلوم، ثم درست بعد ذلك في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب، قبل أن تصبح أقساما مستقلة. وكان الهدف من

تدريس العبرية في بدايته ينصب على تفسير بعض الظواهر النحوية ومعرفة القرابة بين اللغتين، ثم تطور الهدف بعد ذلك خاصة بعد عام ١٩٦٧ ليشمل المجالات السياسية والعسكرية بسبب الصراع بين العالم العربي وإسرائيل. وبعد اتفاقية السلام كان من الضروري تطوير أهداف الدراسات العبرية في الجامعات المصرية، غير أنني أرى أن الواقع يؤكد استمرار الرؤية الضيقة لأهداف الدراسات العبرية في مصر، وذلك رغم كثرة أقسام اللغات الشرقية فيها، والتي يكرر بعضها بعضا دون وضوح رؤية أو حتى اختلاف مناهج. فالتركيز على مجالات بعينها سواء أكانت أدبية أم لغوية. أما رصد الواقع في إسرائيل ومعرفة اتجاهات المجتمع في إسرائيل من القضايا الآنية لا تزال بمنأى عن أقسام اللغات الشرقية باستثناء بعض الجهود الفردية النادرة.

ومن الموضوعات التي لم تلق اهتماما كبيرا من جانب المتخصصين في الجامعات المصرية تراث يهود العرب رغم اهتمام المستشرقين بهذا التراث منذ القرن الماضي، بل إن كثيرًا من ذلك التراث يعاد حاليا نشره وتحقيقه في ضوء اكتشاف مخطوطات جديدة في إسرائيل وفي الغرب. ويجب الإشارة هنا، على سبيل المثال لا الحصر، للجهد الذي يقوم به معهد مارتن بوبر للدراسات اليهودية في جامعة كيلن في هذا الإطار. لذلك فمن الضروري، بل من الواجب على العرب، الاهتمام بالتراث اليهودي المكتوب بالعربية أو العربية ـ اليهودية، ونقله إلى الخط العربي وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ إتاحة هذا التراث للقارئ العربي بصرف النظر عن ديانته؛ لأن معظمه متاح حاليا للقارئ اليهودي وعدد قليل من المتخصصين في الدراسات العبرية.

٢ ـ تعريف القارئ العربي بالمجالات التي برز فيها العلماء اليهود في العصر الوسيط بفضل معرفتهم باللغتين العربية والعبرية.

٣ ـ توضيح تأثير التراث العربي الإسلامي في الفكر اليهودي من خلال مصادر يهودية.

٤ ـ يساهم نقل هذا التراث في التعرف على تراث عربي له سماته المميزة في المضامين والمصطلحات، كما يمكن من خلاله التعرف على اللهجات العربية التي كانت سائدة آنذاك.

٥ ـ إن نقل هذا التراث اليهودي إلى الأبجدية العربية يعتبر استعادة لهذا الجزء من التراث العربي المفقود في اللغة العربية والموجود بالخط العبري.

٦ ـ يساعد نقل هذا التراث المتخصصين في الأدب العربي والبلاغة العربية والدراسات الدينية اليهودية وتاريخ الأديان، وعلاقة الفكر اليهودي بالثقافة الإسلامية والعلاقات اليهودية الإسلامية بوجه عام.

٧ ـ نقل هذا التراث يساعد في الاستفادة من تجارب الماضي وإقامة جسور مشتركة بين أصحاب الديانتين.

تمهيد المترجمة

في إطار محاولة كثير من الباحثين العرب إبراز فضل الحضارة العربية الإسلامية على اليهود. فقد انصب اهتمامي على المصنفات العربية التي دونها اليهود باللغة العربية بخط عبري، حيث ظهرت هذه المصنفات بشكل واضح في هذا العصر. وكان من جملة قراءاتي عن هذه المصنفات، مصنف ينسب إلى نتنئيل بيرف فيومي- وفي بعض المصادر الأخرى نتانئيل بن فيومي- بعنوان (بستان العقول)، شعرت بأهمية هذا الكتاب، وبذلت جهدا حتى تمكنت من الحصول على الطبعة التي نشرها الباحث (يوسف بن داود قافح) سنة ١٩٥٤م. عكفت على هذا الكتاب المحقق وقرأته عدة مرات، فإذا بي أمام كم هائل من الموضوعات المتنوعة التي تتعلق بالفلسفة والأخلاق والفكر الإسلامي والتراث العربي بصفة خاصة.

يرجع تاريخ تأليف هذا الكتاب إلى منتصف القرن السادس الهجرى، وتحديدا سنة ٥٤٢هـ؛ لذا فإنه يحمل بين طياته تأثر المؤلف بروح وثقافة هذا العصر، وهي بلا شك ثقافة عربية إسلامية، حيث إن المُؤلف يهودي من بلاد اليمن. كما أن هذه المجموعة من الكتابات، وإن كانت دونت بحروف عبرية فإنها تنتمي إلى تراثنا العربي الذي نسعى جاهدين لتعريف القارئ العربي به.

والجدير بالذكر أن هذه المجموعة من الكتابات قد ظهرت بشكل واضح في العصر الإسلامي، وبصفة خاصة في الأندلس، إلا أن هذا الكتاب الذي نحن بصدده الآن ينتمي إلى بيئة عربية جديدة وهي بلاد اليمن، وقد وصلنا هذا الكتاب كاملا دون نقص أو حذف أو تشويه. وكانت هذه العوامل مجتمعة هي الحافز على نقل هذا الكتاب من الحرف العبري إلى الخط العربي.

وقد وضعت تمهيدا للكتاب تحدثت فيه عن شخصية ابن فيومي، وعن طبعات الكتاب، ثم تطرقت إلى لغة الكتاب وأسلوبه، وأخيرا قمت بعرض موجز لمحتوى كل فصل من فصوله السبع.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني قمت بنقل النص من الخط العبري إلى العربي وتصويب ما به من أخطاء إملائية ونحوية، وأشرت إلى تلك التصويبات في الهوامش التي أدرجتها لكل فصل حتى يستطيع القارئ أن يقف على أسلوب الكاتب في كتابه، ومدى تمكنه من اللغة التي يكتب بها، وإلى أي حد كان دقيقا في استخدامه لهذه اللغة.

ويجب التنويه عن أن الناشر (قافح) قد قام بوضع هوامش خاصة بالفقرات والإصحاحات والأسفار التي اعتمد عليها المؤلف من العهد القديم والتلمود، وقمت بترجمة هذه الفقرات من العبرية إلى العربية ووضعتها داخل علامة تنصيص" ".

التعريف بالمؤلف والكتاب

أولاً - المؤلف وعصره:

المؤلف هو (نتنئيل بيرف فيومي) الذي عُين "تاجيدا" ليهود اليمن في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. والاسم ב־רב (بيرف) هو لفظة آرامية تعني مدرسة دينية يهوديـــة أو كتّابا، وتطورت دلالته لتعطي معنى تلميذ المدرسة الدينية(١) ودُوّن هكذا في مخطوط كولومبيا ثم استُبدل بلفظة (אבן) (ابن) في مخطوط الربانيين بأمريكا ومخطوط أوكسفورد، وكذلك في رسالة اليمن لموسى بن ميمون(٢). أما الاسم "فيومي" فيرى الناشر أنه لا يرتبط بعلاقة نسب أو صلة قرابة بعائلة الجاعون "سعديا الفيومي"(٣)، بل هو اسم فرد؛ لأنه لو كان اسم عائلة لدُوّن

---

(١) تشير المعاجم العبرية إلى أن لفظة בי־רב آرامية تعني مدرسة دينية يهودية أو كتّابا، وأن التركيب בר־בי־רב يعني تلميذ المدرسة الدينية اليهودية.
דוד שגיב: מלון עברי ערבי לשפה העברית בת זמננו، הוצאת שוקן، ירושלים، 1990، כרך(2)، עמ' 1134.(دفيد سجيف: معجم عبري عربي للغة العبرية المعاصـر دار نشر شوكن، القدس، ١٩٩٠، الجزء الثاني، ص١١٣٤).

(٢)נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול، תורגם והוגה על ידי: יוסף בן דוד קאפח،האגדה להצלת גנזי תימן،ירושלם،1954، המבוא،עמ' ١٢. (نتنئيل بيـرف فيومي: كتاب بستان العقول، تُرجم ونُقح بواسطة: يوسف بن دفيد قافح، رابطة إنقاذ كنـوز اليمن، القدس، ١٩٥٤، المقدمة، ص ١٢).

(٣) الجاعون سعديا بن يوسف الفيومي (٢٦٩-٣٣١هـ): ولد في قرية دلاص بالفيوم بمصر، ورحل إلى فلسطين ودرس في طبرية على يد النحوي (عيلي بن يهودا)، مكث لفترة في حلب، ثم استقر في بغداد سنة ٣١٠هـ، وعين رئيسا لأكاديمية بومباديثا، ورئيسا للجالوت، وفي سنة ٣١٦هـ عين رئيسا لأكاديمية سورا. اشتهر بغزارة إنتاجه. من أهم أعماله التفسيرية ترجمته وشرحه للعهد القديم بالعربية. وفي مجال الفلسفة كتاب "الأمانات والاعتقادات". توفي في يافا.

في المصادر "الفيومي" بدلا من "فيومي"، وربما كان اسما شائعا بين يهود اليمن تقديرا منهم وتعظيما للجاعون سعديا الفيـــومي، ولمؤلفاته التي ذاعت وانتشرت بين يهود اليمن(١). وعُرف بكتابه (بستان العقول)، كما وضع تقويمًا عبريًا لحساب السنوات الكبيسة، وقد أشار إلى ذلك في الفصل الثاني من كتابه قائلاً (فسبع سنين بسيطة، وسبع كبيسة، وذلك سر العبّور وأصله ومدخله جميعه للدهر كله، وسنعمل في آخر هذا الكتاب لذلك جدولا عجيبا ظريف الصنعة، فيلتمسه الملتمس إن شاء الله سبحانه)(٢).

كان المؤلف "نتنئيل" هو الابن الأكبر للحبر فيومي. أما الابن الأصغر فيدعى "دانيال". وقد اشتهر بقرض الأشعار الدينية التي ذاعت في صلوات يهود اليمن. وتشيـــر المصـــادر إلـــى أنـــه توفي بعد أخيه الأكبر نتنئيل فيومي بعشرين عاما(٣).

وفيما يتعلق بسنة مولده، فلم يتمكن الباحثون من تحديدها. وعجزوا عن إلقاء الضوء على حياته وتعليمه وفكره، وذلك لقلة المصادر التي تحدثت عنه، ولأنه لم

- האנציקלופדיה העברית،כללית، יהודית، וארצישראלית، הוצאת פעלים،ת-א، 1982، כ (25)،עמ' 196.(دائرة المعارف العبرية، الشاملة، اليهودية، الإســرائيلية، دار نشر بعاليم، تل أبيب، ١٩٨٢، الجزء (٢٥) ص ١٩٦).

(١)נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול،המבוא،עמ' 12.(نتنئيل بيــرف فيــومي: كتاب بستان العقول، المقدمة، ص١٢).

(٢) المرجع السابق، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٢.

اشتهر الحبر دانيال كبيطان، وله ثلاثة منها، البيوط الأول بعنوان "דרכי שבעה רועים - طرق الرعاة السبعة"، البيوط الثاني بعنوان "דעת האל בקשי -اطلبي معرفة الرب"، والبيوط الثالث بعنوان "דרכך הטיבי - أحسني طريقك".

www.wikipedia.com

يحظ بقدر مناسب من الشهرة بين اليهود كغيره من مفكري اليهود في البلدان العربية الأخرى. إلا أن ناشر الكتاب يؤكد أنه كان معاصرا للشاعر الأندلسي يهودا اللاوي(١).

وحول تاريخ وفاة المؤلف فقد أجمع الباحثون على أن وفاته كانت سنة ٥٦١هـ، واستدلوا على ذلك مما ذكره الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون(٢) في مؤلفه (رسالة اليمن)(٣). وذلك في حديثه عن خروجه

---

(١) يهودا بن شموئيل اللاوي (١٠٧٥-١١٤١م): كُني في العربية أبا الحسن اللاوي، ولد بطليطلة، تلقى تعليما دينيا على يد إسحاق الفاسي، درس الطب والمنطق والفلسفة، وبرع في نظم العديد من الأشعار المتنوعة الأغراض، وله في الفلسفة كتاب (الخزري).
- האנציקלופדיה העברית،כ(19)،עמ' 186- 204. (دائرة المعارف العبرية، الجزء(١٩)، ص١٨٦ - ٢٠٤).

(٢) أبو عمران عبيد الله موسى بن ميمون (٥٣٠-٦٠٣هـ): ولد بقرطبة، وانتقل مع أسرته من قرطبة إلى المرية، ثم نزح إلى فاس بالمغرب، حيث تلقى علومه من الحبر يهودا الكاهن. في سنة ٥٥٥هـ نشر رسالة بالعربية يدعو فيها اليهود إلى التمسك والثبات على النوازل والكوارث التي تحيق بهم، ثم نشر رسالة أخرى بالعربية بعنوان (في سبيل تقديس اسم الرب). سافر مع أسرته إلى مصر سنة ٥٦١هـ. من أشهر مؤلفاته (دلالة الحائرين) وله تفسير للمشنا أطلق عليه اسم (السراج) وهو يعد موسوعة في تاريخ المشنا المفصل ومضمونها وفصولها وحكمائها وضعه بالعربية سنة ٥٦٤هـ، ثم وضع مؤلفه المعروف(مشنا توراة) أي تثنية المشنا ويقال إنه قضى في تدوينه نحو عشر سنوات، وترجم إلى العبرية وأطلق عليه (היד החזקה) (اليد القوية). احترف الطب وعمل طبيبًا في بلاط أحد وزراء صلاح الدين الأيوبي، وتوفي في طبرية.
- سليم شعشوع: العصر الذهبي، صفحات من التعاون اليهودي العربي في الأندلس، دار المشرق، ١٩٩٠، ص ١٨٠-١٩٠.
انظر أيضاً: ألفت محمد جلال: الأدب العبري القديم والوسيط، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٨م، ص ١٤٦.

(٣) رسالة اليمن: تعد هذه الرسالة واحدة من ثلاث رسائل توجه بها موسى بن ميمون لمؤازرة الطوائف اليهودية في بلدان عدة، وترجع أهمية هذه الرسائل إلى أنها ترتبط بالسيرة الذاتية لموسى بن ميمون، حيث تتجلى فيها عبقريته ورجاحة عقله وجرأته في التعامل مع الأزمات التي تعاني منها الطوائف اليهودية، كما تبرز حرصه على تحسين أحوالهم. ومن الملاحظ أن هذه الرسائل تحتوي على مقدمات أعدها ابن ميمون باللغة العبرية. أولى هذه الرسائل التي=

=تعد باكورة أعماله التي خصصها للطوائف اليهودية هي אגרת השמד (رسالة الإكراه في الدين)، دونها ابن ميمون باللغة العربية مصحوبة بمقدمة باللغة العبرية، وكان ذلك في مدينة فاس بالمغرب سنة ٥٥٩هـ حيث أقام بها لفترة وجيزة، وواصل فيها دراسته لعلوم التوراة من الحبر يهودا بن شوشان. ويدور موضوع هذه الرسالة حول ما ادعاه اليهود فترة التعصب الديني التي حكم فيها الموحدون بلاد المغرب، فيقوم ابن ميمون من خلالها بتشجيع الطائفة اليهودية في فاس، مؤكدًا لهم أنه رغم اعتناقهم الإسلام فإنهم لم يخرجوا من حظيرة اليهودية، بل إن من يحافظ منهم على تعاليم اليهودية فسوف يضاعف له أجره في الآخرة، ثم أشار إلى أن من في استطاعته أن ينزح عن هذا المكان إلى خارج بلاد المغرب فعليه أن يفعل. وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللغة العبرية، وقام "أبراهام جايجر" بطبعها للمرة الأولى سنة ١٨٥٠م.

والرسالة الثانية אגרת תימן (رسالة اليمن) ودونها في مصر سنة ٥٦٨هـ لإخوانه من يهود اليمن، وتدور هذه الرسالة حول ثلاث قضايا رئيسية: القضية الأولى هي الاضطهاد الديني لليهود وإجبارهم على ترك اليهودية واعتناق الإسلام، إلا أن ابن ميمون أكد من خلال هذه الرسالة أن شعب إسرائيل لا يمكن أن يتلاشى، وأن الاضطهادات ليست سوى اختبار لإظهار قوة إيمان اليهود. والقضية الثانية تدور حول اليهودي الذي ارتد عن اليهودية واعتنق الإسلام، ونادى بأن التوراة بها أدلة وبراهين على ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) مستشهدا بعدة فقرات مقرائية لإثبات ذلك، كما أن القرآن الكريم قد نسخ التوراة، ويرى البعض أنه (شموئيل بن عباس) ابن الحبر يهودا بن آفون عباس، وقد اعتنق الإسلام سنة ٥٥٩هـ، وقام موسى بن ميمون في هذه الرسالة بدحض وتفنيد آرائه. أما القضية الثالثة فتتعلق بظهور المسيح المخلص في اليمن، فأشار ابن ميمون إلى أنه مجنون ويستحق الموت لأن ظهور المسيح المخلص سيكون في أرض فلسطين، ثم يمتد سلطانه إلى كافة أرجاء الأرض، كما ذكر أن المسيح المخلص نبي عظيم، وأعظم من كل الأنبياء عدا موسى عليه السلام، وأحصى أربع علامات مميزة للملك المسيح مرتبطة بمنزلته، وكيفية ظهوره، والمكان الذي سيتجلى فيه، ثم المعجزة الخاصة به، والتي تميزه عن سائر المخلوقات. أما الرسالة الثالثة هي מאמר תחית המתים (مقالة البعث) ودونها سنة ١١٨٩م.

- מרדכי רבינוביץ: אגרות רבינו משה אבן מימון, הוצאת מוסד הרב קוק, ירושלים، תש"ד، עמ' 12-11.(مردخاي رابينوفيتس: رسائل سيدنا موسى بن ميمون، دار نشر مؤسسة الحاخام كوك، القدس، ١٩٤٤، ص١١ -١٢).
- انظر أيضًا / דבי גולדמן: ראשי פרקים לתולדות יהודי מורוקו, מרכז ההסברה، ירושלים، 1981، עמ' 178-177-137-99-97-95-94-31. (دفي جولدمان: مجمل تاريخ يهود المغرب، مركز الإعلام، القدس، ١٩٨١، ص١٧٨، ١٧٧، ١٣٧، ٩٩، ٩٧، ٩٥، ٩٤، ٣١).

وعائلته من المغرب بسبب القلاقل والاضطهادات، فيقول: (عندما نزحنا من المغرب قاصدين وجه الله، ولزيارة بيته المقدس، سمعنا أن نتنئيل أبا يعقوب قد توفي، تغمده الله ببره ونعمه، وطيب ثراه)(١).

ثانيًا- الأوضاع السياسية في اليمن زمن المؤلف:

تحدث كثير من المصادر العربية عن الأوضاع السياسية في بلاد اليمن التي عاصرها المؤلف، من تلك المصادر: تاريخ اليمن لنجم الدين عمارة اليمني، وتاريخ اليمن السياسي لمحمد يحيى الحداد اليمني وغيرها من المصادر الأخرى، حيث يذكر بها أنه ظهر في اليمن مع نهاية حكم الفاطميين حركة دينية إسلامية كان يتزعمها (علي بن مهدي). وهو من قرية العنبرة على ساحل زبيد باليمن. تلقى علومه الدينية في العراق ثم عاد إلى اليمن. نشأ على العزلة والتمسك بالعبادات. كانت بداية شهرته سنة ٥٣٢هـ، حيث استمال الجماهير بنبوءاته المستقبلية حول بعض الأحداث. ويقال إنه حصّل في خزائنه مُلك خمس وعشرين مدينة من مدن اليمن. كما استولى على كثير من المعاقل والحصون. توفي علي بن مهدي سنة٥٥٤هـ. وتولى بعده ابنه عبد النبي الذي استولى على جميع مدن اليمن عدا مدينة (عدن) ففرض عليها الجزية. ومع ازدياد النزاعات بين حكام المدن اليمنية، استنجد بعضهم بالخليفة العباسي في بغداد. فكتب إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بمصر يكلفه بإجابة هذا الطلب. فأرسل السلطان أخاه (توران شاه). فدخل اليمن سنة ٥٦٩هـ. وقضى على دولة بني مهدي سنة ٥٧٢هـ(٢).

---

(١) נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול،המבוא،עמ׳13.(نتنئيل بيرف فيومي: كتاب بستان العقول، المقدمة، ص١٣).

(٢) نجم الدين عمارة اليمني: تاريخ اليمن، حققه: حسن سليمان محمود، دار الثناء للطباعة، ١٩٥٧، ص١٠٢-١٢٦.

وفيما يتعلق بالمدينة التي عاش فيها المؤلف، فقد أشار أبراهام شلومو هالقين- في المقدمة التي وضعها لمؤلَف موسى بن ميمون (رسالة اليمن)- إلى أنه عاش في مدينة عدن أكبر مدن وموانئ جنوب اليمن. إلا أن الناشر يوسف قافح يدحض هذا الرأي مستندًا إلى عدة أسباب منها:

١- إن الشخصيات التي ظهرت في اليمن كان يطلق عليها (رجال عدن)، وقد اعتاد اليهود إطلاق هذا المسمى على الشخصيات اليهودية المرموقة التي كانت تعيش في أي مدينة من مدن اليمن، وذلك من قبيل إطلاق الجزء "عدن" على الكل "اليمن". ويتضح ذلك من الرسائل المتبادلة بين يهود اليمن والمدارس الدينية في العراق.

٢- إن الاضطرابات التي حدثت في بلاد اليمن خلال الفترة التي عاصرها المؤلف كانت في شرق اليمن ووسطها. ولم تصل إلى مدينة عدن في الجنوب. من ناحية أخرى يرى قافح أن هناك ما يثبت أنه كان يعيش في مدينة صنعاء، وذلك لأن ابنه يعقوب كان يعيش فيها، ولأن هناك عدة ألفاظ وتعبيرات استخرجها الناشر من بين طيات الكتاب، وأكد أنها من الألفاظ العربية الدارجة على لسان أهل صنعاء فقط. منها استعمال المؤلف للفظة (يستاهلو)[1] بمعنى يستحقون. وأشار إلى أنها غير مستعملة إلا بين أهالي صنعاء فحسب. كذلك استعماله للفظة (مهرة) بمعنى صنعة أو حرفة، وهي من

= انظر أيضا/ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي في العصر الإسلامي، ١٩٦١، ص٢٤٧-٢٤٩.

- محمد يحيى الحداد اليمني: تاريخ اليمن السياسي، الجزء الثاني، دار وهدان للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ١٨١.

(١) נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול, המבוא, עמ׳ ١٦.(نتنئيل بيرف فيومي: كتاب بستان العقول، المقدمة، ص ١٦).

الألفاظ العربية غير الدارجة على لسان أهل مدينة عدن. وقد وافقه على هذا الرأي الباحث إسرائيل لفين في مقدمته التي وضعها باللغة الإنجليزية لهذا الكتاب، حيث يؤكد أن المؤلف كان يقطن مدينة صنعاء(١).

ثالثًا – مخطوطات الكتاب وطبعاته:

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في نيويورك بواسطة "دافيد يلين" سنة ١٩٠٨م مصحوبة بترجمة إنجليزية(٢)، استعان فيها "يلين" بمخطوط مكتبة كولومبيا بنيويورك(٣). ثم حظي الكتاب بالطبع مرة أخرى على يد "إسرائيل لفين" الذي استعان بنفس المخطوط. وهو يعد المخطوط الوحيد لهذا النص الموجود في مكتبة عامة. فهناك مخطوط آخر لهذا الكتاب في مكتبة خاصة بالبروفيسور "ريتش جوتهايل"(٤). وقد استعان الباحث يوسف بن داود قافح بطبعة "لفين" في ترجمته لهذا الكتاب ونشره. وقد أعلن قافح أنه صادف مشقة في ترجمته العبرية؛ نظرا لأن النص يحتوي على ثروة لغوية غنية بالمصطلحات والمفاهيم الفلسفية التي من الصعب إيجاد مقابل لها في اللغة العبرية. إلا أنه التزم نفس أسلوب ذلك العصر. وامتنع– قدر الإمكان– عن استخدام مفردات حديثة (٥).

---

(١) المرجع السابق، المقدمة، ص١٤.

(٢)ספר היובל לכבוד הפרופיסור אלכסנדר מרכס، בעריכת: דוד פרנקל ניו-יורק، תש"ג، עמ' 69. (كتاب اليوبيل تكريما للبروفيسور: ألكسندر ماركس، إعداد: داود فرنكل، نيويورك، ١٩٤٣، ص ٦٩).

(٣)נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול، המבוא، עמ' ١٥.(نتنئيل بيرف فيومي: كتاب بستان العقول، المقدمة، ص ١٥).

(٤) *Steinschneider. Moritz: Die Arabische literatur der Juden, verlag von J. Kauffmann, Frankfurt,1902,P. 182.*

(٥)נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול،، המבוא، עמ' 15.(نتنئيل بيرف فيومي: كتاب بستان العقول، المقدمة، ص 15).

وتشير المصادر إلى أن يعقوب بن نتنئيل هو الذي أطلق على مؤلف أبيه عنوان (بستان العقول)[1]. إلا أننا إذا أمعنا النظر في المقدمة التي وضعها المؤلف نفسه نجده يصرح قائلا: (وقد سمينا هذا الكتاب بستان العقول)[2] أي أنه هو الذي وضع عنوان مؤلفه وليس ابنه يعقوب.

رابعا - لغة الكتاب وأسلوبه:

تركت اللغة العربية تأثيرا واضحا على لغة الكتاب وأسلوبه، فهو مدون باللغة العربية بحروف عبرية، حيث لجأ المؤلف إلى هذا النمط المعتاد بين اليهود الذين عاشوا داخل المجتمعات الإسلامية، فجاءت لغته بسيطة ميسرة للقارئ. وبالقراءة المتمعنة للنص نستشف عدة سمات مميزة للغة المؤلف وأسلوبه منها:

١- استعماله للغة العربية الدارجة

احتوى النص على مفردات عربية، يبدو أنها كانت دارجة على لسان أهل اليمـــن. ومثال ذلك التعبيرات التالية: (لم عاد) أي لم يعد، و(عاده في الرحم) أي لا يزال في الرحم، و(الحكومات والحيادث) أي الأحكام والحوادث، و(الطبايون والاجراحيون) أي الأطباء والجراحون، والأمثلة كثيرة داخل النص. كما أن هناك بعض الألفاظ التي من الواضح أنها تتعلق باللهجة العربية لأهل اليمن. فقد دوّن المؤلف اسم الإشارة (هذا) הד׳ وينطق (هذي)، وكذلك دوّن لفظة التوراة אלתוריה وتنطق التوريه.

---

(١) المرجع السابق، المقدمة، ص١٢.

(٢) المرجع السابق، المقدمة، ص ٦.

٢- استعمال اللغتين العربية والعبرية معا داخل النص

اعتاد اليهود استعمال اللغتين العربية والعبرية في مؤلفاتهم التي دونوها بالعربية بحرف عبري، حيث قام المؤلف بالدمج بين اللغتين، من نحو إدخال أداة التعريف العربية على بعض الأسماء العبرية، منها على سبيل المثال: (الشيرا) أي الشعر، (الماشيح واليشوعا) أي المسيح المنتظر والخلاص، (المتسفوت) أي التعاليم، وغيرها.

هذا وقد ضمن المؤلف كتابه جزءا دونه باللغة العبرية، وذلك في الفصل السابع الذي يتحدث فيه عن الشروط الواجب توافرها في وظيفة الإمام، وهو الذي يصلي على رأس الجماعة שליח הצבור. وقد ترجمت هذا الجزء إلى العربية ووضعته داخل النص المنقول بين معقوفين، دون كتابة النص العبري، حيث يستطيع القارئ أن يطّلع عليه من نسخة الناشر.

٣- استعمال قواعد النحو العربي

نستطيع أن نلحظ من فصول الكتاب أن كثيرا من القواعد النحوية لم يكن المؤلف على دراية كافية بها، من ذلك على سبيل المثال:

أ - استعماله لاسم الموصول (الذي) ليعبر به عن المفرد بنوعيه وعن الجمع بنوعيه(*) مثل: (وهي الكواكب الجنوبية الذي حوالي القطب)، (والراسخين في العلوم الذي توارثوها عنهم). والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة.

(*) هي لغة لبعض القبائل العربية، وقد ورد الشاهد عليها في قوله تعالى ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓاْ﴾ (التوبة / ٦٩).

ب – إهمال وظيفة (لَمْ) الجازمة، فلم يعبأ بتطبيق هذه القاعدة النحوية. مثال ذلك (لم نكون من أهلها) والصواب (لم نكن من أهلها)، و(لم يبقى في وقته شر بتة) والصواب (لم يبق في وقته شر البتة).

ج- إهمال القواعد النحوية الخاصة بالمرفوع والمنصوب والمجرور، منها:

(على سائر المخلوقون) والصواب (على سائر المخلوقين)، كذلك (في أخبار التلمودان) والصواب (في أخبار التلمودين). و(آخر حاز كلاهما...)، و(آخر يبكى على كلاهما..) على لغة قصر المثنى، والشائع: (حاز كليهما)، و(على كليهما).

د – وضع علامة الجمع مع الفعل إذا كان الفاعل جمعا وهى لغة تراثية مشهورة فى كتب النحاة العرب بلغة "أكلونى البراغيث"، ومن أمثلتها فى الكتاب (وقد صنفوا العلماء) والشائع (وقد صنف العلماء)، و(كفروا الناس) والشائع (وكفر الناس)، و(قالوا الحكماء) والشائع (قال الحكماء). ويعد إهماله للظواهر النحوية دليلا على تواضع إمكانياته في النحو العربي.

بيد أن هناك ظواهر أخرى لجأ إليها واتبعها، منها:

١- اختصاره للأعداد وبعض المفردات على سبيل المثال:

تع: تعالى / تب: تبارك / سب: سبحانه / ال ג:الثالث / ال יב: الثاني عشر / ع س: عليه السلام /عل الس: عليهم السلام / كقو: كقوله أو كقولهم، حسب سياق الجملة.

٢- لم يراع المؤلف أن هناك بعض الكلمات في اللغة العربية يصيبها الحذف حين الكتابة حسب قواعد معينة منها حذف الألف في: (ذالك وكذالك ولاكن وأولائك) فتصبح (ذلك وكذلك ولكن وأولئك)، وهذا الحذف للتخفيف ولكثرة استخدام هذه الكلمات على الألسنة. ومن

التراكيب الشائعة في اللغة العربية (ذلك وكذلك) وهي عبارة عن اسم الإشارة "ذا" و"اللام" الدالة على البعد وحرف الخطاب "الكاف". ونلاحظ أن ألف اسم الإشارة "ذا" محذوفة لوجود اللام الدالة على البعد، لذلك نقول ذلك، كذلك، ذلكم، بحذف الألف من اسم الإشارة.

٣- اعتاد تدوين الألف المقصورة في العربية ألفا مع كافة الأفعال التي الألف فيها أصلها واو أو أصلها ياء، مثل: دنا، يدنو وبكى، يبكي.

٤ – لم يدون المؤلف الألف بعد واو الجماعة، والتي يطلق عليها الألف الفارقة أو الفاصلة مثل: قالو = قالوا. والأمثلة كثيرة على ذلك.

والجدير بالذكر أن هناك بعض الألفاظ التي ربما دونها الكاتب بطريق الخطأ أو أصابها بعض الحذف، مثل: سكا (سكان)، دقيقا وجليلها (دقيقها وجليلها)، الغبي (الغيبي)، وغيرها من الألفاظ وهي معدودة داخل النص. كما أنه استخدم حرفا واحدا في العبرية (צ) وهو الصاد المنقوطة، ليعبر به عن حرفين في العربية وهما(الضاد والظاء) مثل אלחאפץ: الحافظ، وפאץ: فاض، وغيرها الكثير داخل النص. كما أنه استبدل بالألف المقصورة في العربية، التي تكتب ياء، حرف الألف مثل: المأوى يكتبها المأوا.

ويجب الإشارة أيضا إلى أن المؤلف قد استخدم طريقة الرسم العثماني للمصحف في لفظة (صلوة) وقد وردت مرة واحدة.

وقد قمت بنقل هذا النص من الخط العبري إلى الخط العربي نقلا صحيحا ونوهت عن الأخطاء النحوية والإملائية التي وقع فيها المؤلف في الهوامش السفلية الخاصة بالفصول. أما فيما يتعلق بالفقرات التي استشهد بها المؤلف من العهد القديم أو التلمود، فقد قمت بترجمتها إلى العربية، ووضعتها داخل علامة التنصيص" ".

أما المفردات والجمل العبرية الأخرى فقد قمت بترجمتها وكتبتها مائلة وبخط ثقيل، لتمييزها عن النص. وفيما يتعلق بأبيات الشعر العربي فقد وضعتها داخل النص بصورة صحيحة، وأشرت إلى ناظمي بعض هذه الأبيات والبعض الآخر لم أستطع التوصل إليه.

خامسًا – مضمون الكتاب

صرح المؤلف في بداية الكتاب أنه لم يأت فيه بجديد، وأعلن عن تأثره بالمؤلفات التي وضعها العلماء السابقون في مجال الدين والفلسفة، فيقول في الفصل الثاني من الكتاب (فليعذرنا قارئ هذا الكتاب، على أنّا ما استنبطنا فيه كلمة من عندنا، ولا معنى لم نسمعه من غيرنا، بل تعلمناه، وكتبنا ذلك على سبيل التذكير لأولادنا ولمن وقع في يده من إخواننا) [1]. وكرر المؤلف هذا التصريح مرة أخرى في نهاية كتابه قائلا: (على أنّا قد قدمنا أنّا لم نتكلم في هذا الكتاب كلمة من أنفسنا، ولا استنبطنا فيه معنى من قولنا، بل تعلمناه من سوانا بتوفيق الله ولطفه بنا) [2].

أفرد المؤلف افتتاحية موجزة للحديث عن صفات الذات الإلهية وتمجيده لله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن التحديد، ثم تحدث عن العقل الكلي، وهو أول إبداعات الخالق عز وجل الذي انبثقت منه إلى العالم عقول مجردة وترتبت تسع مراتب كالأعداد التسع، وتمت عشرة عقول بالعقل الكلي للمبدع الأول، ثم واصل حديثه باقتضاب عن العوالم الثلاث (الخفيف واللطيف والكثيف) وهي خير دليل وشاهد على حكمته وإتقان صنعه.

قسّم المؤلف كتابه إلى سبعة فصول ورتبها على النحو التالي:

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٣.

الفصل الأول: أفرده المؤلف للحديث عن توحيد الله عز وجل، حيث يرى أن العوالم جميعها لا تقدر على خلق نفسها بنفسها؛ لأنها ليست مخيرة في فعلها، بل أوجدها الخالق من العدم وكونها، ورتبها وملكها بالجبر، وأن هذه الصنائع رغم كثرتها فإنها تنتهي إلى علة العلل، وهو الخالق الواحد. ويأتي بشواهد عديدة من المقرا في صفة الوحدانية.

الفصل الثاني: تحدث فيه عن الإنسان وهو عالم صغير، وتفضيل الله له على سائر المخلوقات، فسلّطه على جميع الموجودات من نبات وحيوان وجماد. ثم تطرق إلى الحديث عن خواص الأعداد وأسرارها، وأن هناك علاقة تربط بين الأعداد والإنسان تارة، وبين الأعداد والمخلوقات الكونية تارة أخرى. ويرى المؤلف أن هناك بعض الأعداد لها أفضلية عن سائر الأعداد الأخرى منها العدد سبعة، والعددان سبعة واثنا عشر المكونان للعدد تسعة عشر، وجاء بدلائل من القرآن الكريم والمقرا.

الفصل الثالث: في التزام الطاعة لله سبحانه، حيث يشير المؤلف في بداية هذا الفصل إلى نعمتين أنعم الله بهما على الإنسان، إحداهما: نعمة ظاهرة وتتمثل في تركيبه لجسم الإنسان كاملا، والنعمة الثانية: النعمة الباطنة، وهي النفس الإنسانية. ثم يرى أن للطاعة شقين، الشق الأول: شق ظاهر ويتعلق بالعمل بتعاليم الشريعة التي جاء بها الأنبياء من رب العالمين مثل: الطهارة والصوم والزكاة وسائر التعاليم الأخرى. والشق الثاني: وهو الطاعة الباطنة بالقلب السليم والنية الحسنة.

ويتفق المؤلف مع كثير من الفلاسفة الذين يرون أن النفس لا تستطيع أن تعبد ربها حق عبادته، وهي مرتبطة بعالم الطبيعة (عالم الكون والفساد). فإذا فارقت الجسد صارت ملَكا، وحينئذ تصح منها العبادة الحقيقية.

الفصل الرابع: استهل المؤلف هذا الفصل بالحديث عن التوبة التي جعلها الله رحمة لعباده الذين يؤثرون معصيته على طاعته. فكان من لطفه بهم أن خلق لهم التوبة علّهم يعودون إلى طريق الصواب. ثم يتطرق إلى الحديث عن فضيلة العلم، وهي أفضل ما خلق الله سبحانه وتعالى، ثم فضيلة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء. ويعود مرة أخرى للحديث عن تحديد العلماء للتوبة ومعانيها وأسبابها وحدودها الأربعة وشروطها المتعلقة بالتواضع والزهد والأدب والصوم والصدقة. وأورد في هذه الشروط شواهد عديدة من المأثورات العربية.

الفصل الخامس: تحدث فيه عن التوكل على الله في جميع الأمور. وأكد أن الأرزاق يتكفل بها الخالق عز وجل؛ لأنه لا يترك عباده منذ نشأتهم نطفة في الرحم حتى المشيب إلى أن ينقلهم إلى الدار الآخرة. ثم تطرق إلى قضية العدل الإلهي، حيث يرى أن كل ألم يحله الله بالصالحين هو رحمة منه بهم وتأديب لهم. وينتقل إلى حديث آخر يربط فيه بين مقدرات البشر والمواليد الفلكية وأحكام النجوم، حيث يؤكد أن من ولد في طوالع السعود سعيد، ومن ولد في طوالع النحوس نحس، وأن النجوم لا تفعل ذلك إلا بإذن الله؛ لأنه هو الذي وكّلها بذلك. وهـــي لا تعصيه أمرا؛ لأنها وسائط بينه وبين خلقه، وأن الإنسان لا ينال في الدنيا إلا ما قدره الله بعدل لا جور فيه، وذلك لأسرار لا يعلمها إلا الله ومن أنعم عليه بعلم من الأنبياء والأولياء وورثة علمهم.

أما فضيلة الموت فهي الطريق إلى دار الثواب والعقاب. والموت نوعان: موت جسماني لجميع البشر، وموت نفساني وهو الجهل بالله وشريعته. وجاء بنماذج أدبية كثيرة من الأدب العربي.

الفصل السادس: في ذكر فضائل المسيح المنتظر والخلاص، مؤكدا فيه أن ظهور المسيح المنتظر وعد من الله لشعبه. وهو وعد حتمي غير مشروط.

وسيكون فرج الأمة على يديه حتى لو لم يتوبوا. ثم يأتي بدلائل من المقرا على سبب ظهوره، وأوصافه، وخلاصه لبني إسرائيل وحلول النبوة والوحي على العالم. وطرح المؤلف في نهاية هذا الفصل عدة قضايا دينية منها: قضية رفضه لنسخ التوراة، شعب الله المختار، دحضه لتحريف التوراة، رفضه لعالمية الرسالة المحمدية (حيث إنه أُرسِل للعرب فقط)، عبودية بني إسرائيل.

الفصل السابع: في ذكر الآخرة التي هي المنتهى وإليها المأوى ودار الحياة والبقاء. ذكر فيه انتقال الإنسان في هذه الدنيا من حال إلى حال تدريجيا من العدم مرورا بمراحل كثيرة حتى ينتقل في النهاية إلى دار الآخرة إما سعيدا وإما شقيا. ثم طرح بعد ذلك قضية شغلت المفكرين والفلاسفة ألا وهي قضية الشر في العالم، فضلا عن حديثه عن أن الحكمة من خلق الله تعالى للظالمين. وفي نهاية هذا الفصل ناقش قضية مهمة تمس الوضع الاجتماعي والديني للطائفة اليهودية في اليمن. وحذر خلالها من تعيين شخصيات يهودية في مناصب القضاء والإفتاء- وبصفة خاصة - إمامة الصلاة، وهم غير مؤهلين لهذه المناصب، فوضع شروطا يجب توافرها لمنصب שליח הצבור - إمام الصلاة.

وفي نهاية هذا العرض لمحتوى الكتاب يجب الإشارة إلى أن المؤلف قد اعتمد على مصادر عدة في وضعه لمؤلفه منها:

١- المصادر اليهودية: وتتمثل في كتاب (الهداية إلى فرائض القلوب) لبحيا بن يوسف بن فاقودا، وقد كان للشعر العبري دوره من جملة المصادر اليهودية التي استعان بها، ذلك فضلا عن مصادر التراث الديني القديم المتمثلة في العهد القديم والتلمود وأقوال الحكماء.

٢- المصادر العربية والإسلامية: حيث ضمن ابن فيومي مؤلفه عددا وفيرا من أبيات الشعر العربي في كل فصل من فصول كتابه، كما استعان

بالمأثورات العربية والإسلامية، والأحاديث النبوية والقدسية، فضلا عن تأثره بنصوص القرآن الكريم ومعانيه. ولا نستطيع أن نتجاهل إفادة المؤلف من رسائل إخوان الصفا الفلسفية.

نماذج من التأثيرات العربية الإسلامية
في كتاب بستان العقول

أولا- المصادر العربية والإسلامية:

ضمن المؤلف كتابه مجموعة كبيرة من القضايا والموضوعات التي تدور حول الدين والفلسفة والأخلاق، ورأى أن يستعين بالمصادر التي تعينه على إتمام مؤلفه وذلك من خلال اللغة العربية السائدة في موطنه (بلاد اليمن)، والتي تركت تأثيرًا واضحًا لديه. فاستعان بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ذلك إلى جانب الشعر العربي والمأثورات العربية الإسلامية. وقد شكلت هذه المصادر جميعها المادة الفكرية التي استشهد بما فيها من مادة غنية تتناسب مع ما يحتويه المؤلف من موضوعات دينية وفلسفية وأخلاقية.

ويبدو أن المؤلف كان يفطن إلى أن مؤلفه هذا قد سبقه إليه علماء كثيرون في مجال الدين من خلال مؤلفاتهم السابقة عليه، مما جعله يعترف في مواضع كثيرة من هذا المؤلف بأنه لم يأت بجديد فيه، بل كل ما يحتويه من موضوعات قد سبقه غيره إليها، وقام هو بدوره في إعادة صياغتها على سبيل تذكير الأجيال المقبلة من أبناء الطوائف اليهودية في اليمن. وهو أمر سعى إليه كثير من المثقفين اليهود للحفاظ على هذا التراث الفكري من الضياع والنسيان.

ونظرًا لأن المصادر العربية الإسلامية قد شغلت حيزًا أكبر من المصادر التراثية اليهودية؛ لذلك يمكن تقسيم هذه المصادر إلى أكثر من نوع على النحو التالي:

١- التراث الديني الإسلامي:

أ- آيات القرآن الكريم

لم يقتصر المؤلف في كتابه "بستان العقول" على الاستعانة بمضامين ونصوص الأحاديث النبوية، مما يدل على أنه قرأ هذه الأحاديث قراءة متمعنة، وأفاد منها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نجده متأثرًا بنصوص القرآن الكريم ومعانيه، حتى إنه استعان بكثير من آيات الذكر الحكيم في تأكيده لبعض الآراء تارة، وفي دحضه لأفكار دينية إسلامية تارة أخرى، حيث نجده قد نصّب نفسه مفسرًا لآيات القرآن الكريم. ورغم معرفته الضحلة، وفهمه الخاطئ لمعاني القرآن الكريم، وعدم إدراكه لحقيقة جوهره فإنه خاض مناقشات دينية حادة عرضنا لبعض منها في الهوامش.

من الملاحظ أن هذا الكتاب يزخر بالعديد من الاقتباسات القرآنية المتنوعة. فاستعان بمعانٍ مستوحاة من القرآن الكريم، سواء بأسلوب الإشارة والتلميح أو بأسلوب الاقتباس المباشر، إلا أن هذا الأسلوب كثيرًا ما دون فيه آيات الذكر بطريقة غير صحيحة، بل وفي أحيان كثيرة أضاف إليها بعض الكلمات.

من هذا المنطلق كان هذا المصدر التشريعي الأول من المصادر المهمة التي اعتمد عليها في كتابه، والأمثلة كثيرة ومتنوعة منها ما ذكره في سياق حديثه عن التوبة حيث يقول: (فلا يجب للعبد أن ييأس من رحمة الله سبحانه ولا يقنط منها)(١). فقد استقى هذه العبارة من قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾(٢). وقال عز وجل في موضع آخر من سورة الزمر:

---

(١) النص، ص ٥٦ فى الأصل العبرى.

(٢) سورة الحجر، الآية (٥٦).

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

وفي نموذج آخر لهذا الاقتباس القرآني، نراه يتحدث عن المراحل التي يمر بها الإنسان من العدم إلى الموت، حيث ذكر أنه (كان معدوما بالجملة موجودا بالقوة في المعادن والنبات حتى صار منيًا في صلب والده، فنقله الله سبحانه من صلب أبيه نطفة مني إلى الرحم، فأحدثت به هنالك قوة الطبيعة مما أفادتنا النفس الكلية تسمى تلك القوة النامية. فأنمته في دم الطمث حتى صارت تلك النطفة في مضغة، ثم بعد ذلك صارت علقة بالتدريج بعناية الحكيم الجبار القدير حتى اكتست وصارت لحمًا وعظامًا. وتلك القوة فيها تزداد بتقدير العزيز الجبار)[2]. في هذه العبارة تأثير قرآني واضح فقد وردت هذه المعاني في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾[3]. ويجب الإشارة إلى أن المؤلف لم يتبع خطوات الخلق فذكر اللحم أولاً والعظام ثانيا، مما يتعارض مع نص الآية التي وردت في قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة الزمر، الآية (٥٣).
(٢) النص، ص ١٢٨ فى الأصل العبرى.
(٣) سورة الحج، الآية (٤).
(٤) سورة المؤمنون، الآية (١٤).

ويستمر نهج المؤلف في الأخذ من القرآن الكريم، وذلك في ذكره لخواص الأعداد وأسرارها وربطها بالإنسان وهو عالم واحد وصغير. فيذكر عن العدد سبعة (وكذلك سبّب الله سبحانه خلاص السيد يوسف، رحمه الله، بالمنامات التي رآها فرعون سبع بقرات حسان وسبع سنبلات ضخمات أضدادهن فكان خلاصه لتفسير ذلك على ما علمت)[١]. وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾[٢]. بيد أن السنبلات المذكورة في القرآن الكريم يابسات وليست كما وصفها المؤلف ضخمات.

هناك استشهاد آخر بآيات القرآن الكريم في حديثه عن فضيلة العدد تسعة عشر المكون من العددين سبعة واثنى عشر، حيث ذكر في تحريف سافر للقرآن (ما ولاهم في سقر عليها تسعة عشر) [٣]. وهو يقصد بذلك قوله تعالى في سورة المدثر ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[٤]. كما ساق لنا في الفصل الثاني حديثًا حول التزام الإنسان بالواجبات المفروضة عليه تجاه خالقه كاستسلامه لأمره وقضائه، وأعطى لنا مثلاً سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ألقى به النمرود في النار فخلّصه الله منها وقال: (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. فلو قال بردا وأمسك لأهلكه البرد)[٥]. وهذا الاستشهاد ورد في قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[٦].

---

(١) النص، ص ٢٧ فى الأصل العبرى.
(٢) سورة يوسف، الآية (٤٣).
(٣) النص، ص ٣٢ فى الأصل العبرى.
(٤) سورة المدثر، الآيات (٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠)
(٥) النص،ص ٣٨ فى الأصل العبرى.
(٦) سورة الأنبياء، الآية (٦٩).

كذلك استشهد بكثير من الآيات القرآنية في مواضع عديدة منها قوله تعالى فـــي سورة يوسف ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ وقـــولـــه في سورة آل عمران ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ ﴾[١]. وأيضا قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[٢].

ب- الأحاديث القدسية

رأينا فيما سبق الاستشهادات والاقتباسات التي استعان بها المؤلف من الشعر والمأثور العربي الإسلامي وهي كثيرة ومتنوعة، تدل على أنه اطّلع جيدا على روافد الفكر والتراث العربي المتاحة له في عصره، والتي لم تكن خافية عليه. فاستوعب ما فيها من فكر ومعرفة، إلا أنه لم يكتف بهذا القدر من التحصيل. فنجده يلجأ إلى مصادر أخرى لها دورها في تشكيل فكره وثقافته ألا وهي مصادر الفكر الإسلامي المتمثلة في المصدر التشريعي الأول وهو القرآن الكريم ويليه المصدر التشريعي الثاني وهو الأحاديث القدسية والنبوية الشريفة. ومن الجدير بالذكر أنه من اليسير على قارئ هذا الكتاب أن يستشف بسهولة هذه المصادر، وأن يدرك أنها مستمدة من التراث الإسلامي بنصها تارة، وبمعانيها تارة أخرى. وفي كلتا الحالتين لم يفصح عن هذا المصدر كعادته.

ونظرا لأن هذا الكتاب هو تقليد لكتاب "الهداية إلى فرائض القلوب" لبحيا بن فاقودا، المعتمد على إحياء علوم الدين للغزالي. فهو يتطرق إلى موضوعات توضح الطريق إلى ترسيخ الإيمان في القلوب والمنهج الذي يجب على المؤمن أن

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٧). والنص، ص ٢٥، و٢٨، و٥٠ فى الأصل العبرى.

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٨٦). والنص، ص ٤٦ فى الأصل العبرى.

يتبعه من ضرورة التزام التواضع، والتوبة، والخشوع والزهد، والتوكل على الله، فاستعان بالمصادر الإسلامية لتعينه على ترسيخ هذه الفضائل في قلوب الناس.

كانت الأحاديث القدسية التي رواها النبي (صلى الله عليه وسلم) عن رب العزة مصدرًا من مصادر كتابه، منها ما جاء في الفصل الرابع في حديثه عن التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، فيقول: (إن العبد إذا نوى على فعل خير أو توبة ووافته المنية قبل فعلها تكتب له حسنة، وإذا نوى على سيئة ووافته المنية قبل فعلها لا تكتب له سيئة، فسبحان اللطيف بعباده)[١].

وفي قوله هذا إشارة إلى حديث قدسي جاء فيه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال، يقول الله: (إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها. فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة. وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف) [٢].

ولنا أن نجزم أن المؤلف قد أفرط في اقتباساته واستعانته بهذا المصدر الإسلامي. فنقل منه ما يتلاءم مع ما يذهب إليه في كتابه، ففي معرض حديثه في الفصل السابع عن الآخرة التي هي دار الحياة والبقاء، يتحدث عن النفس الإنسانية وهي أشرف الموجودات التي خلقها الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا إلى أن ينقلها إلى دار كرامته إما سعيدة وإما شقية بما اكتسبته. فيصور لنا هذه الحياة الأخرى

---

(١) النص، ص ٥٥ في الأصل العبري.

(٢) الإمام البخاري، ج٩، ص ١٤٤.

قائلاً: (إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[١]. فالمقولة ما هي إلا حديث قدسي حيث ورد: حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثي وزهير بن حرب، قالا: أخبرنا سفيان عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر -مصداق ذلك في كتاب الله- فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) [٢].

ج-الأحاديث النبوية الشريفة

لم يكتف المؤلف بالاستعانة بالأحاديث القدسية، بل اعتمد أيضًا على الأحاديث النبوية الشريفة. ونلحظ أن غالبية استشهاداته من الأحاديث القدسية أو النبوية الشريفة يحاول فيها أن يستعين بنص الحديث، ولكن بلهجة عامية بسيطة كأسلوبه الذي اعتاده في هذا الكتاب. ويسبقه بعبارة (قال الصالح – قال بعض الأولياء الصالحين- قيل)[٣]. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما ذكره في فصل التوكل على الله في كافة الأمور ومنها طلب الرزق، حيث قال: (قال الصالح: لو أن العالم لم يتوكلون على الله حسن توكله لرزقهم كما يرزق الطير تسرح خماصا وترجع بطانا)[٤]. هذه العبارات تحمل في نصها نفس مضمون الحديث الشريف، وفيه عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

---

(١) النص، ص ١٤٩في الأصل العبرى.

(٢) الإمام البخاري، ج٤، ص ١١٨.

(٣) النص، ص ٥٥، ٥٧، و٥٨ وغيرها في الأصل العبرى.

(٤) النص، ص ٥٧ في الأصل العبرى.

(لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[1]. حديث حسن رواه الترمذي.

ومن الأمور التي حرص المؤلف على تأكيدها في هذا الكتاب التوبة التي أخذ ينبه على ضرورة الإسراع إليها بالاستغفار من الذنوب والخطايا، والرجوع إلى الله، موضحا أن رحمة الله قد وسعت كل شيء. وأعلن عن هذا الرأي في الفصل السابع الذي ذكر فيه الدار الآخرة، فيقول: (وقد قال بعض الأولياء الصالحين لو لم تخطو لخلق الله سبحانه لقوم سواكم يخطو ويغفر ليم)[2]. وفي قوله هذا اقتباس من حديث شريف، حيث ورد أنه روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[3]. رواه مسلم.

من ناحية أخرى، فقد شاعت في جنبات مؤلفه أقوال ومضامين ذات نزعة صوفية تقرب الإنسان من تقوى الله، وتبعده عن ارتكاب المعاصي والزلات، وتحذر النفس من الوقوع في براثن الشبهات، والحث على محاربتها بالبعد عن زخرف الدنيا، ومفاتنها بالزهد فيها. فيقول: (وقال آخر: ازهد في معصية الله يحبك الله، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس)[4]. وهذه المقولة ما هي إلا حديث نبوي شريف، فقد ذكر عن سهل بن سعد الساعدي (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في عند الناس يحبك الناس)[5]. حديث حسن رواه ابن ماجه.

---

(١) الإمام النووي، باب التوكل على الله، ص٤٥.

(٢) النص، ص ٤٨ في الأصل العبري.

(٣) الإمام النووي، باب الاستغفار، ص ٥٩٨.

(٤) النص، ص ٥٧ في الأصل العبري.

(٥) الإمام النووي، باب الزهد، ص ١٨٩-١٩٠.

كل هذه المضامين التي عثرنا عليها بين طيات كتابه استوحاها من أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أو ما رواه عن رب العزة سبحانه، وشكلت بالنسبة له مصدرا غنيا لإثراء مادة مؤلفه.

٢- الأدب العربي:

كان للأدب العربي بصفة عامة دوره البارز عن سائر المصادر التي استعان بها المؤلف في مؤلفه وينقسم إلى قسمين:

أ - الشعر

من الواضح أن هذا الكتاب يضم عددًا وفيرًا من أبيات الشعر العربي استعان بها المؤلف في كل فصل من فصول كتابه، غير أنه لم ينسب أبيات الشعر التي ذكرها إلى ناظميها من الشعراء العرب، ربما كان ذلك عن قصد منه، أو أنه يحفظ الأبيات الشعرية فقط دون الالتفات إلى أسماء الشعراء. من ناحية أخرى نجده يحرص على كتابة البيت الشعـــري كاملاً دون الاكتفاء بشطر دون الآخر. إلا أنه يُؤخذ عليه عدم حرصه على كتابة الأبيات الشعرية كتابة لغوية صحيحة، بل في بعض الأحيان يلجأ إلى تدوينها بلهجة عامية بسيطة، وكثير منها في حاجة إلى مراجعة لغوية دقيقة لتصحيح ما بها من تصحيف.

من الأشعار العربية التي استعان بها ما جاء به في الفصل الرابع حين تحدث عن فضيلة العلم والعلماء، والحث على ضرورة اكتساب المعارف والعلوم والعمل بها، ليرتفع شأنه، ويعلو قدره بين الناس. فقال: وقال شاعر آخر من العلماء:

تعلم فليس المــرء يخلــق عالمـــا   وليس أخـــا علــم من كـــان جاهلا

إن كبير القـــوم لا علـــــم عنـــده   صغيـــر إلى التفت عليـــه المحافـــل[١]

---

(١) النص. ص ٥٤ في الأصل العبري.

وتنسب هذه الأبيات العربية إلى الشاعر العباسي (محمد بن كناسة) والتي يقول فيها من بحر الطويل:

تعلـم فلـيس المـرء يخلـق عـالمًا وليس أخـو علـم كمـن هو جاهلُ

وإن كبيـر القـوم لا علـم عنـده صغيـر إذا التفـت عليـه المحافل

ويسهب المؤلف في الاستشهاد بالأشعار العربية التي تحث على فضيلة تحصيل العلم. فيقول: وقال شاعر العرب في ذلك:

وفي الجهـل بقـل الموت موتٌ لاهله فأجسـامهم قبـل القبـور قبـور

وإن امـرء لا يحيـا بالعلـم ميت فليس له قبـل النشـور نشـور [1]

البيتان السابقان ينسبان إلى الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في فضل طلب العلم لأنه النافذة التي يطل بها المتعلم على العلوم والمعارف فتنير له الطريق، ولأن العلم يمحو الجهل، ويرشد إلى الحق، ويدعو إلى الفضيلة. فيقول في بحر الطويل ما يلي:

وفـي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله فـأجسـامهم قبـل القبـور قبـورُ

وإنَّ امـرأ لـم يحي بالعلـم ميتٌ وليـس لـه حتى النشـور نشـورُ

ومن الأشعار العربية التي اقتبسها في معرض حديثه في الفصل الخامس عن رفضه لزعم المنجمين أن الأفلاك والكواكب تؤثر على مقدرات الإنسان، بيد أنـه يرى أنها مقهورة ومجبورة لأمر خالقها لا تعصي أمره. فأفعاله صادرة منه لا منها. وأورد في ذلك قائلاً: وقد قال الشاعر في ذلك:

إن كـنـت تـزعم أن النجـوم تضـر وتنفـع مـا تحـتـهـا

فـلا تعتبـر علـى مـن قـال أنـك بالله أشـركتهـا [2]

---

(١) النص، ص ٩٣ فى الأصل العبرى.

(٢) النص، ص ٧٩ فى الأصل العبرى.

اقتبس المؤلف هذين البيتين من قول الشاعر (منصور بن إسماعيل الفقيه) من بحر المتقارب:

وإن كـنـت تـزعم أن النجـــوم تضــر وتنفــع مـــا تحــتــهــا
فــلا تنكرنً علـــى مـــن يقـــول بإنــــك بالله أشـــــركـتـهــا

ويواصل ابن فيومي استعانته بالموروث الأدبي من الشعر العربي. ففي حديثه عن الزهد في الدنيا، وعدم الاكتراث بجمع الأموال والثروات، والانشغال عن ذلك بذكر الله وعبادته، والزهد فيما في أيدي الأغنياء؛ لأن في ذلك ابتلاء من الله تعالى فـــي دار الدنيا، ليعوضهم عنها بما هو أشرف وأغلى من الأموال في الآخرة، وهو لا يمتحن إلا أولياءه ومحبيه، وفي ذلك يقول: وقال شاعر العرب في ذلك:

نزتـــاد همـــا كلمـــا ازتـــدنـــا غنى والفقـــر كـــل الفقـــر في الإكثار[١].

استعار المؤلف هذا البيت من قصيدة "حكم المنية في البرية جارِ" للشاعراليمني (علي بن محمد التهامي) في قوله في ذم التكالب على تحصيل الأموال والإكثار من جمعها، وضرورة أن يرضى الإنسان بما لديه، ويكفيه قوت يومه، لأن ما زاد على ذلك فهو لا محالة سيضيع ويفنى، فيقول:

نـــزداد هـــمًا كلمـــا ازددنـــا غنى والفقـــر كـــل الفقـــر فـــي الإكثارِ
ما زاد فوق الـــزاد خلّـــف ضائعًـــا فـــي حـــــادث أو وارث أو عـــارِ.

وفي حديثه في الفصل الرابع عن التواضع والزهد في الدنيا، وضرورة أن يتأمل الإنسان في أحواله كيف كان وإلى ما يصير يقول: وقال آخر:

الجســـم إلى صار نطفة في مشيمة نمت بـــدم الأحشـــاء شـــر نمـــاء
وهـــل هو إلا طرف بول وغيـــاط ولو طلي من طيـــب بكـــل طـــلاء

---

(١) النص، ص ١٣٦ في الأصل العبري.

ولاكـــن ســـرت جـــدراتـــه بـــزر قميـــص واسمـــــال رداء

فكيــف لشـــيء هـــذه صفتـــه لهـــو بعـــد يستحق ليقاس بفاء [١]

وهذه الأبيات السابقة تنسب للشاعر اليمني (السلطان الخطاب) نظمها في بحر الطويل. فيقول:

هل الجسم إلا نطفة في مشيمة نمت بـــدم الأحشـــاء شر نماءِ

وهل هو إلا ظرف بول وغائط وإن يطل من طيب بكـــل طلاءِ

كثيـــف ولكـــن سُترت جُدُراته بـــزرِ قميـــص واشتمال رداءِ

فبُعدًا لشيء هـــذه صفةٌ لـــــه وسحـــقًا ونـــأيًا لا يقاس بناءِ

ب- الحكم والمأثورات العربية الإسلامية

كانت المأثورات العربية الإسلامية المتعددة والمتنوعة من أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في تدوينه لهذا الكتاب الذي اعتبره بستانا حافلا بكافة الألـــوان والأشكال المختلفة من القضايا التي تمس الحياة الدينية والعقلية والاجتماعيـــة فـــي المجتمع اليهودي في بلاد اليمن. وهو في نفس الوقت لم يـــستطع إغفـــال الثقافـــة العربية الرفيعة التي كانت بمثابة غذائه العقلي والفكري، بصفة خاصة ذلك المأثور العربي الإسلامي الذي يعبر عن النزعة الصوفية من زهـــد، وذم الـــدنيا بمفاتنهـــا الخادعة. كما عبّر عن النزعة الأخلاقية التي تدور في فلـــك التوكـــل علـــى الله، والتوبة، والصوم، والصدقة. هذا ولم يغفل المؤلف الأدعية والابتهالات الدينية.

---

(١) النص، ص ٥٨ فى الأصل العبرى.

وحقيقة الأمر أن المؤلف في ثنايا فصول كتابه "بستان العقول" قد ضم كما هائلا من المأثورات الوعظية والأخلاقية التي خلفها السلف من الصحابة والتابعين والصالحين وأخذها عنهم الخلف جيلاً بعد جيل ليعتبروا بها ويفيدوا منها حيناً، ويضيفوا إليها أحيانًا أخرى.

ولا بد أن نوضح أنه كما لم يذكر المؤلف المصادر التي كان يقتبس منها من العهد القديم أو من التلمود وشروحه المختلفة، فإنه استمر على هذا النهج ولم يحد عنه حتى عند استشهاده بالمصادر العربية الإسلامية. فنجده لم يعر أي اهتمام إلى الإشارة إلى تلك المصادر التي استعان بها وضمنها مؤلفه. بل كان يذكر قبل المأثور العربي الذي نقله (قال بعض العلماء - قال بعض الأنبياء- قيل - قال آخر- قال بعض الصالحين).

ومن الموضوعات التي كثيرًا ما تتردد في المأثور الإسلامي، ذم الدنيا والتحذير منها وعدم الإفراط في محبتها، وضرورة التمسك بطاعة الله سبحانه وتعالى، ذلك لأن الدنيا لا تستحق من الإنسان أن يتمسك بها بينما يغفل عن دار الآخرة.

فمن المواعظ والمأثورات التي نقلها في حديثه عن ذم الدنيا قوله (وقال: الدنيا يومان، يوم لك ويوم عليك، فما كان لك أتاك، وما كان عليك فلا تدفعه بقوتك)(١). هذا المأثور الإسلامي استقاه المؤلف من خطاب الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى عبد الله بن العباس (رضي الله عنه) والذي يقول فيه: (أما بعد، فإنك لست بسابق أجلك ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك).

---

(١) النص، ص ٧٠ في الأصل العبري.

ويستمر المؤلف في حديثه عن ذم الدنيا قائلاً: (وقال آخر: لمّا سُئل عن الدنيا قال: أقول في دار أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن فقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد واتته ومن بصر بها بصرته ومن أبصر إليها أعمته)[١]. وهذا المأثور اقتبسه المؤلف من خطبة للإمام علي (رضي الله عنه) في صفة الدنيا، حيث قال: (ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، وفي حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها أبصرته، ومن أبصر إليها أعمته).

ويبدو أن خطب ومواعظ الإمام علي حول التحذير من الدنيا ومفاتنها، كانت من المصادر الإسلامية الأساسية التي اعتمد عليها المؤلف في كتابه، فنجده يشير في موضع آخر قائلاً: (وقال: لا تذمها بالمرة فهي دار صدق لمن صادقها، ودار نجاة لمن فهم عنها ودار عناء لمن تزود منها)[٢]. فهذه العبارات تتطابق مع ما أورده الإمام علي في صفة الدنيا حيث ذكر (إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها).

وإذا انتقلنا إلى مضمون آخر من المضامين التي تأثر فيها المؤلف بالمأثورات العربية، فنجد منها ما استخلص منه حكمة وعظة يحث فيها على التوكل على الله في طلب الرزق. فيقول: (الرزق رزقان: رزق يطلبك، ورزق تطلبه، ما أحسن الذي يطلبك فإن لم تأتيه أتاك)[٣]. وهذا المأثور مستمد أيضًا من مواعظ وحكم الإمام علي في التوكل على الله في طلب الرزق، حيث قال: (الرزق

(١) النص، ص ٥٨ فى الأصل العبرى.

(٢) النص، ص ٥٨ فى الأصل العبرى.

(٣) النص، ص ٧٠ فى الأصل العبرى.

رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل همّ سنتك على همّ يومك، كفاك كل يوم ما فيه، فإن تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهمّ لما ليس لك، ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب، ولن يبطئ عنك ما قد قدر لك).

كذلك عندما رغب في توضيح ضرورة ارتباط العلم بالعمل – وذلك في الفصل الرابع الذي تحدث فيه عن فضيلة العلم والعلماء. فيقول المؤلف: (وقيل: العلم يحتك بالعمل إن أجاب وإلا ارتحل) [1]. وهذه العبارة السابقة تأثر فيها المؤلف بمقولة الإمام علي التي أطلقها في اقتران العلم بالعمل. حيث قال: (العلم مقرون بالعمـل، فمـن علم عمل، ومـن عمـل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل).

والأمثلة على تلك المأثورات والحكم العربية والإسلامية كثيرة ومنتشرة بين جنبات هذا المؤلف والتي لا يسعنا المجال هنا إلى ذكرها ونسبتها إلى قائليها من الصالحين والحكماء والزهاد المسلمين، فمنها ما ورد في الأدعية والابتهالات الدينية[2]، ومنها ما جاء في فضيلة الصدقة والصوم والتوبة إلى الله.

سهير دويني

---

(١) النص، ص ٥٣ فى الأصل العبرى.

(٢) النص، ص ٦٠-٦١ فى الأصل العبرى.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم أبتدئ[1]، وبكلماته أهتدي، وبحدوده أقتدي. اللهم عونك ورضاك.

تبارك الله إله إسرائيل[2]، الأول قبل كل أول، معلّ علة العلل، القديم الذي لا يزال، الأوحد لا بالعدد، الموحّد، الفرد، الصمد، الذي لا يلد ولا يولد، والواحد بالحقيقة، الفرد بالأزلية. باعث الأرواح، ومنشئ الأشباح[3]، مكوّن الأجرام، ومصوّر الأجسام، ذو المجنّ للأجسام والإجلال والإعظام، والمنزّه من التحديد، الفاعل لما يريد. له الحكم والتقدير، والقضاء والتدبير، والحمد والثناء، والجود

(١) يبدو من هذه الافتتاحية تأثر المؤلف بالكتابات العربية الإسلامية، حيث اعتاد يهود البلدان العربية البدء بعبارة בשם רחמן (باسم الرحمن) في كتاباتهم، وعلى رأسهم الشاعر الأندلسي يهودا اللاوي الذي يفتتح إحدى غفرانياته بعبارة בשם אלוה אברהם אפתחה (أستهل باسم إله إبراهيم)، كذلك سليمان بن جبيرول في كتابه תיקון מדות הנפש (إصلاح الأخلاق) يفتتحه قائلا בשם המלמד אדם דעות (باسم من علّم الإنسان المعرفة)، وبدأ موسى بن ميمون كتابه היד החזקה (اليد القوية) بعبارة בשם ה" ממש ולא רק בדבור (باسم الإله حقا وليس قولا فحسب).

– נתנאל בירב פיומי: ספר בוסתאן אלעקול، עמ' 1، הערה 1. (نتنئيل بيرف فيومي: كتاب بستان العقول، ص١، هامش ١).

(٢) في النص (إلاه).

(٣) لم يدون المؤلف الهمزة الأخيرة في العربية سواء أكانت مسبوقة بألف مثل قضا قضاء، أو بياء مثل منشى (منشئ) أو بواو مثل المروة (المروءة). والأمثلة كثيرة ومتناثرة بين طيات الكتاب.

وللعطاء، والملك والبقاء، والعَظَماء والكبريـــاء، والإبـــداع والملكـــوت، والوحـــدة والجبروت[1]. وهو الحي الذي لا يموت، الأزلي بأزليتـــه، الـــدائم بديمومتـــه[2]، والبـــارئ بـــربوبيته، والقادر على ما شاء الذي ليس كمثله شيء، أنشأ الشيء من لا شيء، ليس له حد ولا وصف، ولا حيث ولا كيف، لا العـــرش لـــه مـــن قبـــل المكان، ولا الكرسي من قبل الجلوس، من لا يوصف بقيام ولا بقعود ولا بحركـــة ولا بجمود، ولا بوالد ولا بمولود، ولا موصوف ولا محدود. من ذل له كل معبود، وخضعت جميع الخلائق بالسجود، ولا له دخول ولا خروج، ولا نزول ولا عـــروج، تجاوز حد العقول والأفهام، والخواطر والأوهام، غير منعوت الـــذات ولا مُـــدرك بالصفات، تعالى سبحانه[3] عما يقول العالمون[4] علوا كبيرا، كمـــا ســـبّحه عليـــه السلام[5] وقال (نحميا ٩: ٥) "وليتبارك اسم جلالك المتعـــالي علـــى كـــل بركـــة وتسبيح".

أما بعد، فإن أول ما أبدعه البارئ تبارك وتعالى العقل الكلي الذي هو معدن الحياة، ومنبع الخيرات، وأصل السعادات، ومعدن المنبعثات والأفلاك، والأمهات والأنفس الشريفات، والأجساد المركبات، والصور المختلفات في الأراضين والسماوات، أبدعه البارئ الله سبحانه بأمره ومشيئته[6]، لا من شيء، ولا في

---

(١) في النص (الجبروة).

(٢) في النص (ديموميته).

(٣) اعتاد المؤلف تدوينها بصورة مختصرة: تع وسب، سب وتع، تع سب.

(٤) في النص (العالمين).

(٥) اعتاد المؤلف تدوين هذه العبارة بصورة مختصرة: ع س، عل الس.

(٦) درج يهود العصر الوسيط الذين كانت كتاباتهم بالعربية بحروف عبريـــة، علـــى أن يكتبـــوا الهمزة المفردة تبعا للحركة السابقة باستخدام حرف المد، فإذا كانت الحركة السابقة كـــسرة كتبت الهمزة ياء، وإذا كانت ضمة كتبت واوا، وأما إذا كانت فتحة أو همـــزة علـــى ألـــف فيكتفى بالألف فقط ولا تكتب الهمزة؛ لذا فقد وردت هذه اللفظة في النص: مـــشييته، حيـــث استبدل بالهمزة في العربية ياء عند التدوين.

شيء، ولا لشيء، ولا مع شيء ولا بشيء، بل شاء سبحانه أن يكون فكان عقلا كاملا، ولذاته عاقلا، وباختراعاته كافلا، ولكل مفعول فاعلا، ولكل محمول حاملا، فصار ساكنا من حيث استوى، بالكمال والتمام، ومتحركا(١) شكرا لما وصل إليه من مبدعه من الإنعام، وبذلك نطقت الكتب المقدسة بقوله (الأمثال ٨:٢٢) "الرب ملكني أول طريقة من قبل أعماله منذ القدم"، وأيضا (الأمثال ٨:٢٤) "إذ لم يكن غمر أبدئت"، (الأمثال ٨: ٢٧) "لما ثبّت السموات كنت هناك أنا". فلما رأى إلى ذاته نزّه مبدعه سبحانه عن جميع الصفات التي(٢) وجدها في ذاته، وامتلأ فرحا وسرورا، وجذلا وحبورا بما رأى(٣) في ذاته من الخيرات الكلية، والبقاء السرمدي، والحياة الدائمة، وعلو رتبته عند مبدعه تقدست أسماؤه(٤). وقد نطقت بذلك الكتب المقدسة بقوله: (الأمثال ٨: ٣٠) "كنت عنده صانعا وكنت كل يوم لذته فرحة دائمة قدامه"، ففاض من ذلك السرور والحبور، وانبعثت منه النفوس الكلية. ومن العلماء من زعم أنه انبعث منه في العالم عقول مجردة، وترتبت تسع مراتب بإزاء التسعة(٥) الأعداد التي هي انتهاء الآحاد، وكملت بالإبداع الأول عشرة. وهي التي صدر منها، وتنتج جميع العالم أعلاه وأسفله. وجعلوا(٦) دليلهم على ذلك خلق العالم بعشر كلمات (الآباء ٩٥ / ٤٠، ١) "وعلى عشر كلمات ينتصب العالم". وأما

---

(١) في النص (متحرك).

(٢) في النص (الذي) حيث اكتفى المؤلف باستخدام اسم موصول واحد في العربية، وهو (الـذي) للتعبير عن كافة الأسماء الموصولة في العربية (المفرد والجمع والمؤنث والمذكر)، ويبدو أنه تأثر بوجود اسم موصول واحد في العبرية وهو אשר.

(٣) اعتاد المؤلف تدوين الألف المقصورة في العربية ألفا مع الأفعال التي الألف فيها أصلها واو أو ياء، مثل: رأى، دونها (رأا).

(٤) في النص (اسمايه) حيث استبدل بالهمزة في العربية ياء عند التدوين.

(٥) اعتاد المؤلف تدوين الأعداد بحروف عبرية مثل: الـ ט.

(٦) لم يدون المؤلف الألف بعد واو الجماعة، والتي يطلق عليها الألف الفارقة أو الفاصلة، مثل: (جعلو = جعلوا) وغيرها الكثير.

الحكماء[1] فقالوا عن الخبر الصادق: (مبحث النذور ٣٩) "خلقت سبع كلمات قبل خلق العالم هي كالتالي: التوراة، جنة عدن وجهنم والعرش المقدس واسم الملك المسيح ومكان القدس". وجابوا على ذلك دلائل من الكتب المقدسة كما شرحوا ذلك في التلمود، وقالوا: (الأمثال ٨: ٢٢) "الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم" ***جنة عدن***، حيث قال: (التكوين ٢: ٨) "وغرس الرب الإله جنة عدن شرق" ***جهنم***، حيث قال: (إشعيا ٣٠: ٣٣) "لأن تفته مرتبة منذ الأمس" ***كرسي العرش***، حيث قال: (المزامير ٩٣: ٢) "كرسيك مثبتة منذ القدم" ***التوبة***، حيث قال: (المزامير ٩٠: ٢-٣) "قبل أن تولد الجبال ترجع الإنسان إلى الغبار وتقول ارجعوا يا بني آدم " ***اسم الملك المسيح***، حيث قال: (المزامير ٧٢: ١٧) "يكون اسمه إلى الدهر قدام الشمس يمتد اسمه" ***المكان المقدس***، حيث قال: (إرميا ١٧: ١٢) "كرسي المجد مرتفع من الابتداء هو موضع مقدسنا".

ومن العلماء من أضاف إلى ذلك حروف ***الحروف***[2] أنها أبدعت قبل عالم الإبداع. إذ بها نطق كل ناطق، وسبّح كل مسبّح. وجعل دليله على ذلك (التكوين ١: ١) "في البدء خلق الرب السموات والأرض" أي الحروف الكاملة من ألف إلى تاء، والنور الأول الذي قبل النيرات الذي قال فيه (التكوين ١: ٣) "وقال الرب ليكن نورا" فالقولان متقاربان[3]. وإن كانت دلائل أولئك التي هي ***في عشر كلمات*** إنما هي توازن تلك الرتب العددية في هذا العالم؛ لأن ***عشرة الأقوال*** إنما هي في دفعات، وكل واحد منها يتضمن شيئًا خلقه البارئ سبحانه، فمنها بلا زمان

---

(١) في النص (الحخميم) وهي من الأسماء العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.

(٢) في النص (الأوتيوت) وهي من الأسماء العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها حروف الهجاء.

(٣) في النص (فالقولين متقاربين).

ولا مكان، وهو أولها (التكوين ١: ٣) "وقال الرب ليكن نورا"، وباقيها في زمان ومكان كقوله: (التكوين ١-٢) "وقال الله ليكن جلذا. وقال الله لتجتمع المياه، وقال الله لتنبت الأرض عشبا. وقال الله لتكن الأنوار. وقال الله لتفض المياه، وقال الله لتخرج الأرض. وقال الله نعمل الإنسان. وقال الله هاأنذا أعطيت، وقال الله ليس حسنا أن يكون آدم بمفرده". وقيل (التكوين ١: ٢٨) "وقال الله أثمروا وأكثروا". فهذه توازن هذه. وفي هذا الإنسان الذي هو عالم صغير عشرة أعضاء توازن ذلك، وسنذكر ذلك بعد انتهائنا إليه بعون الله سبحانه.

فكان المبدع الأول في رتبة الواحد، والنفس الكلية في رتبة الثاني، وباقي الرتب كذلك. وفي التوراة[١] أكنى بها ***الحكماء*** عن الحكمة الإلهيّة وهي الإبداع[٢] الأول. ***وجنة عدن*** أكنوا بها عن النفس الكليّة التالية[٣] للعقل[٤] وهي محل المثابين[٥] الذين[٦] هم الأنفس الجزئيّة[٧] التي[٨] انبثت منها في عالم الطبيعة، وكذاك باقي الرتب إلى أن انتهت إلى عالم الأفلاك والنجوم. وهو عالم خفيف فانتقشت فيه جميع الصور في ذلك العالم اللطيف. وتسلسلت منه إلى العالم الكثيف بقدرة الحكيم القادر. وذلك للدالين على حكمته ونفاذ قدرته، فتقابلت وتوازنت الثلاث العوالم من كثيفها وخفيفها ولطيفها حتى تناسبت الجميع منها، ودل على

---

(١) في النص (التوريه).
(٢) في النص (الباداع).
(٣) في النص (اتاليه).
(٤) في النص (لا لعقل).
(٥) هذه اللفظة غير معروفة.
(٦) في النص (الذي).
(٧) في النص (الجزوية).
(٨) في النص (الذي).

حكمة صانعها، أنه صنعها بحكمة متقنة، وما صنعت نفسها. وقد نطقت[1] الكتب المقدسة بقوله (المزامير ١٠٤: ٢٤) "ما أعظم أعمالك يا رب"، وقال: (الأمثال ٣: ١٩) "الرب بالحكمة أسس الأرض، أثبت السموات بالفهم". وكان الإنسان آخر المصنوعات، وهو عالم صغير. وآخر كيفية ذلك في الفصل التالي لهذا التعديد إن شاء الله تعالى.

وقد سمّينا هذا الكتاب "بستان[2] العقول" وقد جعلنا كتابنا هذا سبعة فصول.

فالفصل الأول: منها في توحيد الله سبحانه الذي لا إله إلا هو.

والفصل الثاني: في أن الإنسان عالم صغير يوازن الثلاث العوالم التي[3] تقدمته بالكون، وهو اللطيف والخفيف والكثيف.

والفصل الثالث: في التزام[4] الطاعة لله تبارك وتعالى في السر والإعلانية، وإيجاب عبادته ظاهرا وباطنا.

والفصل الرابع: في ذكر التوبة إلى الله عز وجل، والانتباه إليه والخشوع بين يديه. وغير ذلك من الزهد، والتواضع، وفضيلة أهل العلم، والعمل في الدنيا والآخرة.

والفصل الخامس: في التوكل على الله عز وجل في جميع الأمور الدينية والدنيوية[5]، والاعتبار بجميع مخلوقاته التي[6] في العالم الأعلى والعالم الأسفل.

---

(١) في النص (نطقة).
(٢) في النص (باستن).
(٣) في النص (الذي).
(٤) في النص (التازام).
(٥) في النص (الدنيايية).
(٦) في النص (الذي).

وظاهر حكمته في جميع الخلائق دقيقها وجليلها، وأرزاق الخلائق أجمعين، وأمر فضيلة الموت وغير ذلك[1].

والفصل السادس: في ذكر فضائل المسيح[2] ***عجل الله قدومه*** وذكر ***الخلاص***[3] لإسرائيل عجّلها الله عز وجل، وفي إبطال نسخ التوراة[4] بالدلائل العقلية والشرعية والسمعية والعبرانية والعربية بما فيه كفاية.

والفصل السابع: في ذكر ***العالم الآخر*** الذي هو دار الآخرة، التي هي الانتهاء وإليها المأوى، وهو الحياة والبقاء، وفي تنزيه الخالق سبحانه عن خلقة الشرور بأسرها.

---

(١) وردت في النص بأكمله (ذالك) فلم يراع المؤلف أن هناك بعض الكلمات في العربية يصيبها الحذف حين الكتابة حسب قواعد معينة منها حذف الألف في ذلك وكذلك وأولئك، وهذا الحذف للتخفيف ولكثرة استخدام هذه الكلمات على الألسنة.

(٢) في النص (الماشيح) وهي من الأسماء العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية بمعنى المسيح.

(٣) في النص (اليشوعا) وهي من الأسماء العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية بمعنى الخلاص.

(٤) في النص (التوريه).

الفصل الأول

في توحيد الله تبارك وتعالى، وأنه سبحانه لا إله إلا هو في الأولين والآخرين والأعلين[1] والأسفلين

كقول الكتاب (المزامير١٨: ٣٢) "لأنه من هو إله غير الرب، ومن هو صخرة سوى إلهنا"، فقال *الحكماء*:

يا من تسمى بكل اسم وهو على حاله مقيم

ظهرت في عالم البدايات وأنت مولاهم القديم.

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه[2]، أن هذا الباب هو أصل العلوم والأديان والمذاهب والاعتقادات مفتاحها[3] وقانونها وقطبها. وبه ينماز الإيمان من الشـــرك، ويكمـــل الـــدين ويثبت اليقين، وتكون العبادة صحيحة لا يشوبها كدر ولا يداخلها خلل.

---

(١) في النص(الأعليين).

(٢) نوّع ابن فيومي في طرق الإفادة من فرقة إخوان الصفا، حيث لجأ إلى نقل كثير من العبارات الشائعة في رسائلهم والتي غالبا ما ترددت في الافتتاحيات الخاصة بفصول الكتاب أو ببداية الموضوعات منها عبارة (اعلم أيها الأخ أيدك الله وإيانا بروح منه) وكذلك (اعلم يـــا أخـــي وفقك الله وإيانا إلى السداد وهدانا وإياك إلى الرشاد) وقوله (اعلم يا أخي أيـــدك الله وإيانـــا برحمته) وقوله أيضا (اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك إلى رضاه). - انظر الكتاب: صـــفحات ٧-٤٤-٥٠-٨٤-٩٢-٦١ وغيرها.

(٣) في النص (مفتحها).

واعلم بأن العقول الشريفة والآراء اللطيفة قد حكمت بأن العوالم جميعها أعلاها وأسفلها، دقيقها وجليلها كانت معدومة قبل وجودها، فأوجدها غيرها، وكـــونها ســـواها، ورتبها علـــى مـــا هي عليه الآن، وملكها وقهرها بالجبر حتّى لا تتعدّى[١] حكمه، ولا تزول عن أمره وتقديره، وأنها ما خلقت نفسها؛ لأن من المحال أن الشيء يخلق نفسه، ويكوّن ذاته، فلو كانت الأشياء خلقت نفسها لكانت مالكة نفسها، مخيرة في فعلها، تفعل ما تشاء، عنـــدما تشاء. مثل ذلك أن الشمس لو كانت خلقت نفسها وكوّنت ذاتها ولم يكن[٢] لها خالق سواها، ولا مالك يقهرها، لكانت ربما تظهر تارة من المشرق وتارة من المغرب، وترطب كل ما كانت تنشفه، وتجفف ما كانت ترطبه، وتمكث في أي البروج أحبّت، وتمضي من هناك أي وقت أحبّت، وتطلع متى أحبّت، ولربما اختارت أن لا تغرب أبدا. وكذلك سائر الكواكب العلوية والأمهات السفلية، فالمثل في[٣] ذلك كله واحد. فلما كانت الأشياء على ما عايناها لم تترك مسيرها ولا تتحول عن طباعها ولا تتغير عمّا هي عليه من قديم الزمان، علمنا وتيقنّا أنها مخلوقة محدثة مملوكة مقهورة، وأن غيرها الذي أحدثها وسيّرها وقهرها بالجبر، وطبع فيها من الطبائع المختلفة كالحرارة في الشمس، والبرودة في القمر، وما يشبه ذلك من طبائع الكواكب[٤] وطبائع الأمهات، ومسير الكواكب المختلفة الحركات على ما سنذكر طرفة من ذلك في فصل هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

---

(١) في النص (تعدى).

(٢) في النص (لم يكون).

(٣) في النص (كي).

(٤) في النص (الوكاكب).

فلما صح أن للعالم خالقا سواه، وصانعا غيره[١]، بحثنا عن الصانع، هل هو واحد أو أكثر. فوجدنا الأشياء على كثرتها أن علاّتها أقل منها عددًا إلى أن تنتهي إلى العلة الواحدة، كالعدد الذي يعود إلى واحد الذي منه منشأه ومبدأه[٢]. وكذلك الأشياء كلها العليا والسفلى تعود[٣] إلى علة العلل. وهو أول مبدع أبدعه البارئ جل ثناؤه[٤] ومشيئته وإرادته لا في زمان ولا في مكان، ولا لشيء ولا بشيء على ما تقدم الكلام في أول الكتاب.

فكان المبدع سبحانه معل علة العلل، خالق الواحد والوحدة، فتنزّه عن أن يوصف بعلة أو بمعلول، أو يُنعَت بنعت إبداع أو انبعاث. فلما ألحت[٥] الضرورة الكلية إلى الإقرار بالصانع جل جلاله من حيث امتنعت الأشياء أن تصنع هي نفسها، صح لنا بالبرهان الواضح أن للعالم صانعا[٦]، وأنه واحد الذات لا أكثر؛ لأن المنطق لا يقدر أن يلفظ بتوحيد أقل من واحد ولا أكثر. ومن الدليل أن الإلهية المقدسة ذات واحـدة، بسبب[٧] تنـاقض الإرادة فـي الاثنين، إذ كل واحد منهما يريد ما لا يريده الآخر، فإن كانت إرادتهما مستوية فالذات بلا شك واحدة. وإن كانت مختلفة فمن المحال أن الاثنين أو أكثر خلقوا العالم لاختلاف إرادتهم؛ لأن العالم متقن الصنعة، محكَم البنية، وفيه أشياء كثيرة متضادة[٨] ومختلفة، والكل متقن بالحكمة الإلهية، والصنعة الربانية بعالي وحدانية خالقه ومُنْشِئه ومُدَبِره وبارئه، وأن صانعه تقدست أسماؤه واحد لذاته لا كالآحاد، حكيم لذاته لا كالحكماء،

---

(١) في النص (خالق سواه وصانع غيره).
(٢) في النص (منشاه ومبداه).
(٣) في النص (الأعليين والأسفليين يعودو).
(٤) في النص (ثناه).
(٥) في النص (ألجت).
(٦) في النص (صانع).
(٧) في النص (من سبب).
(٨) في النص (متضاددة).

حي موجود، أزلي، باق[1]، دائم الوجود من غير أزلية أفاضها من سواه، ولا حياة استفادها من غيره، ولا حكمة اكتسبها من حكيم آخر أو موجد أوجده، بل هو معطي الأزل والبقاء والحياة والحكمة والدوام، إذ معدن الكل لذاته، وأنه الحي المجرد المنزّه من أوصاف المخترعات والمنبعثات والمخلوقات أولها وآخرها وجوهرها وعرضها وكثيفها ولطيفها، لا يشبهها ولا تشبهه، وكيف يشبه المخلوق بخالقه، والمبدع بمبدعه، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا. وسنذكر في كل فصل من كتابنا بما أمكن ولاق في الموضع الذي سنذكر من التوحيد على ما يحتمله الموضع من الكلام إن شاء الله. إذ بذلك أُمرنا، وبسببه أُوصينا، ولمعرفته أُنشئنا، وقد عرّفنا بذلك الكتاب في عدة مواضع، فمن ذلك قوله: (التثنية ٤: ٣٩) "فاعلم اليوم وردد"، وقال: (التثنية ٦: ٤) "اسمع يا إسرائيل"، وقوله: (التثنية ٣٢: ٣٩) "انظروا الآن أنا أنا هو، أنا أميت وأحيي"، وقوله: (إشعيا ٤٥: ٦) "لكي يعلموا أن من مشرق الشمس وحتى مغربها أن ليس غيري أنا الرب". وكثير من ذلك في الكتب النبوية المنزلة تشهد بأنه سبحانه واحد الذات، بريء عن الصفات. لا يشبه شيئا[2]، كقوله: (إشعيا ٤٠: ٢٥) "فبمن تشبهونّي فأساويه، يقول القدوس"، وقوله: (إشعيا ٤٠: ١٨) "فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به" وقوله:(إشعيا ٤٦:٥) "بمن تشبهونني وتسوونني وتمثلونني لنتشابه" وكثير من ذلك. وقد صنف[3] العلماء في ذلك عدة كتب، صنف ربي سعديا بن يوسف وغيره على ما قدروا عليه ووصلوا إليه، ولم يكلف الله نفسا إلا وسعها[4]، فهو سبحانه أجلّ وأعلى وأشرف وأوفى من كل صفة وموصوف، وأعلم العالمين، وأصدق الصادقين، وأقدر

---

(١) في النص (باقي).
(٢) في النص (شيء).
(٣) في النص (صنفو).
(٤) استعان المؤلف في مواضع كثيرة من فصول كتابه بآيات الذكر الحكيم، ومنها هذه الآية الكريمة التي اقتبسها المؤلف من قوله تعالى في سورة البقرة الآية (٢٨٦) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

القادرين، وأحكم الحاكمين، معلّ علّة الموجودات، وخالق المخلوقات، وفائض الجود، ومعطي الوجود، ومعدن الفضائل والخيرات، حافظ النظام، ومبقي الدوام، ومدبر الكل، وعالم الغيب، أول لكل ابتداء، وآخر لكل انتهاء، ظاهر سر وباطن على كل شيء علمه، وهو السميع العليم اللطيف الخبير الرءوف الرحيم، فسبحان من هذه القدرة قدرته، وهذه المشيئة مشيئته، فقد خلت الألسن عما تصفه، وعجزت[١] النفوس عمّا تمدحه، كما ناجاه بعض الصالحين:

اللهم يـا مـن يجـلّ أن يقال، يا من فهمه بالمدعيين[٢] مشبها، ويمتنع أن لا يقال، يا من فيك تعطيل، ومعها بالفكر منك على مصروف، والوهم بين الحركة والسكون موقوف، والطريق ما بين النفي والإثبات مَخُوف. سبحان من أوجد الموجودات منقسمة إلى عقول شريفة، وأنفس لطيفة، وأجرام خفيفة، وأجسام كثيفة، والأسماء والمسميات والصفات والموصوفات، فتعالى الله عن أن ينال كنه معرفته شيء من هذه الأقسام، أو أن تدركه الأوهام، أو تحيط به الأفيام، وكيف يفهم المُبدعُ بِمُبدعِه، والمخترع بمخترعه، من غير مناسبة تسوقه إليه، أو مجانسة تجانس بها عليه، فلا يحويه وقت، ولا يحيط به نعت، فكنه توحيده أن لا يتوهم وقعه، وأن لا يتهم، جلّ عن وصف الواصفين، وعزّ عن نعت الناعتين، فحمدًا حمدًا على ما أفاض به، وشكرا شكرا على ما أنعم به، أشكره وأتوكل عليه، وأفوض أمري إليه، كقول وليه عليه السلام: (المزامير ٣٢: ١٠) "أما المتوكل على الرب فالرحمة تحيط به"، وقال: (المزامير ٢٢: ١٩) "ليكن اتكالك على الرب، عرفتك أنت اليوم".

تم الفصل الأول ويتلوه

---

(١) في النص (عجزة) بالتاء المربوطة بدلا من المفتوحة.

(٢) في النص (بالمدعيون) وإن كنا لا نعلم ما المقصود منها.

الفصل الثاني

إن الإنسان عالم صغير(1) وهو أشرف الموجودات تحت فلك القمر

قال: ولما كان الإنسان آخر المصنوعات وعنده وقفت الصنعة بموجب الحكمة الإلهية، وصار أشرف الموجودات في عالم الكون والفساد، فجعله البارئ

---

(١) لم يكن ابن فيومي هو أول من أشار إلى فكرة أن الإنسان عالم صغير، بل شاعت هذه الفكرة لدى غالبية الفلاسفة، وتطرقوا إليها في مؤلفاتهم الفلسفية منهم سليمان بن جبيرول في مؤلفه (ينبوع الحياة) حينما تحدث عن أن الإنسان يتكون من العالم الروحي والمادي معا فجسمه من العالم المادي وروحه وإدراكه من العالم الروحي؛ لذا فهو عالم صغير. تطرق إلى هذه الفكرة أيضا ابن فاقودا في مؤلفه الفلسفي (الهداية إلى فرائض القلوب) حيث أسهب في الحديث عن أن الإنسان عالم صغير، وذكر ذلك في الباب الثاني من مؤلفه، والذي خصصه لشرح وجوه الاعتبار بالمخلوقين وفضل نعمة الله عليهم وفيه يقول "والركن الثاني في أثر الحكمة الظاهرة في نوع الإنسان الذي هو العالم الصغير".עיין- יוסף קאפח: ספר תורת חובות הלבבות לרבנו בחיי אבן פקודה، ירושלעם، תשל"ג، עמ' 7- 104 – 105. (انظر: يوسف قافح: كتاب علم فرائض القلوب لسيدنا بحيا بن فاقودا، القدس، ١٩٧٣، ص ٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥). كما حملت مؤلفات فلسفية هذا الاسم منها مؤلف "عالم صغير" لأبي عمر يوسف بن يعقوب بن صديق (*468-544هـ*) وهو شاعر وفيلسوف يهودي، ولد في قرطبة، اعتنق الإسلام في أواخر حياته، عين قاضيًا سنة ٥٣٣هـ. نظم الشعر الديني والدنيوي، ومن أهم أعماله في مجال الفلسفة مؤلف بعنوان (عالم صغير) وفيه يذهب إلى أن الإنسان عالم صغير بالنسبة للعالم الكبير وهو عالم المخلوقات، وترجم هذا الكتاب إلى العبرية بعنوان " עולם קטן " (عالم صغير). انظر: محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة،١٩٧٠، ص٧٩. עיין גם האנציקלופדיה העברית، כרך(19)، עמ' 675. (انظر أيضا: دائرة المعارف العبرية، الجزء (١٩)، ص ٦٧٥).

تبارك وتعالى عالما صغيرا مناسبا[١] للثلاث العوالم التي ذكرنا، ومؤاخيًا[٢] لها، وفضله على جميع الخلائق. وسلطه على جميع الموجودات من جماد ونبات وحيوان، وقد نطقت بذلك الكتب المقدسة بقوله: (المزامير ٨:٦) "وتنقصه كثيرا عن الرب"، (المزامير ٨: ٧) "تسلطه على أعمال يديك"، وأيضا (المزامير ٨: ٨) "الغنم والبقر جميعا". واعتبرنا الإنسان وأحواله وأموره بجميع ما زعمه العلماء عالما صغيرا[٣]، فيجب علينا أن نتفكر ونبصر بأخلاقه جميعها الجسمانية والنفسانية، الظاهرة منها والباطنة، لنعرف جلالة صانعه ومنشئه تعالى لتزداد[٤] عظمته في قلوبنا ولنعبده حق عبادته، وقد نطقت بذلك الكتب المقدسة بقول أيوب: (أيوب ١٩: ٢٦) "ومن جسدي أرى الله". فلما بحثنا عن ذلك وجدنا الإنسان واحدا[٥] بإزاء الواحد، ووجدناه مركّبًا[٦] من الجوهرين روح لطيف وجسم خفيف بإزاء الاثنين، وجسمه طويل عريض عميق[٧] بإزاء الثلاثة.

كذلك النفس ثلاث قوى[٨]، فواحدها قوة الحس والشهوة التي مسكنها الكبد، وهي تجانس أرواح البهائم. والثانية القوة الغضبية التي مسكنها القلب، وهي تجانس

---

(١) في النص (عالم صغير مناسب).

(٢) في النص (مؤاخي).

(٣) في النص (عالم صغير).

(٤) في النص (ومنشيه تعالى لتزتاد).

(٥) في النص (واحد).

(٦) في النص (مركب).

(٧) سبق أن أشار إخوان الصفا في رسائلهم إلى هذه العبارات، وذلك في فصل (اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الموجودات) حيث ورد قولهم (وكان الإنسان إنما هو مجموعة من جوهرين مفروقين، أحدهما هذا الجسد الجسماني الطويل العريض العميق المدرك بالحواس، والآخر هذه النفس الروحانية العلاّمة المدركة بطريق العقل). انظر: خير الدين الزركلي: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، الجزء الثالث، ص ٤.

(٨) في النص (قووا).

أرواح الجن. والثالثة القوة الناطقة العاقلة التي مسكنها الدماغ، وهي تجانس أرواح الملائكة. وكذلك بإزاء الأربعة الدم والبلغم والصفراء والسوداء. فطبيعة[1] الدم حار رطب بإزاء طبيعة الهواء، وطبيعة البلغم بارد رطب بإزاء طبيعة الماء، وطبيعة الصفراء حارة يابسة بإزاء طبيعة النار، وطبيعة السوداء باردة يابسة بإزاء طبيعة التراب. وكذلك فيه خمس حواس بإزاء الخمسة، وهي: حاسة السمع، وحاسة البصر، وحاسة الشم، وحاسة الذوق، وحاسة اللمس. وكذلك له ست جهات بإزاء الستة، وهم: يمين وشمال، وقدام وخلف، وفوق وتحت. وكذلك فيه سبعة خروق برأسه بإزاء السبعة، وهم: أذناه وعيناه، ومنخاراه[2] وفمه. وكذلك فيه ثمانية بإزاء الثمانية، وهم: الجاذبة والماسكة والهاضمة والرافعة والنامية والمصورة والمولدة والمربية[3]. وفيه تسعة جواهر بإزاء التسعة، وهم: الظفر والجلد والشعر واللحم والدم والعظم والمخ والعروق والعصب. وفيه عشرة أعضاء بإزاء العشرة، وهي: القلب والدماغ والكبد والرئة[4] والمرارة والطحال والكليتان والمعدة والأنثيان[5]

---

(١) في النص (فطبيعت) بالتاء المفتوحة، وتكررت كثيرا.

(٢) في النص (أذنيه وعينيه ومنخاريه).

(٣) تردد مضمون هذه العبارات في أكثر من موضع من الرسائل فقد ورد عنهم في الرسالة الثانية عشرة من الجسمانيات، في فصل (اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك) قولهم: (كذلك وجد في تركيب جسد الإنسان تسعة جواهر وهي العظام والمخ واللحم والدم والعصب والجلد والشعر والظفر... ولما كان الفلك مقسوما اثنى عشر برجا، وجد في بنية الجسد اثنا عشر ثقبا مماثلا له وهي العينان، والأذنان والمنخران والثديان والفم والسرة والسبيلان... كذلك وجدت في الجسد سبع قوى جسمانية، وهي القوى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة). انظر: خير الدين الزركلي: رسائل إخوان الصفا، الجزء الثالث، ص ٣-١٠.

(٤) في النص (الريّة).

(٥) في النص (الكليتين والمعدة والأنثيين) ورد في المعجم الوجيز (الأُنثيان): الخُصيتان، أو الأذنان، يقال: ضربه تحت أنثييه. انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ١٩٩٠م، ص٢٦-٢٧.

وكذلك قد صنف بعض العلماء تشريحا آخر في الإنسان، فجعله بإزاء كما قد سبق الكلام، وجعل النفس والجسم بإزاء السماء والأرض، وبإزاء موسى وأهارون عليهما السلام[1]؛ لأن مثلهما مثل السماء والأرض، وما ورد من السماء التقطته[2] الأرض، كذلك أن السيد أهارون يتلقى ما ورد به موسى كقوله: (الخروج ٦: ١-٢) "انظر جعلتك إلهًا لفرعون" "وأنت تتكلم وبإزاء ***اللوحين*** لأن أصلهما من الأرض، والكتابة فيهما من السماء. وبإزاء توراة ومشنا، وبإزاء الدنيا والآخرة". وكذلك جعل الله سبحانه كل شيء زوجين، وجعل في الدنيا أشياء كثيرة متضادة من كل خَلْقَ اثنين. وكل ذلك دليل على أنه واحد بالحقيقة سبحانه، لا كالواحد من المُحْدَثين الذي الوحدة فيه مجازية لا حقيقة. سبحانه أعلى وأنفى من أن يوصف بصفة. وهو خالق الوحدة والواحد. فما أمكن النطق أن ينطق بألطف من ذلك.

فأما ما جعل سبحانه من الاثنين والمتضادين، فمثل الحياة والموت، والغنى والفقر، والنور والظلام، وأول وآخر، وظاهر وباطن، ونهار وليل، وحر وبرد، وحرث وبيار، وعلم وجهل[3]، وطَيِّب ونَتِن، وثُقل وخِفة، وخشونة ولين، وصلابة ورخاوة، وعلو وسفل، ونفع وضر، وربط وحل، وأمان وخوف، وسلامة وحرب، وعسر ويسر، وشدة وفرج، وضيق وسعة، وجواهر وأعراض، وسقم وصحة، وسمانة وحسن، وبحر وبر، وسهل ووعر، ونحس وسعادة، وفرقة واجتماع، وسم وترياق، وخادم ومخدوم، وغير ذلك مما لا يحيط به إلا هو سبحانه. وكذلك جعل في الإنسان جملة أخلاق متضادة كثيرة جدا، وقد أحصينا منها مائة وأربعين خلقا فلنذكرها، وهي:

---

(١) في النص (عليهم السلام).

(٢) في النص (التقته).

(٣) في النص(علما وجهلا).

العلم والجهل، والحفظ والنسيان، والنشاط والكسل[١]، والكرم والبخل، والشجاعة والجبن، واليقظة والنوم، والحركة والسكون، والدخول والخروج، والقيام والقعود، والكلام والصموت، والرحمة والقساوة، والفرح والحزن، والضحك والبكاء، والصدق والتكذيب، والثقة والظلم، والعدل والجور، والتواضع والتكبر، والأمانة والخيانة، والعفة والقحة، والحسد والعبادة، والصلف والحياء، والقناعة والشره، والعجز والقوة، والفصاحة والانقطاع، والجوع والشبع، والعطش والرواء، والمغيب والحضور، والعري والاستتار، والذم والشكر، والعي والذكاء، والغضب والرضا، والبلاهة والفطانة، والعجل والأناة، والجرأة والحياء، والشبق والعفة، والرفس والصيانة، والتضييع والحفظ[٢]، والمعصية والطاعة، والوفاء والجحود، والتهاون والحزم، والخطأ والصواب، والعداوة والصداقة، والإيمان والكفر، والحلم والبطش، والشك واليقين، والمعروف والمنكر، والخوف والإيمان، والصلة والقطيعة، والرشد والغواء، والرجاء واليأس، والاحتمال والحدة، والعفو والانتقام، والتقوى والحمق، والنصيحة والغش، واللب واللعب[٣]، والنزاهة والسفه، والإنصاف والغدر، والرغبة والرهبة، والعبس والسماحة، والرخاوة والشدة، واللطف والفظاعة، والفزع والاطمئنان[٤]، والبر والعقوق، والتيه والخشوع، والألفة والوحشة، والانفراد والخلطة، والإقرار والاجتحاد، والبشر والضجر، واللين والقساوة، والجملة سوء الخُلُق وحسن الخُلُق، فذلك مائة وأربعون خُلُقًا[٥] للإنسان، يقدر أن يستعمل كل خُلُق في موضعه.

---

(١) في النص (النشط والكسل).
(٢) في النص (التضيع والحفظ). وقد أهمل المؤلف وضع واو العطف في حالات كثيرة.
(٣) في النص (اللب والعب).
(٤) في النص (الطمنان).
(٥) في النص (وأربعين خلق).

وكذلك بإزاء الثلاثة: حي، ناطق، ميت، وفيه ثلاثة شركاء الخالق سبحانه، ووالداه، وبإزاء الدهر ثلاثة: ماض[١] وحال ومستقبل، والزمان والمكان والوقت. وبإزاء ***ثلاثة آباء: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب***، وبإزاء ***ثلاثة عوالم يراها الإنسان: واحد في بطن أمه، وواحد الدنيا، وواحد الآخرة***، وبإزاء ***الكتب الثلاثة المفتوحة في السماء أمام الخالق سبحانه: كتاب للصديقين، وكتاب للمتوسطين وكتاب للأشرار. أما كتاب الصديقين فقد كُتب وخُتم إلى جنة عدن. وأما كتاب الأشرار فقد سُطر وخُتم إلى جهنم، وأما كتاب المتوسطين فهو معلق لهم حتى رأس السنة القادمة إذا أحسنوا يزكيهم وإذا أساءوا يدينهم***، وبإزاء ***كهنة، لاويين، إسرائيليين*** وبإزاء ***توراة، أنبياء، مكتوبات***، وبإزاء رؤساء العالم ومدبره. وبإزاء ***نبي، حكيم، وملك***، وبإزاء ***مقدسات ثلاثة***، وبإزاء العلوم الثلاثة: علم الأديان، وعلم الأبدان، وعلم الأزمان. والزمان: ماضٍ وقاضٍ ومستقبل[٢].

وكذلك الأربعة، الناس على أربعة ضروب، فمنهم من له علم وليس له عمل، ومنهم من له عمل وليس له علم، ومنهم من له العلم والعمل. ومنهم من لا له علم ولا عمل. وقد قال بذلك بعض شعراء العرب:

أربعة في الناس ميزتهم وأحوالهم بيّنة ظاهرة

فواحد دنياه قدامه وليس له آخرة.

وواحد ليس بدنيا ولا خلفه آخرة وافرة.

وآخر حاز كليهما[٣] سعيد في الدنيا وفي الآخرة.

وآخر يبكي على كليهما[٤] لا دنيا ولا آخرة.

---

(١) في النص (ماضي).

(٢) في النص (ماضي وقاضي).

(٣) في النص (كلاهما).

(٤) في النص (كلاهما).

وكذلك أربعة فصول: صيف وخريف وربيع وشتاء، وأيضا أربعة ***فصول*** وهي في حلول الحمل والسرطان والميزان والجدي على مرور الزمان. والزمان أربعة: يوم وأسبوع وشهر وسنة. والأهوية أربعة: الدبور والصبا والشمال والجنوب. والأعداد أربعة: آحاد وأعشار ومئات[١] وألوف. وكذلك الناس على أربعة ضروب: منهم من بلغ العلوم الظاهرة ولم يبلغ العلوم الباطنة، ومنهم من وقف على الباطنة ولم يقف على الظاهرة، ومنهم من بلغ كليهما[٢]، ومنهم من لم يبلغ إلى أيهما، فهم بإزاء الأربعة الأنواع النباتية التي افترض الله على بني إسرائيل أن يمسكوها في صلاة[٣] عيد المظال. ومنها من له طعم وليس له رائحة فهذي النخل، ومنها من له رائحة وليس له طعم كالآس، ومنها ما له رائحة وطعم كالأترنج، ومنها من ليس له رائحة ولا طعم كالصفصاف. وكذلك أيضا الناس على أربع طبقات: منهم صالح يلد صالحا[٤]. قال فيه: (المزامير ٤٥: ١٧) "عوضا عن آبائك يكون بنوك". وصالح يلد طالحا[٥]، قال فيه: (أيوب ٣١: ٤٠) "معوض الحنطة لينبت شوك". وطالح يلد صالحا[٦]. قال فيه: (إشعيا ٥٥: ١٣) "عوضا عن الشوك ينبت سرو". وطالح يلد طالحا، قال فيه (صموئيل الأول ٢٤: ١٣) "من الأشرار يخرج الشرير". وكذلك ضروب الغفرانات أربعة وهي أربعة ***أقسام التكفير*** المعروفة. وضروب الطاعة أربعة، وضروب المعاصي أربعة، والحرمانات أربعة خصال ما لا يحصى، كمثل نجس ينجس، ومنجس لا نجس، ونجس ولا منجس، ولا منجس ولا نجس. وكذلك في ***زواج الأرملة من أخي زوجها وطلاقها منه***[٧]، وكذلك ***زيت وقربان وبخور ودهن بالزيت المقدس، وبكر للابرث وللكاهن***. وكذلك

---

(١) في النص (مبين).
(٢) في النص (كلاهما).
(٣) في النص (يمسكوها فى صلات).
(٤) في النص (صالح يولد صالحا).
(٥) في النص (وصالح يولد طالح).
(٦) في النص (وطالح يولد صالح).
(٧)יבום: هو زواج الأرملة من أخي زوجها المتوفي، أما חליצה: فهو خلع المرأة لحذائها وهو طقس طلاقها من أخي زوجها المتوفي عند اليهود.

النيـــران أربعة: نار تأكل وتشرب وهي الحرارة الغريزية التي في الحيوان، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي النار الشاملة بين الناس، ونار تشرب ولا تأكل وهي الحرارة التي في باطن الأرض، ونار تأكل ولا تشرب وهي النار الأثير المحيط.

وكذلك جعل الله في الإنسان أربعة أشياء من طبع المعادن والنبات والحيوان والملائكة. فمن المعادن: الكون والفساد مثل المعادن، ومن النبات الغذاء والنمو مثل النبات، ومن الحيوان الحس والحركات مثل الحيوان، ومن الملائكة العبادة والحياة الدائمة. فإذا عَبَد الله حق عبادته كان لا يموت[1]. وكذلك جنوس العلم أربعة: الأول- الرياضيات والتعليميات، والثاني- الطبيعيات والجسمانيات، والثالث- النفسانيات والعقليات، والرابع- الناموسيات والإلهيات.

وكذلك خلق الله سبحانه في العالم أربعة أشياء بسيطة تركبت منها أربعة أشياء، فالبسيطة: النار والهواء والماء والتراب، والمركبات: المعادن والنبات والحيوان والناس. وكذلك صارت أمراض الأجسام تحدث من سوء إمزاج باختلاف أحد الأربعة الطبائع التي فيه، وهي الدم والبلغم والمرتين، الممازج لهم الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة. فألّفت لذلك العلماء كتبًا[2] طبية في استعمال عقاقير يطول شرحها، ويتسع علمها إلى غير حد. فقابلها بإزاء أربعة أصول لعلل النفس

---

(١) أساس هذه الفكرة مستمد من الرسالة الثانية عشرة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفا، وهو قسم الطبيعيات الجسمانيات، وأفاض فيه الإخوان بالحديث عن الإنسان كعالم صغير بالنسبة للعالم الكبير الذي يحتوي على كل الموجودات، فقالوا (لما كان الإنسان هو جملة مجموعة من جسد جسماني، ونفس روحانية وجدوا في هيئة بنية جسده مثالات لجميع الموجودات التي في العالم الجسماني من عجائب تركيب أفلاكه وأقسامه وأبراجه واختلاف جواهر معادنه، وفنون أشكال نباته، وغرائب هياكل حيواناته، ووجدوا أيضا لأصناف الخلائق الروحانيين من الملائكة والجنة والإنس والشياطين ونفوس سائر الحيوانات... تشبيها من النفس الإنسانية، وسريان قواها في بنية الجسد). انظر: خير الدين الزركلي: رسائل إخوان الصفا، الجزء الثالث، ص ٣- ٤.

(٢) في النص (كتب).

يحدث منها أمراض صعبة جدا لا تكاد أن تبرأ منها، وبرووؤها[1] أصعب من بروء الأجسام إلى بعد غاية، إلاّ باستعمال العقاقير والأدوية التي ألفتها الأنبياء (صلى الله عليهم) الذين هم أطباء الأنفس، وشرحوها في كتبهم الموحى بها إليهم من الله سبحانه. وأما الأصول التي لعلل أمراض النفوس فهي الجهالات المتراكمة والأخلاق السيئة[2] والآراء الفاسدة والأعمال القبيحة، فإذا حدثت[3] على النفوس يعدم جوهرها، ويظلم ضوؤها وتكسف بصيرتها، وتثقل أوزارها، ولا تطيق أن تستقل بذاتها، كفانا الله ذلك وإياك برحمته. ولو ذهبنا إلى وصف ما صنف ***الحكماء*** رحمهم الله من الأربعة، لكثر ذلك وطال وصفه مثل قوله (مبحث بابا بترا ١٠٨/ ١٠) "هناك وارثون وموّرثون، وموّرثون وليسوا وارثين، ووارثون وليسوا موّرثين، وليسوا موّرثين ولا وارثين". ومثل قوله (مبحث البركات ٥٤/ ٢) "أربع خصال في المتصدق، أربع خصال في السائر لبيت المقدس، وأربع يجب الاعتراف بفضلها". وأمثال ذلك كثيرة لكنا تركنا ذلك لشهرتها. ومثل ***أربعة خلاصات خلصت إسرائيل من مصر***. ومثل ***أربع ممالك*** التي بازائهما. ومثل (دانيال٧: ٣) "وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة" التي رآها السيد دانيال عليه السلام، والذي أورى الله أبراهام بإزاء ***نزلت رهبة مظلمة عظيمة*** وجعل الحكماء رحمهم الله مثل أيضا ***الحرق وسعفة الجلد والصدفية والطفح الجلدي، وأربعة أنهار: كيحون وبيشون وحدقل والفرات*** ومثلها ***في نمل، وبار، وجراد، وعنكبوت*** وكذلك ***أربع عقوبات تحل على الأشرار*** قيل: (المزامير١: ٦) "يمطر الرب على الأشرار فخاخا، نارا وكبريتا، وريح السموم". وفي (حزقيال ٣٨: ٢٢) "سيعاقبهم بأربع عقوبات وهي

(١) في النص (بروها).

(٢) في النص (السايية).

(٣) في النص (حدثة) بالتاء المربوطة.

المطر المنهمر، وحجارة البرد، نارا، وكبريتا"، (حزقيال ١٤: ٢١) "وأربعة أحكام شريرة: سيفا، ووحشا، وقحطا، وحيوانا مفترسا"، (زكريا ٦: ١) "أربع مركبات". (زكريا ١: ٢٠) "وصنّاع أربع". وكذلك الكواكب على أربعة ضروب منها ما يظهر بالنهار وهي الشمس، ومنها بالليل لا بالنهار وهي الكواكب الشمالية، ومنها ما لا يظهر لا بالليل ولا بالنهار وهي الكواكب الجنوبية التي[١] حوالي القطب، ومنها ما يظهر بالليل والنهار وهو[٢] القمر، وكذلك الكواكب أيضًا على أربعة ضروب، ثلاثة بروج نارية، وثلاثة هوائية، وثلاثة مائية وثلاثة ترابية. والماء على أربعة ضروب: ما يصعد من الأرض إلى الهواء وهو أصل المطر، وما ينزل من الهواء إلى الأرض وهو فرع المطر، وما في الأعلى وهو الماء المجمد، وما ثابت في السفل دائما وهو ماء البحر مخزونًا، كقوله (المزامير ٣٣: ٧) "يجمع كند أمواه اليم". والنبات على أربعة ضروب: منها ما هو غذاء ودواء كالحنطة والشعير وما يشاكلهما، ومنها ما هو غذاء لا دواء كالسكر والأدهان وما شاكلهما، ومنها ما هو دواء لا غذاء كالهليلج وخيار وشنبر وسائر العقاقير التي[٣] في الحشائش، ولا دواء ولا غذاء كالأشواك وما يشبهها.

وكذلك الخمسة الكواكب المتحيرة وبإزاء أسفار التوراة الخمسة. وبإزاء ***خمسة مخلوقات خلقها الرب في عالمه***. وبإزاء الخمس الصلوات في ***صوم يوم الغفران***. وكذلك الخمسة الحواس التي في الإنسان والحدود العلوية. وبالجملة إن صورة الخمسة في الأعداد لا تنتقل ولا تتغير عمّا هي عليه، مثل في ***خمس وعشرين*** فما زاد بلغ ما بلغ.

---

(١) في النص (الذي).
(٢) في النص (هي).
(٣) في النص (الذي).

وكذلك الستة بإزاء الست جهات العالم، وبإزاء الستة الألوان التي خلقها الله سبحانه في العالم وهي البياض والسواد والحمرة والخضرة والإسمانجوني، وبإزاء ***ستة مباحث للمشنا وستة مباحث للتوسفتا***، وبإزاء ستة بروج طالعة أبدا فوق الأرض، وستة غائبة أبدا تحت الأرض، وستة جنوبية وستة شمالية، وفي ناحية الشمال يقيم الظلام ستة أشهر ولا يخالطه ضياء، وفي الجنوب يقيم أيضا الضياء ستة أشهر ولا يخالطه ظلام. ***وأيام العمل ستة***، وست جهات العالم ***وستة أجنحة للواحد***. وكذلك ستة خروق في الأجسام في الجانب الأيمن وستة في الجانب الأيسر. وكذلك السبعة فإنها أكثر وأعظم شرح وبالخاصة لشرف يوم السبت عند الله تعالى وتشريفه له وتقديسه إياه؛ لأنه سابع الأيام وآخرها ومنتهاها ووقف عددها عنده، فكل من حفظ السبت كما أمر الله سبحانه وعرفه حق معرفته ووقّره[١] كما أمرت الشريعة مع تقوى الله سبحانه فقد كمل دينه له. ومن تخلف عن ذلك فقد فاته الدين بأسره، فإنها ممثولة بالإنسان. للنفس سبع قوى روحانية، وللجسم سبع قوى جسمانية، فالجسمانية: الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والنامية، والمربية والمصورة. والذي للنفس سبع قوى روحانية وهي: السامعة، والباصرة، والشامة، والذائقة، واللامسة، والناطقة، والعاقلة. وهم بإزاء السبعة الكواكب السيارة. فللخمسة السيارة عشرة بيوت من البروج وللنيرين بيتان[٢]، الواحد مما يلي القمر، والثاني مما يلي الشمس، وهما الأسد للشمس والسرطان للقمر، وللخمسة السيارة عشرة بيوت فلزحل الجدي والدلو، وللمشترى القوس والحوت، وللمريخ الحمل والعقرب، والزهرة الثور والميزان، ولعطارد الجوزاء والسنبلة. وكذلك في جسم الإنسان، اثنا عشر نقبًا وهي: أذناه وعيناه ومنخراه وفمه وسرته وثدياه وسبيلاه[٣]، فذلك اثنا عشر نقبا، منها عشرة

---

(١) في النص (اقاره).

(٢) في النص (بيتين).

(٣) فى النص (اثنا عشر نقب وهى: أذنيه وعينيه ومنخريه وفمه وسرته وثدييه وسبيليه...)

لخمس قوى واثنان لقوتين بإزاء الكواكب. فللنيرين الفم للشمس والسرّة للقمر، والأذنان بيتا عطارد، والعينان بيتا المشترى، والمنخران بيتا المريخ، والسبيلان بيتا زحل[١]. وكذلك عيناه[٢] سبع طبقات، بين كل طبقتين رطوبة وقوة من البصر ليست بين الأخريين[٣]. وكذلك جعل الله سبحانه مجرى القوة السامعة في الأذنين، ومجرى القوة الباصرة في العينين ومجرى القوة الشامة في المنخرين، ومجرى القوة اللامسة في اليدين، ومجرى القوة الذائقة الشهوانية في الفم والفرج، ومجرى القوة الناطقة في اللسان وهي بإزاء القمر، ومجرى القوة العاقلة في الدماغ وهي بإزاء الشمس، تمد الناطقة تنطق، والمعاني التي تعبر بها عن الكلام ثمانية وعشرون حرفا كما تمد الشمس النور للقمر يضيء به في ثمان وعشرين منزلة من أول نشأته إلى كماله واستحقاقه بقدرة منشئهم وبارئهم تقدست أسماؤه. وكذلك في الأرض سبعة أقاليم ثمان وعشرون بقعة، وكذلك من فضيلة السبع عند الله سبحانه جعل الطفل المولود لسبعة أشهر يعيش وابن الثمانية يموت، على أنه زائد شهرًا، وذلك لأسرار لا يعلمها إلا الله سبحانه أو أنبياؤه الذين أعلمهم إياهم، والراسخون[٤] في العلوم التي توارثوها

---

(١) هذه العبارات التي ذكرها المؤلف لها أساس وأصل في فكر إخوان الصفا، من نحو ما نجد في الرسالة الثانية عشرة في قولهم (وسبع قوى أخرى روحانية، وهي القوى الحساسة أعني الباصرة والسامعة والذائقة والشامة واللامسة والقوة الناطقة العاقلة والقوة الحساسة مناسبة للخمسة المتحيزة، والقوة الناطقة مناسبة للقمر، والقوة العاقلة مناسبة للشمس، وذلك أن لكل واحد من الكواكب الخمسة بيتين في الفلك أحدهما في حيز الشمس والثاني في حيز القمر، والنيران لكل واحد منهما بيت... والعينان في الجسد مناسبتان لبيتي المشترى في الفلك، والأذنان في الجسد مناسبتان لبيتي عطارد في الفلك، والمنخران في الجسد والثديان مناسبتان في الجسد لبيتي الزهرة، والسبيلان لبيتي زحل، والفم لبيت الشمس، والسرة لبيت القمر). انظر: خير الدين الزركلي: رسائل إخوان الصفا، الجزء الثالث، ص ١٠- ١١.

(٢) في النص (والأذنين بيتى عطارد والعينين بيتي المشترى، والمنخرين بيتي المريخ والسبيلين بيتي زحل وكذلك عينيه).

(٣) في النص (الأخرتين).

(٤) في النص (الراسخين).

عنهم، ووفقوا إليه بفضله. وكذلك جعل الأفلاك سبعة أقسام، والأقاليم سبعة، ومن فضيلة السبعة عند الله سبحانه اعتبرنا أحوال **التقويم العبري**[1] الذي لبني إسرائيل لسنينهم وأعيادهم وصياماتهم المشروعة عليهم في التوراة. وما نقل إليهم بالخبر الصـادق عـن الأنبياء عليهم السلام ***أول أيام عيد الفصح لا يأتي في أيام الاثنين أو الأربعاء أو الجمعـة. وأول أيام الاجتماع لا يأتي فـي أيام الثلاثاء أو الخميس أو السبت. وأول أيام رأس السنة لا يأتي في أيام الأحد أو الاثنين أو الجمعة، وأول أيام عيد الغفران لا يأتي في أيام الأحد أو الثلاثاء أو الجمعة. أول أيام عيد البوريم لا يأتي في أيام السبت أو الاثنين أو الأربعاء*** بعد ***القوانين الدينية***[2] مرسومة من حكامهم القدامى، وأرواح الثقات رحمهم الله فوجدنا أصل ذلك وقانونه وتحريره على سبعة، سبعة، فسبع سنين ***بسيطة، وسبع كبيسة*** وذلك ***التقويم العبري*** وأصله ومدخله جميعه للدهر كله، وسنعمل في آخر هذا الكتاب لذلك جدولا عجيبا[3] ظريف الصنعة فيلتمسه الملتمس إن شاء الله سبحانه، ففي ذلك أجر عظيم للجميع وتمام الدين، والله ولي التوفيق برحمته سبحانه، وكذلك وعد الله سبحانه بإقامة (ميخا ٥: ٤) "سبعة رعاة على شعبه إسرائيل" فحانوخ السابع لآدم، وكان السيد المنير موسى بن عمرم عليه السلام، سابعًا من أبراهام، وذلك ***إبراهيم، إسحاق، يعقوب، لاوي، قهت، عمرم، موسى سابع***، وكذلك (أخبار الأيام الأول ٢: ١٥) "أوصم السادس، داود سابع"، وقالوا أيضا في أخبار التلمود إن الأسباط عليهم السلام، ولد كل واحد منهم لسبعة أشهر. وكذلك ***الصحارى***[4] ***سبعة وهي صحراء سيناء، وصحراء صهيون،***

---

(١) في النص (العبّور) وهي من الألفاظ العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربيـة، ومعناها حساب السنوات الكبيسة أو التقويم.

(٢) في النص (الداتيوت) وهي من المفردات العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها الأديان أو القوانين الدينية.

(٣) في النص (جدول عجيب).

(٤) في النص (المدباروت) وهي من المفردات العبرية التي أدخل عليها المؤلـف أداة التعريـف العربية ومعناها: الصحاري.

وصحراء شرقية، وصحراء القدس، وصحراء شور، وصحراء فاران، وصحراء سيناء هي أفضلهم، هي أفضلهم لأن التوراة نزلت فيها. وكذلك البحار سبعة وهي ***بحر سدوم، وطبرية، وسنجي اسفاميا، وحلتا، وبحيرة طبرية، والبحر العظيم***، وكذلك السماوات سبع، وهي ***سماء، مسكن، منزل، الطبقة السادسة للسماء، الطبقة الخامسة للسماء، غيوم، الطبقة السابعة للسماء***[1]. وكذلك الأرضين سبعة، وهي ***معمورة، أرض، دنيا، عالم، يابسة، بسيطة، مسكونة***[2]. وفرض عليهم ***سبعة أيام نجاسة وسبعة أيام طهارة، وسبعة أيام فرحة للظُلة وسبع بركات، وكان أمرنا تأخذ لك من البهيمة الطاهرة سبعة سبعة، وسبعة أيام كاملة، وأعمدة العالم سبعة، وسبعة عوالم، وسبعة آباء ظلوا في مجد العالم ولم يملكهم عظيم***، وكذلك سبّب الله سبحانه خلاص السيد يوسف (رحمه الله) بالمنامات التي رآها فرعون سبع بقرات حسان وسبع سنبلات ضخمات[3] وأضدادهن فكان خلاصه لتفسير ذلك على ما قد علمت ***وبلعام أقام سبعة مذابح، وعلى الشمعدان سبع من شموعها، والعفو والصفح في تشرين الذي هو السابع لنيسان، ونيسان فيه خلاص وهو السابع لتشرين***، وفي أكثر القرابين ***سبعة كباش عمرها سنة***. وكذلك ***سبع كلمات في نفيهم، وسبع في حكيم، وأنواع العقوبات سبعة تحل على أجساد مذنبة***. وكذلك افترض الله سبحانه على بني إسرائيل أن يعدوا سبعة أسابيع ويحجوا عند كمالهم إلى بيت المقدس حج الأسابيع، وأمرهم أن يستخدموا عبيدهم وإماءهم ست سنين ويطلقوهم في السابعة أحرارا، وأمرهم أن يعدوا من السنين سبعة أسابيع تكون تسعا وأربعين سنة،

---

(١) كنايات متنوعة عن السماوات.

(٢) كنايات متنوعة عن الأراضين.

(٣) ورد هذا المعنى في قوله تعالى في سورة يوسف الآية (٤٣) . ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

ويطلقوا الملك من الأرض ويعيدوها إلى أهلها الأولين في سنة خمسين، وأمرهم أن يحرثوا رياضهم ويزرعوها ست سنين ويسّيبوها في السنة السابعة. وفرض عليهم في صلوة[١] السبت ***سبع بركات*** وعنها يقول وليه (المزامير ١١٩: ١٦٤) "سبع مرات بالنهار سبحتك". وفي ***الصوم***[٢] ***سبع بركات***. ومما أكنى به عن سبعة خصوصا من بين رتب العدد ولو كان تفسيره كثيرا مثل قوله (الأمثال ٢٦: ٢٥) "في قلبه سبع رجاسات". وقوله (أيوب ٥: ١٩) "وفي سبعة لا يمسك سوء"، (الأمثال ٢٤: ١٦) "لأن الصديق يسقط سبع مرات ويقوم"، وقال (الأمثال ١٩: ٢٣)" ويبيت شبعان لا يتعهده شر". والسيد المنير اختار سبعين شيخا لسياسة الأمة. وكثير مثل ذلك في ذكر السبعة وفضيلته. وسنذكر في علم الدين ما أمكن ونردد فيما صلح العدد فيما نستأنف إن شاء الله سبحانه، وعند انتهائنا إلى ذكر الاعتبار بالمخلوقين نذكر في باب الكواكب السبعة والاثنى عشر برجا[٣] مما تيسر من ذلك إن شاء الله على قدر قصر معرفتنا، وفوق كل ذي علم عليم[٤]، والله عز وجل نسأله حسن التوفيق في الدين والدنيا جميعا برحمته.

ونذكر من ذلك ها هنا طرفا لتعلم أن السبعة الكواكب والاثنى عشر برجا هي أساس القوى وإليها أشار كل نبي وصاحب شريعة. فأما أن أساس هذا العالم فكما ترى أن السبعة الكواكب التي يخص كل كوكب منها فلك، والاثنى عشر برجا التي[٥] يخصها فلك واحـــد فيصير الكل تسعة عشر أساس الزمان، والمكان على سبعة أيام

---

(١) استخدم المؤلف الرسم العثماني لهذه اللفظة التي وردت في القرآن الكريم صلوة.

(٢) في النص (التعنيت) وهي من المفردات العبرية التي أدخل إليها المؤلف أداة التعريف العربية، ومعناها: الصوم.

(٣) في النص (البرج).

(٤) استشهد بهذه الآية القرآنية من قوله تعالى في سورة يوســف الآيـــة (٧٦)﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

(٥) في النص(الذى).

لا يزيد ولا ينقص. وكل الخلائق في اللغات والمذاهب والآراء إلا في هذه الأيام فإنهم لا يقدرون يزيدون ولا ينقصون[1]، وكذلك الاثنى عشر شهرا[2] وهي تنطوي أبد الآبدين بلا خلل. ولو زيد فيه أو نقص شيء لفسد النظام وانعكس ولم يثبت؛ لأن السبعة أصح الأعداد، وكذلك الاثنا عشر، وكذلك رسمت لنا الصلاة التي[3] بها نقرب إلى ملك الملوك ونبث بين يديه حوائجنا ونسأله أغراضنا، ونقر بذنوبنا ونطلب منه صلاحنا وتوفيقنا، فجعل ذلك ثماني عشرة بركة، والأولى[4] التي هي الأم بها وفى تسعة عشر، فذلك موازٍ[5] للسبعة والاثنى عشر. وكثير من السبعة والاثنى عشر مما هو عندنا أساس، وهو مغطى عن الجمهور والعوام وظهر للخواص، وأهل المعرفة مثل الثلاثة الفصول التي من التوراة التي علينا لازمة قراءتها في كل يوم دفعتين قبل أن تقرأ التسعة عشر وهي- ***اسمع وإذا كان مسموعًا فيقول***، ففيها جميعا تسعة عشر فصلا بعد إسقاط أحد الفصلين المرددين وهو ***وكتبتم***. ومثل ما استبدأت[6] التوراة وختمت على ما سنذكر ذلك في الفصل الخامس من هذا الكتاب، فإنّا قد ذكرنا ذلك هناك وغيره أيضا من السبعة والاثنى عشر، والذي لم نذكره هي ***الفسوق***[7] التي في آخر التوراة، وهي آخر ما ألف السيد المنير موسى عليه السلام وهي[8] (التثنية ٣٣: ٢٩) "طوباك يا إسرائيل". وبه أخبر ***الحكماء*** أن دليل الحروف إن هي اثنان وعشرون، هو أن التوراة استبدأت[9] بحرف باء وختمت بحرف كاف وهو ***في البدء*** الأول ***وتطأ***

---

(١) في النص (لا يقدرو يزيدو ولا ينقصو).
(٢) في النص (الشهر).
(٣) في النص (الذي).
(٤) في النص (الأولة).
(٥) في النص (موازي).
(٦) في النص (استبدت).
(٧) في النص (الفسوق) وهي من المفردات العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها: الفقرة من العهد القديم.
(٨) في النص (وهو).
(٩) في النص (استبدت).

الآخر، فإن فيه تسع عشرة كلمة وجميع هذه الأمور إنما هي مع بسطها للعالم بالألفاظ والمعاني الظاهرة فإن فيها هذه الأسرار والإشارات إلى السبعة والاثنى عشر. فأذهن يا أخي وأفق وتفكر في هذه الأسرار اللطيفة واختر[1] من معانيها وما تحتها من المعارف لتفوز وتنال النعيم الدائم وتخرج من دائرة الجهالة، وفقك الله بالصواب وإيانا برحمته.

وقد ذكرنا أشياء كثيرة مما توافق السبعة والاثنى عشر لطولها مثل الأنشودة الأولى[2] التي عدّوا ***فواسيقها*** من ***خلص*** إلى ***الرب يملك*** تسع عشرة ***فسوقًا***، ومثل ***الفواسيق*** التي بارك بها السيد يعقوب أولاده من رأوبين إلى يوسف، ***فواسيق*** جملتها تسع عشرة، وترك ليوسف وبنيامين. وكان من رتبتها في ذلك المكان أجل بفقرات أخرى، ومثل ***الفواسيق*** التي بارك بها السيد المنير سيدنا موسى عليه السلام فكان من جملتها إلى ***فسوق طوباك*** تسع عشرة، وكثير من ***الفواسيق*** التي أتت بها الأنبياء بإشارات. وجمل الأسفار، فإنك إذا حسبت اثنى عشر وحدها يبقى ثلاثة في الأنبياء الآخرة وأربعة في الأولى[3] فذلك تسعة عشر، وإذا جعلتها أربعة أولى[4]، وأربعة آخرة أضفت إلى ذلك أحد عشر سفر ***المكتوبات*** فذلك أحد عشر. ولو أردنا التطويل بذكر فقرات في ***الأنبياء والمكتوبات*** مما يوافق التسعة عشر لأتينا به، لكننا قصرنا لاختصار التنبيه لذوي العقول، فقد بيّنا لك يا أخي أن الزمان مبني على سبعة، والمكان أيضا على سبعة واثنى عشر، وسبعة واثنى عشر ***قسمًا***، (وأعلمتك ركب عليه).

---

(١) في النص (اختار).

(٢) في النص (الشيرا الأوله) و(الشيرا) هي لفظة عبرية بمعنى الأنشودة، أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية، أما (الأوله) فالصواب الأولى.

(٣) في النص (أوله).

(٤) في النص (الأوله).

وحتى صاحب العرب[1] ما آتاهم إلا من حيث هم، وقيدهم بذكر أربعة ألفاظ، وتحتوي فروعها على سبعة واثنى عشــر بخط العرب، فلا يفيق إلى ذلك إلا العلماء منهم، وأما الجهال فلا يعرفونها[2] ولا معناها، وهو أنه قال لهم: من قال "لا إله إلا الله" ويضيفون[3] إليها اسمه كأنه رسول، ويعتقدون[4] بأن قد فازوا بهذه الألفاظ وأنهم يدخلون[5] الجنة، ولو كان قصده ذلك لذلك لما طابقه أحد عليه من ذوي العقول، إلا أن يكون الإنسان بعد الإقرار بالله سبحانه يعمل ما يصلح أن يعمل ما أمر الله به على يد كل نبي إلى قومه. فإن كان واحد يمضي يسرق ويقتل ويزني ويعمل ما لا يرضي الله ويقول ألفاظًا يدخل بها الجنة، فليس هذا يقبله عاقل جملة ولا يستحسن، لكن لها معاني عندهم في خطهم وكتابهم يشير بذلك إلى معرفة السبعة والاثنى عشر التي هي أصول المصنوعات، وأساس الموجودات، فإذا صح للإنسان ذلك وعرفه ووحّد ونزّه استحق أن يدخل الجنة ويصير إلى النعيم الدائم. فأما ما يختص بهذه الألفاظ فإن عدد حروف "لا إله إلا الله" اثنا عشر، وعدد أجزائها في خطهم سبعة فذلك تسعة عشر. وذلك أن "لا" جزء، و"إله" جزآن، و"إلا" جزآن، و"الله" جزآن[6]، فزاد ذلك سبعة. وعلى أن أصول ذلك عندنا ونحن[7] نشهد بمثل ذلك قبلهم، مثل قول داود عليه السلام: (المزامير ١٨: ٣٢) "لأنه من إله غير الله، ومن ملجأ غير إلهنا"، ومثل ما يكبّرون الاسم أيضا قوله: (أخبار الأيام الأول ١٦: ٢٥) "عظيم الرب وممجد للغاية" و(المزامير ١٤٢: ٣) "عظيم سيدنا" وغير ذلك. ليس غرضنا أن نذكر إلا ما يوافق السبعة واثنى عشر عندنا وعندهم

(١) المقصود به نبي الله محمد (صلى الله عليه وسلم).
(٢) في النص (يعرفوها).
(٣) في النص (يضيفو).
(٤) في النص (يعتقدو)
(٥) في النص (وأن هم يدخلو).
(٦) في النص (جزوين).
(٧) في النص (نتن).

لولا ذلك لما ذكرناه على أنه مذكور عندهم أيضا لولا فضائل وأصول كقوله لهم في آخر سورة عندهم في سقر أن عليها تسعة عشر[1]. وبعضهم يقول ذلك هو رمز إلى الأمة، ويقول السبعة بإزاء السبعة النطقاء، والاثنا عشر بإزاء الاثنتى عشرة حجة، ويقول إن يوم السبت الذي هو[2] السابع، وقد ذكر كثير من العلماء فضيلة السبعة والاثنى عشر، وذكروا في عدد الفقرات[3] التي في الظهر، وقد أمعنا نحن أيضا في ذكرها، وسنذكر منها ما أمكن من المتبقي في موضعه من الفصل الخامس إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق.

وأما الثمانية فإن ثم ما يوازيها ***ثمانية أيام ختان، وثمانية أيام العيد***، وتفضيل الثمانية الذي ***جعل أمامه رجلاً، أمامه زمانًا، أمامه***، وكذلك ***ثمانية أمراء*** الذين[4] هم مضافون إلى ***سبعة رعاة*** فيكون خمسة عشر، والخمسة عشر هو ***نصف لفظ الجلالة*** وبه خلق الله العالم كقوله (إشعيا ٢٦: ٤) "لأن ياه الرب صخر الدهور" ***بخلقهم تدعو الرب، لم يخلقهم إلا بكلمة كن خلقهم***، (المزامير ٣٣: ٦) "بكلمة الرب صُنعت السموات". وللثمانية أيضا فضيلة وهي أن الأمة كانت تلحن به لحونًا[5] في بيت المقدس وهي ***عن الثمانية، وثمانية آباء طاهرون*** بإزاء الثماني القوى، وكذلك أن ***الأنبياء ثمانية***. وأحسن الكل أنك إذا اعتبرت المتبقي بعد الطوفان تجد ذلك ثمانية فهم نوح وزوجته وثلاثة بنوه[6] وثلاث نسوة بنيه.

---

(١) وهو يقصد بذلك قوله تعالى في سورة المدثر الآيات (٢٧-٢٨-٢٩-٣٠) ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾
(٢) في النص (التى).
(٣) في النص (الفقارات).
(٤) في النص (الذي).
(٥) في النص (لحون).
(٦) في النص (بنيه).

ومن التسعة أن جسم الإنسان بُني به من تسعة جواهر، وهي: الشعر والظفر والجلد واللحم والشحم والدم والمخ والعظم والعصب. وكذلك الأفلاك منها السبعة المعروفة وفلك البروج وفلك الظلام، وكذلك ***شهور الحمل تسعة***. وفي التسعة الأعداد عجائب أخر ذكرتها العلماء، فمن ذلك أن الحروف القديمة الهندية التي[1] يستخرج بها علم الحساب ٣٤ ٧٥ دقيقة وجليلة، كثيرة وقليلة إلى ما لا نهاية له، تسعة حروف وهي هذه ١٢٣٤٥٦٧٨٩. فهذه صورها مثل ذلك وتكون تصوّر هذه الصور وهي ١٢٣٤٥ فذلك أربعة وخمسون ألفًا وثلاثمائة وواحد وعشرون[2]، وكذلك يكون الكل بالغًا ما بلغ من الأعشار بعد الآحاد والمئات[3] بعد الأعشار والألوف بعد المئات وأعشار الألوف بعد الألوف، وكذلك إلى ما لا نهاية له، كلما زاد العدد صورة زاد العدد رتبة. واستخرج منها وجوه أخرى، وذلك أنها إذا أجملتها جاء منها خمس وأربعون. كل ثلاثة حروف خمسة عشر وهو ***نصف لفظ الجلالة يه***، بيان ذلك دروج ٣ +٤ + ٨ = ١٥ / ٩ + ٥ + ١ = ١٥ / ٢ + ٧ + ٦ = ١٥، فذلك كل ثلاثة منها خمسة عشر، وقد سُمّي الخالق بذلك لقول الكتاب (الخروج ٢:١٥) "إن قوتي ونشيدي ياه"، وقال (إشعيا ١٢: ٢) "إن قوتي ونشيدي ياه، الرب"، وقال ***لأن في ياه الرب صخرة العالمين***. وقال أهل التلمود ب ***هي خلق الدنيا والآخرة وقيل هذه مواليد السموات والأرض تدعو أن الرب خلقهم، ولم يخلقهم إلا ب هي خلقهم***. وقال بعض العلماء من ذا يصر بتسعة حروف، نال المنى وساد أهل زمانه.

ومن العشرة ***الوصايا العشر، والكلمات العشر، وعشر معجزات صُنعت لآبائنا في مصر، وعشر عند البحر، وعشر ضربات أنزلها الخالق سبحانه على***

---

(١) في النص (الذي).

(٢) في النص (أربعة وخمسين ألف وثلاث مائة وواحد وعشرين)

(٣) في النص (المبين).

المصريين في مصر، والاجتماع في عشرة، والقداس في عشرة، لا تقرأوا في التوراة أقل من عشر فقرات، وعشر ممالك، وعشر ذكريات، وعشرة أبواق، وتسعة أناشيد، والعاشرة عادها في المستقبل حيث قيل: (إشعيا ٢٦: ١) "في هذا اليوم سننشد هذه الأنشودة". ***وأحصيت إسرائيل تسعة عوالم، والعاشر في المستقبل***. حيث قيل: (إرميا ٣٣: ١٣) "تمر أيضا الغنم تحت يدي المحصي يقول الرب"، ***وعشرة ملوك حكموا من أقصى العالم إلى أقصاه***. وكذلك ***عشرة ملابس*** يلبسها ***الإله***، الواحد (المزامير ١٠٤: ١) "يا رب إلهي قد عظمت جدا، مجدا وجلالا لبست"، والثاني (المزامير ٩٣: ١) "الرب قد ملك لبس الجلال"، والثالث (المزامير ٩٣: ٢) "لبس القدرة وائتزر بها"، والرابع (دانيال ٧: ٩) "كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم لأيام، لباسه أبيض كالثلج"، والخامس (إشعيا ٥٩: ١٧) "ولبس البر الدرع"، والسادس والسابع (إشعيا ٥٩: ١٧) "ولبس ثياب الانتقام"، والثامن والتاسع (إشعيا ٦٣: ٢) "ما بال لباسك محمر"، والعاشر (إشعيا ٦٣: ١) "من ذا الآتي من أدوم... هذا البهي بملابسه". ***وكذلك سُبيت إسرائيل عشر مرات، أربع مرات في عهد سنحريب، وأربع في عهد نبوخذ نصر، ومرتين في عهد تيتوس واسفسيتوس***. وعدّوا ***في المستقبل*** بعشرة أسماء التي[1] هي ***عروس عروس***، وذلك (نشيد الأناشيد ٤: ٨) "هلمي معي من لبنان يا عروس"، (إرميا ٣٣: ١١) "صوت الطرب وصوت الفرح، صوت العريس وصوت العروس"، (إشعيا ٦٢: ٥) "ومن فرح العريس بعروسه"، (إشعيا ٦١: ١٠) "مثل عريس يتزين بعمامة، ومثل عروس تتزين بحليّها"، (إشعيا ٤٩: ١٨) "وتتنطقين بهم كعروس"، (نشيد الأناشيد ٤: ٩) "قد سبيت قلبي يـــا أختي العـــروس"، (نشيد الأناشيد ٤: ١٠ "ما أحسن حبك يا أختي العروس"، (نشيد لأناشيد ٤: ١١) "شهـــدا تقطـــر شفتاك

---

(١) في النص (الذي).

يا عروس"، (نشيد الأناشيد ٤: ١٢) "جنة مغلقة أختي العروس"، (نشيد الأناشيد ٥: ١) "قد دخلت جنتي يا أختي العروس".

فقد صح أن الإنسان أفوق الموجودات تحت فلك القمر، وأنه عالم صغير، وأن فيه بإزاء ما في العالم الكبير، فمن فخذيه إلى أسفل مناسب لعنصر التراب، والأمخاخ التي[1] في عظامه مناسبة للمعادن التي[2] في باطن الأرض، وبطنه مناسب لعنصر الماء بما فيه من السمك المختلفة، والأمواج المضطربة، كذلك القرقرة التي في أمعائه والديدان المختلفة، وصدره مناسب لعنصر الهواء برفرفة رئتيه[3]، دائما تستنشق الهواء وترفرف بأجنحتها على القلب لتعدل حرارته ويعيش الإنسان، ورأسه مناسب لعنصر النار العالية، وكذلك فيه شَعْر لا يحصى عدده، كما في العالم نبات لا يحصى، وكذلك وجهه عامر بإزاء العمارة التي[4] في الدنيا، وقفاه خراب بإزاء القفار التي[5] في الأرض، وكذلك الارتعاش والعرق الذي يظهر منه بإزاء الرعود والأمطار التي[6] في العالم. وخفقان الرئة بإزاء خفقان الطيور التي في العالم. ومنكباه ومرافقه وركبتاه وإليتاه[7]، والمواضع الناتئة التي فيه بإزاء الجبال والتلال التي في العالم، وكذلك فيه أمياء مختلفة الطعوم، مالحة في عينيه، وحلوة في فمه، ومنتنة في سبيل البول، ومُرّة في الأذنين وذاك بإزاء أمياء العالم. وعلل كون ذلك كذلك مختلفة إرادة الصانع الحكيم تقدست أسماؤه[8]؛ لأنها حكمة

---

(١) في النص (الذي).
(٢) في النص (الذي).
(٣) في النص (رييته).
(٤) في النص (الذي).
(٥) في النص (الذي).
(٦) في النص (ومنكبيه ومرافقه وركبتبه وإليتيه).
(٧) في النص (الناتية).
(٨) في النص (أسمايه).

متقنة. وقيل إن ملوحة ماء البحر لعيش الحيوان حواليه لأنه لو كان حلوا لمرضت الحيوان من الوباء، لكن ملوحته[١] تطرد الوباء. وكذلك ملوحة العينين لأنهما شحمتان[٢]. فلولا الملوحة فيهما لعميتا[٣]؛ لأن اللحم لا يستقيم إلا بالملح، وعلى أن لجميع ذلك أسرارًا دقيقة[٤] المعاني ألطف من هذا الكلام وأعجب وأحسن لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلوم، والذي غاب[٥] منّا من تشريح جسم الإنسان أكثر مما ظهر لنا، فضلا عن معرفة باقي العلوم. فليعذرنا قارئ هذا الكتاب على أنّا ما استنبطنا فيه كلمة من عندنا، ولا معنى لم نسمعه من غيرنا، بل تعلمناه وكتبنا ذلك على سبيل التذكير لأولادنا، ولمن وقع في يده من إخواننا، والله نسأله المغفرة من كل ذلة وخطيئة، والإلهام نحو الصواب، والمعونة والتوفيق لمعرفة حكمته وكرمه وجوده، وتسلطه[٦] على جميع الأشياء. كما تقدم الكلام فيما استدللنا به بقوله (المزامير ٨: ٧) "تسلطه على أعمال يديك، جعلت كل شيء تحت قدميه". وجعل نفسه روحانية شريفة لطيفة جوهرية بسيطة حية عالمة دراكة، فأراد سبحانه أن يطلعها على ذخائر علمه ويشهدها على نافذ قدرته وعالي حكمته، لتعبده حق عبادته، وتلتزم له جميع ما يريد أن يلزمها الله له عباده، من المُلك والرق، والعبودية، والخدمة والطاعة والرضا والتسليم والانقياد إلى رضاه برضا قلب وحسن ظن بما يفعله بها ظاهرها وباطنها، ولو كان ينافر طبعها، فيجب تقبله برضا منها وحسن ظن ببارئها[٧] ليكون أثوب لها وخيرًا لها[٨]. وقد نطقت بالأدلة

---

(١) في النص (مليحته).
(٢) في النص (شحمتين).
(٣) في النص (لعميا).
(٤) في النص (دققة).
(٥) في النص (غبا).
(٦) في النص (وسلطه).
(٧) في النص (بباريها).
(٨) في النص (خير ليا).

على جميع ذلك الكتب المقدسة. فأما خلقه الإنسان لإرادته وإظهار كرمه سبحانه كقوله (إشعيا ٤٣: ٧) "كل من دعا باسمي لمجدي خلقته وجبلته وصنعته"، وأما ليشهدهم على عالي حكمته، ونافذ قدرته كقوله (إشعيا ٤٣: ١٠) "أنتم شهودي يقول الرب، وعبدي الذي اخترته لكي تعرفوا وتؤمنوا وتفهموا أني أنا هو، قبلي لم يصور إله، وبعدي لا يكون"، وإما ليلتزموا له الحقوق الواجبة كما يلتزم العبيد[١] لمولاهم كقوله (المزامير ١٢٣: ٢) "كما أن عيون العبيد نحو أيدي سادتهم، كما أن عيني الجارية نحو يد سيدتها، هكذا عيوننا نحو الرب"، وإما الاستسلام لأمره وقضائه وحسن الظن به ولو فعل بنا ما ينافر طبعنا كما قال أيوب عليه السلام (أيوب ١٣: ١٥)" هو ذا يقتلني لا أنتظر شيئا"، وكما فعل السادة الصالحون[٢] دانيال، حنانيا، ميشال، وعزاريا الذين[٣] طرحوا نفوسهم في النار كما علمت فذلك محبة لله سبحانه في قضائه، لا رغبة منهم ليتخلصوا، بل وهبوا نفوسهم له سبحانه محبة فيه واستسلاما لقضائه بنفوس طيبة ونية خالصة، فلما علم سبحانه منهم حسن اليقين وأن ما فعلهم ذلك لوجوه ولا لرغبة ولا لرهبة فنجّاهم بما شاء، وبقي لهم الأجر الوافر ثواب الكامل لذات البقاء، وكذلك إبراهيم الخليل عليه السلام لما رماه الظالم إلى النار أعني نمرود الذي رمى به إلى النار بالمنجنيق[٤]، فقال العالي الأعلى تقدست أسماؤه[٥] لجبريل[٦] اسأل إبراهيم في الهواء هل له حاجة تقضيها له، فسأله في الهواء: هل لك حاجة أقضيها لك؟ قال له: الحاجة إلى غيرك لا إليك،

---

(١) في النص (يلتزمو العبيد).
(٢) في النص (فعلو السادة الصالحين).
(٣) في النص (الذي).
(٤) في النص (المنجليق).
(٥) في النص (أسمايه).
(٦) في النص (لجبريال).

فتجلى سبحانه وخلّصه، وقال: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم[١]، فلو قال بردا وأمسك لأهلكه البرد. فسبحانه منجي أوليائه وأتقيائه المستكينين[٢] إليه. كما قال (المزامير ٥٥: ٢٢) "لا يدع الصديق يتزعزع إلى الأبد". وقال (المزامير ٨٩: ٢٢) "لا يرغمه عدو، وابن الأثم لا يذلّه". أحمده وأشكره وأفوض أمري إليه كقول وليه (إرميا ١٧: ٧) "مبارك الرجل الذي يتكل على الرب، وكان الرب متكله".

وكذلك يا أخي جعل الله دينه الباهر وزاهر الزاهر على مثل عالمه، فمن ذلك أن الدين واحد والشرع واحد لقوله تعالى (العدد ١٥: ١٦) "شريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم"، وكذلك صار مكتوبا ومنقولا[٣] بإزاء الاثنين لقول ***الحكماء*** رحمهم الله ***أعطيت لإسرائيل شريعتان، واحدة مكتوبة وأخرى شفهية***. وشرع ذلك على يدي اثنين موسى وآهارون. وأنزلت ***الوصايا العشر***[٤] ***في لوحي العهد***. وكذلك بإزاء الثلاثة ***توراة، أنبياء، مكتوبات*** وقال ***الحكماء*** رحمهم الله ***وما قال التلمود ألم أكتب لك ثلاثة: توراة، أنبياء، مكتوبات، أعطيت لثلاثة: موسى، وهارون، ومريم، وهناك من يقول أعطيت كلها لموسى؛ لأن اسمه مكون من ثلاثة حروف مقابل لفظ الجلالة*** وقيل أيضا إن جملة الشرع معقول ومكتوب ومنقول. وكذلك الأمة ثلاث مراتب ***كهنة، ولاويون، وإسرائيليون***. وكذلك ***مقدسات ثلاث، وبركة الكهنة ثلاثة فواسيق***. وكذلك التوراة ***أعطيت بناسخ وسفر ورواية***. وكذلك ***يقوم العالم على ثلاث كلمات، على القضاء، وعلى الحق وعلى***

---

(١) هذا الاستشهاد ورد في قوله تعالى في سورة الأنبياء الآية (٦٩)﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ومن الواضح عدم اكتراث المؤلف بكتابة الآيات القرآنية بصورة صحيحة.

(٢) في النص (أولياه، وأتقياه المستكنين).

(٣) في النص (مكتوب ومنقول).

(٤) في النص (الدباروت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها: الوصايا العشر.

السلام. وكذلك العالم يثبت بثلاثة: العلم والعمل، والقرا الخير وإله[1] وهو قوله: (مبحث الآباء ٨١: ٢/٤٠) "ينتصب العالم على ثلاث كلمات على التوراة وعلى العمل وعلى فعل الخير"، ومن بقية الأوامر قالوا: (مبحث السبت ٣٤) "يجب أن يقول الإنسان داخل بيته مساء السبت عند المساء عشر أمسيات أشعلوا الشموع". وقد ذكرنا في الباب الثالث من الفصل هذا ما أمكن. وكذلك في الباب الرابع افترض الله على بني إسرائيل أن يمسكوا بأيديهم في عيد المظال أربعة أنواع من الشجر قد تقدم ذكره في باب الرابع من هذا الفاصل مع ما انضاف إليها من سائر الشرع، وفي العالم والإنسان، وكذلك الخمسة، الشريعة ***أسفار التوراة الخمس*** مع ما انضاف إليها ويجانسها من المخمسات في الشرع والعالم والإنسان. وكذلك الستة، العلم اليقين[2] أصله ***المشنا ستة مباحث، والتوسفتا ستة مباحث***. مع ما ينضاف إلى ذلك من المسدّسات في الشرع والعالم والإنسان. وكذلك السبعة، فإنها أكثر شرح في الدين، وكذلك لفضيلة يوم السبت الذي فضله الله سبحانه على سائر الأيام، وافترض حفظه وإكرامه وتبليغه على بني إسرائيل كما شرحنا في هذا الفصل بما نستغني عن إعادته هنا لئلا[3] يطول الشرح. وكذلك الثمانية ***الختان لثمانية، والعيد لثمانية*** مع ما ينضاف إلى ذلك ويجانسه من أمور الشرع والعالم والإنسان. وكذلك التسعة قد ذكرنا منها ما أمكن. وكذلك العشرة أصل الشرع ***الوصايا العشر***، وهي تجمع الوصايا المفروضة في جملة الدين، ويدخل ذلك في طيّها حتى أن عدد حروفها ستمائة وثلاثة عشر حرفا، مع ما ينضاف من المعشرات في الشرع والعالم والإنسان.

---

(١) في النص(وإيلاه). ورد في المعجم الوجيز أن (قرا) فلانا-قروا: تتبعه ونظر أعماله. قرى الضيف: أضافه وأكرمه. كما ورد أن كلمة إلاه من (ألا)، يألو. يقال: أتاني في حاجة فألوت فيها أي اجتهدت. من هنا فمعنى الجملة اتباع الخير والاجتهاد فيه. انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ١٩٩١، ص٥٠٠. وانظر أيضا: *www.baheth.info*

(٢) في النص (العلم التقين).

(٣) في النص (للا).

فقـــد صـــــح يا أخي أن الله خلق الأشياء كلها على نظم واحدة متقنة محكمة لا يدخلها خلل ولا يشوبها كدر. كما نطقت الكتب المقدسة كقوله: (المزامير ١٠٤: ٢٤) "ما أعظم صنائعك يا الله كلها صنعتها بحكمة"، وقال: (الأمثال ٣: ١٩) "الرب بحكمة خلق الأرض، وخلق السموات بفطنة".

فسبحانه خالق الكل منشؤه[١] ومدبره، أحمده وأشكره وأتوكل عليه وأفوض أمري إليه، كقول داود عليه السلام (المزامير ٢٣: ١ – ٢) "الرب راعي، فلا يعوزني شيء، في مراع خضر يربضني، إلى مياه الراحة يوردني".

كمل الفصل الثاني فصل الإنسان عالم صغير، يتلوه

---

(١) في النص (منشيه).

الفصل الثالث

في التزام الطاعة لله سبحانه

قال إنه لما صح بمذاكرتنا أن الإنسان أفضل الموجودات تحت فلك القمر، وأنه خليفة الله سبحانه في عالمه، وأنه سلّطه على جميع الموجودات من المعادن والنبات والحيوان، وأن الله سبحانه صنع معه نعما[1] جليلة منها إيجاده إياه بعد عدمه. ومن أخصها وأوفاها نعمتان طائلتان[2]. الواحدة ظاهرة، والأخرى باطنة. فالظاهرة تركيب جسمه كاملا[3] بجميع آلاته الظاهرة من لحم ودم وعروق وعصب وعظام وعضلات وظفر ومخ وغير ذلك، كامل الأدوات من أيدٍ وأرجل وآلات الحواس الظاهرة وغير ذلك. والنعمة الباطنة النفس الشريفة التي[4] أنعم بها عليه وهي جوهرة بسيطة، سماوية روحانية، عالمة بالقوة، دراكة، حساسة[5]. كما

---

(١) في النص (نعم).
(٢) في النص(نعمتين طائلتين).
(٣) في النص (كامل).
(٤) في النص (الذي).
(٥) يتفق المؤلف مع إخوان الصفا في تعريفهم للنفس الإنسانية، غير أن تعريف الإخوان لها كان أشمل وأعم فهم يرون (أن النفس الإنسانية هي جوهرة سماوية روحانية، حية نورانية حقيقية متحركة غير فاسدة علاّمة درّاكة لصور الأشياء مثلها مثل المرآة، إذا كانت مستوية الشكل مجلوّة الوجه، تتراءى فيها الأشياء الجسمانية على حقيقتها، وإذا كانت معوجة الـــشكل أرت صورة الأشياء على حقيقتها، وإذا كانت المرآة صدئة الوجه لا يتراءى فيها شيء البتـــة) – انظر: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء: تقديم بطرس البستاني، الرسالة الثانية من العلوم الناموسية والشرعية فصل (في ماهية الطريق إلى الله عز وجل) ص ٦.

وصف ذلك بعض الصالحين في مناجاته لربه فقال بعد وصفه لجميع الخلائق التي خلقها الله تعالى **وبعد كل هذا خلقت آدم لشرفك، وجبلت الإنسان يدعو بأسمائك ونفخت فيه روحا[١] غالية وزكية مفعمة بالحكمة والبيان، تتلقى الأخلاق والحكمة، وتكتسب المعرفة والإبداع، تلهج بأنك أنت الذي خلقتها، وتشهد أنك أنت من جبلها. بها يتثقف كل لبيب ويعرفك. ومنها يدرك الإنسان الفطنة ويجدك؛ لأنك جعلتها علامة ومعجزة لذوي الألباب في شريعتهم، وبسرعة منحت للأبد للعارفين في نفوسهم، إذا جحدك جاحد أو أنكرك منكر، فإن روحه ستصرخ كالحجر من الجدار، وستجيب روحه كدعامة من شجرة، لذلك يدركك كل من يطلبك من قلبه**[٢] وباقي القول. من ذلك على الإنسان بعد الشكر للمنعم سبحانه طاعتان إحداهما[٣] ظاهرة والأخرى باطنة. فالظاهرة: العمل بالشريعة الموحى بها على أيدي الأنبياء عليهم السلام مثل الطهارة والصوم والزكاة وحج وجهاد وما شاكل ذلك من عمل **قميص**[٤]، **وشريطي الجلد**[٥]، **ومظلة، وسعفة، وصندوق صغير**[٦] وسائر **التعاليم**[٧] مما هو مشروح في كتب الشرائع التي تضم[٨] جملة

---

(١) في النص (روح).
(٢) يشير الناشر يوسف قافح إلى أن هذه المقطوعة تنسب إلى الشاعر الأندلسي سليمان بن جبيرول.
(٣) في النص (طاعتين أحدهما).
(٤) في النص (طليت) وهو قميص يلبسه المتدينون من اليهود تحت ملابسهم.
(٥) في النص (تفلين) وهما شريطان من الجلد يشد أحدهما حول الرأس والثاني حول اليد اليسرى في صلاة الفجر، ويحمل كل منهما علبة صغيرة كتب عليها أربعة إصحاحات من التوراة اثنان من الخروج واثنان من التثنية، وهي أساس الصلوات اليهودية في توحيد الرب، وتؤكد وجوب وضع التوراة نصب عيني كل يهودي.
(٦) في النص (مزوزا) وهو صندوق صغير بداخله قطعة من جلد منقوش عليها الفقرات الأولى من الشماع ويوضع عند عضادة باب البيت.
(٧) في النص (المتسفوت) وهي من الألفاظ العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.
(٨) في النص (الذي يضم).

ذلك ***ستمائة وثلاث عشرة***[1] شريعة كما شرحها ربي سعديا جاءون وفرّعها في ***الوصايا العشر ستمائة وثلاثة عشر***[2] حرفا كعددها. منها ***مائتان وثمانية وأربعون***[3] بعدد أعضاء بالإنسان وهي أمر. ومنها ***ثلاثمائة وخمسة وستون***[4]. وهي نهي بعدد عروق الإنسان. والطاعة الباطنة: عبادة باطنة بالفكرة الخالصة والقلب السليم والخلاص الذي لا يشوبه كدر ولا يداخله خلل. وعلى أن سبحانه قد افترض ذلك وذكره في عدة مواضع مثل قوله (التثنية ٦: ٥) "فتحب الرب إلهك من كل قلبك" (التثنية ٤: ٣٩) "وردد في قلبك".

وقد ألّف ربى بحيا بن يوسف بن فاقودا –رحمه الله تعالى– كتاب الهداية وأمن فيه ذكر فرائض القلوب بدلائلها من المكتوب والمنقول والمعقول بما قدر عليه. وجعل العلة القصوى في التوحيد إلى علة العلل، وقال إنه الخالق تبارك وتعالى على ما ذكر في كتابه التمس منه، وأقصى كلامه في العبادة الباطنة إلى خلاص القلب والضمير والنية لوجه الله سبحانه وتعالى. فبحثنا في توحيد الفلاسفة فوجدنا لهم توحيدا[5] أوكد من ذلك أيضا. وقيل في العبادة الباطنة توحيد أوكد من ذلك، ونرى أن نوضح من ذلك ما أمكن لا لكسر كلامه رحمه الله، لكن لنؤكد الأمر في التوحيد وفي العبادة إذ لها خلقنا ومن أجلها أنشئنا وليستنفع[6] بذلك أولادنا إذ ذلك واجب علينا حتما[7].

---

(١) في النص ٦١٣.
(٢) في النص ٦١٣.
(٣) في النص ٢٤٨.
(٤) في النص ٣٦٥.
(٥) في النص (توحيد).
(٦) في النص (ليستنفعو).
(٧) في النص (حتم).

اعلم يا أخي -وفقك الله وإيانا إلى السداد، وهدانا وإياك إلى الرشد- أن هذا الباب سر من أسرار البارئ تبارك وتعالى، وعلم جليل المقدار ولا يمسه إلا المطّهرون، ولا يجب كشفه إلى كل واحد إلا إلى من يوثق به أنه يصونه ويحفظه غاية الصيانة. وقد قال بعض علماء الشرع في صيانة العلم وحفظه أبيات شعر:

خف الرحمن يا من نال علمي ولا تبده والله الشهيدُ[1]

ولا تجحد به الرحمن فيما أتاك فأول الكفر الجحيدُ

فمن نال الذي فسرت أضحى والعالمين له عبيدُ

اعلم أن العلماء الراسخين[2] في العلم قد بحثوا غاية البحث عن العلة والمعلول. فانتهى كلامهم إلى معانٍ[3] صحيحة ما اختلفوا فيها. وذلك أنهم عللوا الموجودات من معادن ونبات وحيوان إلى الأربعة الأمهات التي هي التراب والماء والهواء والنار، وبامتزاجاتها وباستحالة بعض أطرافها إلى بعض. مثال ذلك أن النار أعلاها ويتلوها عنصر الهواء المتوسط بين الماء والنار، فطبيعته حارة رطبة، فكانت الحرارة التي فيه من مجاورة طرفه الواحد للنار، والرطوبة التي[4] فيه من مجاورة طرفه الآخر للماء. وكذلك الماء طبيعته بارد رطب. فالرطوبة التي فيه من مجاورة طرفه الواحد للهواء. والبرودة التي[5] فيه من مجاورة طرفه الآخر للتراب، فكانت النار أعلاها وهي حارة يابسة من مجاورتها لحركة الفلك

(١) استبدل المؤلف بالضمة في نهاية الأبيات واوًا ظاهرة، فدونها (الشهيدو /الجحيدو / عبيدو).
(٢) في النص (الراسخون).
(٣) في النص (معاني).
(٤) في النص (الذي).
(٥) في النص (والبودرة الذي).

وقربها منه. والأرض باردة يابسة لبعدها من الجميع ونهايتها. فكانت الأربع أمهات المذكورة معلولة بالفلك، والبراهين على صحة ذلك يطول شرحها. وقد ذكرها العلماء في كتبهم في عدة مواضع، وكذلك الفلك معلول بالهيولي والصورة انبثت من النفس الكلية، وذلك من العقول المجرّدة التي ذكرنا في أول الكتاب، وأن تلك العقول نقشت وصورت في الأفلاك ما هو فيها من النور وسعادة وحركة وبقاء. وكذلك الأفلاك نقشت مما اكتسبت من العقول المجردة في عالم الطبيعة، فصارت النفس الكلية معلولة بالعقل الذي هو علة العلل الذي أبدعه البارئ سبحانه بمشيئته وإرادته وأمره. لا لشيء ولا في شيء على ما ذكرنا في أول الكتاب. فتنزّه سبحانه أن يوصف بعلة أو معلول؛ لأن العلة لا تفارق معلولها والبارئ سبحانه منزّه عن صفة العقل والعلة. إذ هو مُبدع ذلك ومعطيه الحياة والكمال والأزل والبقاء والدوام والسعادة وغير ذلك دُفْعة واحدة بلا زمان ولا مكان. وما تقدم هناك اللهم لمخلوق مع إبداع العقل فيعلم كيف كُنه ذلك، بل الكل مصنوعون[1] من بعد. وكان الكل معقولا[2] في العقل بالقوة حتى يظهر إلى الفعل شيئا بعد شيء. بيان ذلك أن العقل لما أبدعه البارئ تبارك وتعالى في غاية الكمال والتمام والحياة الدائمة والسعادة الأبدية نظر إلى ذاته بذاته كما ذكرنا في أول الكتاب، فانبعثت منه النفس الكلية حياة قائمة بالفعل في غاية التمام والكمال. فطلبت التشبه بعلّتها الذي هو العقل. فانبعث[3] منها فيض آخر إلى أن انتهى إلى الفلك بأسره. فكانت النفس ذات طرفين: طرف تقبل به إلى العقل تمد منه الخيرات والبركات. وطرف تمد به إلى ما كان دونها في الرتبة من النور والبقاء والحركة والدوام والسعادة مثل القمر الذي

(١) في النص (مصنوعين).
(٢) في النص (معقول).
(٣) في النص (فانبعثت).

تمده الشمس من ضوئها كل ليلة شيئا[1] من أول نشأته هلالا[2] إلى أن يكمل في ليلة كماله، ويحاكيها في الضوء ويرجع يتناقص مثل ما كان يزداد[3] إلى ما يستوفي حسابه بتقدير العزيز سبحانه، فقد صح أن البارئ سبحانه أبدع علّة العلل بما شاء وكيف شاء. وهو منزّه عن كل وصف ومديح وعلّة ومعلول. فهذا يا أخي الذي بلغ فهمنا من التوحيد بإيجاز. وما كلف الله نفسا إلا وسعها. وفوق كل ذي علم عليم.

وأما العبادة الباطنة، إن صح أنها في القلب والفكر والخاطر والتّخيُّل[4]، فإن كل ما تفكرته[5] في ذلك الخالق تعالى فاعلم وتيقنه أنه جلّ جلاله ضد تلك الفكرة والتخيّل؛ لأنه الذي خلقهما وبزرهما في قوة الإنسان فكيف يشبههم. وإن نطقت وسمته[6] سبحانه بسائر الأسماء التي[7] سمته الأنبياء في كتبهم الشرعية. فاعلم أن الضرورة توجب إلى ذلك. ولكن[8] كل اسم لا يقع إلا على مسمّى، وكل مسمّى مفعول على رأي أهل المنطق، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فصح يا أخي إن نطقت جسمت، وإن صمتّ[9] أجحدت وعطلت، وهذا لا يسعك. وعلى أن قد استدل من قال بهذه المقالة أن الإقرار بالعجز عن التوحيد هو التوحيد، وأن الصمود عن العجز أوفى من الوقوف عند الحيرة ولا ارتكاب الأحوال فاستدل بقول الولي عليه

---

(١) في النص (شيء).
(٢) في النص (نشتها هلال).
(٣) في النص (يزتاد).
(٤) في النص (تخبيل).
(٥) في النص (تفكرتاه).
(٦) في النص (سميتاه).
(٧) في النص (الذي).
(٨) في النص (لاكن).
(٩) في النص (صممتت).

السلام (المزامير ٦٥:٢) "لك ينبغي التسبيح"، وفسّر **דומיה** صموت من (اللاويين ١٠:٣) "وصمت هارون"، وهو لعمرك وجه مليح. وقد خاض[١] العلماء خوضا عظيما. فمنهم من قال: أليست بأعرف من الأنبياء الذين سمّوا الله بالأسماء التي قد سمّوه بها وناجوه بها. ولم يَعلموا أن الأنبياء لهم إشارة لا يعرفها إلا هم أو من يرثون[٢] علمهم، وهم لعمري أعرف وأعلم كما قالوا وسطروا. فلم عاد نصل إلى درجتهم وإلى منزلتهم. فيجوز لنا أن نسمي الخالق تبارك وتعالى بما سموه. ومن العلماء من قال: إن لهذه الأسماء تأولات ومعاني يصححون[٣] ما قالوا ولا أتوا إليه ببرهان صحيح إلا تمويهًا[٤] ومغالطة. ومنهم من قال: إن البارئ سبحانه خاطب الناس من حيث بلغ علمهم وتسمى لهم بأسماء مجازية على قدر أفعاله تبارك وتعالى. فعند الحاجة إلى رحمته تسمى ***رحيمًا***، وعند الحاجة إلى حنته ***حنّانًا***، وإلى رزقه رازقًا وإلى عقوبته معاقبًا. قال[٥] ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث البركات ٣١/ ١) "تحدثت التوراة كلغة بني الإنسان" وهذا أيضا عذر واضح لمن لا يقدر يبحث ويفتش. ومنهم من قال: إن هذه الشريعة جاءت بها الرسل عن الله عز وجل وهو الذي سمى ذاته تقدست أسماؤه[٦] بتلك الأسماء ووصفها بتلك الصفات المحكمة في محكم كتابه. فلا كلام لنا إلا الرضا والتسليم. فإن ناجيناه سبحانه ووصفناه بالأسماء والصفات التي وصف بها ذاته على أيدي أنبيائه فلا جناح علينا وهذا عذر يقبل منهم إذ ليس في وسعها سواه.

---

(١) في النص (خاضت).
(٢) في النص (يرثو).
(٣) في النص (ومعانى ويصحو).
(٤) في النص (تمويه).
(٥) في النص (قالو).
(٦) في النص (أسمايه).

فأمّا علماء الفلاسفة المرتاضون بالعلوم الإلهية فقالوا بكلام مخفت وجواب مسكت، إن النفس مرتبطة بالجسد كالولد بالمشيمة أو كالفرخ بالبيضة فليس تقدر تعبد بارءها سبحانه حق عبادته. ولا تنزهه حق نزاهته. وعادها على هذه الحالة مرتبطة على عالم الطبيعة عالم الكون والفساد، فهي لا تقدر أن تنطق إلا بلسان، ولا تبصر إلا بعين ولا تسمع إلا بأذن، لأنها كمحبوس متطلع من الكوّة[1]. فصارت العبادة الباطنة والتوحيد الحقيقي والتنزيه والتجلد موجودين فيها بالقوة، فإذا فارقت الجسد وهي[2] كاملة مرضية، صارت ملكا بالفعل، وصارت تنظر بكلها وتسمع بكلها وتنطق بكلها من غير آلة تستعملها. وقد وصف الكتاب في الملائكة مثل ذلك إذ قال (حزقيال ١: ١٨) "وأطرها ملآنة عيونا حواليها الأربع"، وحينئذ تصح منها العبادة الحقيقية والتسبيح والتقديس والتهليل مع المقرّبين أبد الآبدين ودهر الدهريين. وذلك استحقته النفس في دار الدنيا بالعلم والعمل والتزام ما جاءت به الأنبياء ظاهرة وباطنة بغير شك ولا رياء ولا حب سمعة ولا ثناء، بل محبة في الله سبحانه لذاته، إذ أهل من يحب ومن يخشى ويتقي، وعلى أن العبادة للرغبة في النعيم المقيم والرهبة من العذاب الأليم قد تسمّى عبادة أيضا، ولا يخيب للعابدين بها رجاء، لكن هذا الذي حكينا أفضل وأوفى. وقد قالت العلماء رحمهم الله ذلك (مبحث الآباء ٨١ / ٤٠: ٣) "لا تكونوا كالعبيد الذين يخدمون السيد لينالوا أجرا، بل كونوا كالعبيد الذين يخدمون السيد كي لا ينالوا أجرا، وليكن سيد السموات معكم"، وقال بعض العلماء في ذلك أبيات:

إلهي[3] ما مناي منك دار من الياقوت يسكنها الجوار

---

(١) في النص (الكوى)

(٢) في النص (وقد هي).

(٣) في النص (إلاه).

ولا جنّـــات عـــدن ما رجاني ولا شجر يزينها الثمار

ولكن وجهك المأمول سؤلي فجد به ففي ذلك الافتخار

وقال آخر:

وحقك لا نظرت إلى سواكَ بعين محبة حتى أراكَ.

بلغنا وإياكم أعلى الدرجات في الدين والدنيا والآخرة والأولى، إنه سامع الدعاء بمنّه ولطفه، وأستغفر الله وأتوب إليه وأستعين به وأتوكل عليه، وأفوض أمري إليه. كما ناجاه وليه عليه السلام، وقال: (المزامير ١١٨: ٦) "الرب لي فلا أخاف. ماذا يصنع بي الإنسان"، وقال: (المزامير ٢٣: ١) "الرب راعي فلا يعوزني شيء في مراع خضر يربضني".

تم الفصل الثالث بعون الله وأمره سبحانه في التزام الطاعة لله وعبادته. يتلوه

الفصل الرابع

في التوبة إلى الله تعالى والانتباه إليه وفضيلة العلماء والتواضع لله سبحانه والزهد في الدنيا

اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك إلى السداد، وهدانا إلى الرشاد، أن الله تبارك وتعالى لما سبق في علمه أن كثيرا[١] من الناس يؤثرون معصيته على طاعته فيستحقون العذاب الأليم والعقاب الشديد بذلك، فكان من لطفه تبارك وتعالى بهم ورحمته لهم أنه جعل لهم شيئا يسترخون[٢] بها غلظهم ويسترجعون[٣] به من المعاصي، يسمى التوبة. وفتح لهم أبوابا. فكان ذلك في سابق خلقه في عالم الإبداع لا يصل إلى معرفة كنه ذلك وتحقيقه إلا الراسخون في العلم[٤]. ولو كان والكتاب يحتمل كشف ذلك لبيّنا ما عرفنا منه بفضل الله سبحانه علينا ولطفه. وعلى أن الكتب المقدسة نطقت بكون ذلك في أول الخليقة كما ذكرنا في قول الحكماء رحمهم الله في (مبحث النذور: ٣٩) "سبع كلمات خُلقت قبل أن يُخلق العالم"، وكانت التوبة

---

(١) في النص (كثير).

(٢) في النص (يسترخو).

(٣) في النص (يسترجعو).

(٤) من الآيات القرآنية التي وردت في سورة آل عمران الآية (٧) فى قوله تعــالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

وقد أكثر المؤلف من الاستشهاد بها في الصفحات رقم ٢٥-٣٧-٥٠.

إحداها[1]، والدليل على ذلك قبل أن تولد الجبال وأيضا **تبقي الإنسان إلى حد اليأس**، وقد ذكرنا ذلك في أول الكتاب. ولهذه[2] المعاني سر عظيم ولا يصل إليه إلا العلماء ورثة [3] الأنبياء أو من تعلمه منهم ووفقه الله.

ورأينا أن نلبث حتى نذكر شيئا من فضائلهم التي[4] خصهم الله سبحانه وشيئا من فضيلة العلم، إذ في ذلك منفعة عظيمة لنا ولأولادنا ولإخواننا، وفق الجميع إلى طاعته.

ونعود بعد ذلك إلى شرح ما نقدر عليه من فنون التوبة وشروطها وفنونها ولواحقها إن شاء الله تعالى.

اعلم يا أخي أن العلم أفضل ما خلق الله تعالى؛ لأن به عُرف الله سبحانه ووُحد وعُبد وأُطيع[5]. وأنه أقدم من العقل؛ لأن الله سبحانه وُصف به ولم يوصف بالعقل، لأنه يقال الله عالم وليس يقال الله عاقل. وأيضا أن كل عالم عاقل وليس كل عاقل عالم. وقد وُصف الله سبحانه بالعلم في عدة مواضع في التوراة (التكوين ٣: ٥) "بل الله عالم أنه بيوم"، وقال في *الكتابات*[6] (المزامير ٣٧: ١٨) "الرب عارف أيام الكملة"، وقال في الأنبياء (حزقيال ٣٧: ٣) "وقلت يا سيدي الرب أنت علمت"، وكثير مثل هذا[7] وأشباهه. فالعلم أشرف الأشياء بأجمعها حتى ليس عند أهل الدنيا

---

(١) في النص (إحداهم)

(٢) في النص (لهذي).

(٣) في النص (وراثة).

(٤) في النص (الذي).

(٥) في النص (أطع).

(٦) وردت في النص (الكتوفيم) وهي لفظة عبرية أدخل المؤلف عليها أداة التعريف العربية ومعناها المكتوبات أو الكتابات.

(٧) في النص (هذي).

أشرف من الذهب والجواهر. فوصف العلم أنه أشرف منها كقوله (الأمثال ٣: ١٥) "هي أثمن من اللآلئ وكل الجواهر لا تساويها"، وقال (إشعيا ١٣: ١٢) "أجعل الرجل أعز من الذهب الأبريز، والإنسان أعز من ذهب أوفير"، يعني أهل العلم. كذلك ما عند أهل الدنيا أحلى من الشهد فوصف العلم أنه أشرف وأحلى منه كقوله (المزامير ١١: ١٩) "وأحلى من العسل وقطر الشهد". وهو أطول من الأرض وأعرض من البحر لقوله (أيوب ١١: ٩) "أطول من الأرض وأعرض من البحر"، وقوله في غاية وصف العلم أنه ابتدأ الأشياء لا من شيء إنما تفرد به إلى الخالق سبحانه وتعالى كقوله (أيوب ٢٨: ١٣) "لا يعرف الإنسان قيمتها ولا توجد في الأرض الأحياء، الرب عرف سبيلها". سبحان العالم بالأشياء قبل كونها ومع كونها وبعد كونها. ومن شرف العلم يا أخي بأنه أشرف من المال، وذلك أن السلطان إذا اغتصب مالك لم يقدر أن يغتصب علمك. وكذلك اللصوص والخوارج إذا أخذوا مال الإنسان لم يقدروا أن يأخذوا علمه. وكذلك إذا غرقت سفينته وماله في البحر فعلمه باقٍ[١]. والمال إذا وهبت منه نقص، والعلم ما ينقص. والمال إذا فرقته جميعه افتقرت، والعلم إذا فرقته لم تفتقر بل تزداد. وكذلك خزائن الأموال فنت وخزائن العلم بقت. وقيل في العلم: وإن كانت الأجسام مفقودة فعلومهم موجودة. ولو ذهبنا إلى وصف بعض فضائل العلم لما وسعته الأوراق. ولكن يا أخي له قرين آخر تحتاج إليه وهو العمل به وثمرته، وإلا فلا ينفعك. ويصير غالياً[٢] ووبالاً على من لا يعمل به. كفانا الله وإياك ذلك برحمته. وقد قال: العلم أربعة أشيـاء وهـو: إسماعه وحفظه والعمل به ونشره، وقال: بعض العلماء (الشاعر) في ذلك:

---

(١) في النص(باقى).

(٢) في النص (غالى).

ألا لــن تنـــال العلمَ إلاّ بستة   سأنبيك عـــن مجموعها ببيان

ذكاءٌ وحرصٌ واصطباروبلغة   وإرشاد أستاذ وطول زمان[١].

وقيل: العلم والد والعمل مولود. وقيل: العلم شجرة والعمل ثمرة. وقيل: ولو صُور العلم لأضاء الليل، ولو صُور الجهل لأظلم الشمس. وقيل: العلماء غرباء لفكرة الجهل. وقيل: العلم أوله مر مذاقته ولكن[٢] آخره أحلى من العسلِ. وقيل:

يا طالب العلم خذه من معاهده[٣]

فاعلم أن روضة العلم قد أسقت بالنهرِ.

وقيل:

العلم يحتك بالعمل إن أجابه وإلا ارتحل[٤].

وقال الحكماء: ***من يتعلم لكي يعمل أفلح في أن يتعلم ويُعلم ويعمل***، وأما في التوراة فأوصانا الله تعالى بالعمل في أكثرها مثل (اللاويين ٢٥: ٣٩)

---

(١) هذه الأبيات تنسب للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (- ٤٠هـ)، أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وصهره، ولد بمكة ولم يفارق النبي، وَلّي الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان سنة ٣٥ هجرية – المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)
www.cultural.org.ae-

وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

أفق لا تنال العلم إلا بستةَ   سننبيك عن تأويله بمعاني ذكاء

وحـــرص واصتبار وبلغة   وتعليـــم أستـــاذ وطـــول زمان.

(٢) في النص (لاكن).

(٣) في النص (معانده).

(٤) هذه العبارة ما هي إلا مقولة أطلقها الإمام (على بن أبي طالب) رضي الله عنه فـــي اقتـــران العلم بالعمل، حيث قال: العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتـــف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. انظر: الشريف الرضي (أبا الحسن محمد بن الحـــسين بـــن موسى الكاظم): نهج البلاغة، تحقيق: فارس الحسّون، مركز الأبحاث العقائدية، ص ٨٤٦.

"وصنعتموهم"، (التثنية ٦: ٢٤) "وأمرنا الرب بالعمل"، وكثير من ذلك في التوراة والكتابات والأنبياء. وفي محبة العلم قال الشاعر ألفاظ ***سليمان الصغير***[١]: ***كيف أترك الحكمة وروح الرب قد قطعت عهدا بيني وبينها. أو تتركني وهي أم لي، وأنا ابن شيخوختها***. وقال شاعر آخر من العلماء:

تعلم فليس المرء يخلق عالما ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

وإن كبير القوم لا علم عنده ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ صغير إذا التفت عليه المحافلُ[٢]

ولنذكر من شرف العلماء ما أمكن.

اعلم يا أخي -أيدك الله برحمته- أن الخالق تعالى جعل لكل مصنوع غاية ينتهي إليها ويقف لديها، كالياقوت من الحجر، والنخل من الشجر، والبشر من الحيوان، والملائكة من الجن. وهو سبحانه المنزّه من الأشباه والأنداد والأشكال والأعداد، المقدس عن الإحاطة بالأفكار، وهو أجس الأسرار فخلق في هذا[٣] العالم تحت فلك القمر المعادن والنبات والحيوان حسب. فجعل سبحانه من المعادن الجامدة جنسا شريفا[٤] وهو الياقوت حسب. ومن المعادن السائلة جنسا شريفا[٥] وهو الذهب حسب. وهو أقرب نسبة إلى النبات؛ لأنه ينبت مثله. وجعل من النبات

---

(١) سليمان الصغير كناية عن الشاعر سليمان بن جبيرول.

(٢) تنسب هذه الأبيات العربية إلى الشاعر (محمد بن كناسة) (١٢٤-٢٠٨هـ) وهو من شعراء الدولة العباسية من أهل الكوفة، وكان عالما بالعربية وشاعرا، <u>www.alwarraq.com</u> - المرزباني: نور القبس.

ووردت هذه الأبيات في النص على النحو التالي:

تعلم فليس المرء يخلق عالما ‏ ‏ ‏ ‏ فليس أخا علم من كان جاهلا

إن كبير القوم لا علم عنده ‏ ‏ ‏ ‏ صغير إلى التفت عليه المحافل

ولا تعرض من العلم بدون ‏ ‏ ‏ ‏ بل يكون نصيبك في علو قدمته الأوائل

(٣) في النص (هذي).

(٤) في النص (جنس شريف).

(٥) في النص (جنس شريف).

جنسا شريفا وهو النخل؛ لأنه أقرب نسبة إلى الحيوان لأنه يلقح الأنثى من الذكر، وإلا لم يثمر. وإذا قطع رأس النخلة ماتت مثل الحيوان، وجعل سبحانه مثل ذلك في الحيوان خلقا يجانس خلق الإنسان وهو القرد. وفي الفرس حس ليس هو في سواه من الحيوان. وفي الفيل أيضا من قبول التعليم ما ليس في سواه من الحيوان. وهذه كلها دون رتبة الإنسان.

فلما كان ذلك كذلك وجب أن يكون في جنس الإنسان ما يشابه الملائكة وهم الأنبياء ومن ورثهم من الأئمة والأوصياء والعلماء والحكماء. فتبين ذلك أن العلماء ورثة[١] الأنبياء أشرف المخلوقين من الناس، فهم في الدنيا ملائكة بالقوة. فإذا نقلهم الله إلى دار كرامته صاروا ملائكة بالفعل.

فانظر يا أخي ما أحسن هذا[٢] الترتيب الذي آخر كل رتبة متصل بأول الرتبة الثانية، فسبحان خالقه ومنشئه ومدبره وبارئه كما شاء وكيف شاء وهو أعلم العالمين.

نعود إلى ما كنا فيه من أمور التوبة ونقول: إن العلماء قد حددوا حدود التوبة ومعانيها وأسبابها وجعلوا لها أربعة حدود على ما بينوا في كتبهم، وذلك: ترك الذنب والندم عليه، والاستغفار عنه، والضمان ألا يريد العبد أن يعاوده[٣]. فقد فننوا ذلك وبالغوا فيه بما نستغني عن ذكره لئلا[٤] يطول الشرح. وقيل: إن من كرم الله سبحانه أن العبد إذا نوى التوبة أو يعمل حسنة وفاجأه الموت قبل أن يتوب أو يعمل تلك الحسنة كتبه الله في ديوان التائبين. وكذلك إذا نوى العبد فعل سيئة[٥]

(١) في النص (ورثت).
(٢) في النص (هذي).
(٣) في النص (أن لا يزيد العبد يعاوده)
(٤) في النص (للا).
(٥) في النص (ساية)

وفاجأه الموت قبل أن يعملها كان من لطف البارئ سبحانه أن لا يكتبها عليه[1]. فسبحان اللطيف بعباده ***صبور وعظيم الفضل وهو واسع الجود.*** وقال ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث البركات ١٠): "لا يمنع الإنسان نفسه من الرحمات، حتى لو كان السيف مسلطا على رقبته"، فلا يجب للعبد أن ييأس[2] من رحمة الله سبحانه ولا يقنط منها[3]. وقال بعض العلماء: اختلاف الأصوات مع اتفاق النيات في هياكل العبادات ينقض ما أكرمته الأفلاك. ومن شروط التوبة ولواحقها التواضع والزهد والأدب والصوم والصدقة واسترجاع[4] الخاطئين. فلنذكر في كل باب من ذلك طرفة. فقليل الأدب ينفع في النفس الشريفة وكثيره لا يحيد في الجاهلة كقوله (الأمثال ١٧: ١٠) "الانتهار يؤثر في الحكيم أكثر من مائة جلدة في الجاهل". فأما حسن الزهد فكما قال السيد يعقوب عليه السلام (التكوين ٢٠: ٢٨) "إذا كان الرب معي وأعطاني خبزا لآكله وملبسا لأرتديه". هذا[5] ما لا بد منه مع زواج امرأة

---

(١) في قوله هذا إشارة إلى حديث قدسي جاء فيه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. انظر: الإمام البخاري (محمد بن إسماعيل)، صحيح البخاري، تقديم: أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت، كتاب التوحيد، باب قول الله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ الجزء التاسع، ص ١٤٤.

(٢) في النص(يوس).

(٣) استقى هذه العبارة من قوله تعالى في سورة الحجر الآية (٥٦) ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ وقال عز وجل في موضع آخر من سورة الزمر الآية (٥٣) ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(٤) في النص (استجاع).

(٥) في النص (هذي).

منقيّة لربها صاينة لفرجها، مطيعة لبارئها. وقال بعض العلماء: من كان يخشى الله ويتقيه وكان له بيت يأويه وضيعة تكفيه وامرأة تواتيه فقد تمت نعم الله عليه. وقال في مثل ذلك بعض شعراء العرب:

ازهد في الدنيا إذا نلت المنى فهناك زهدك من أمور الدين

فالــزهد فــي الدنيا ممدوح إذا رمتها وأبيت بأعفة العين.

وقيل: إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه. وإذا طلبهم فاهرب منه. وقال آخر: ازهد في معصية الله، يحبك الله. وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس[١]. وقال بعض العلماء: من زهد في الدنيا استراح قلبه وقلوب حساده. ومن رغب في الدنيا طال حزنه وكثر عدوه. وقال آخر: من زهد في الدنيا استراح من جناياتها[٢] ومن مقاساة أهلها ومن خوف العاقبة بعد مفرقها. وقال آخر: من طلب الدنيا لم يكن[٣] له بد من خلتين[٤]: يحسد من فوقه ويحسده من دونه. وقال آخر: من طلب الدنيا إن نال ما أكل تركه لغيره، وإن لم ينل[٥] مات بغصته. وقال آخر: ما أقرب الندامة لمن طلب الدنيا، وما أقرب السلامة لمن تركها. وقال آخر: العكوف على تربية الأجسام كالعكوف على عبادة الأصنام. وقال آخر: كيفما ازدادت[٦] الأجسام عمرانا، ازدادت[٧] العقول خرابا.

---

(١) اقتبس المؤلف هذه المقولة من حديث نبوي شريف، فقد ذكر عن سيل بن ســعد الــساعدي (رضي الله عنه) قال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الناس. فقال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك. انظر: الإمام النووي (أبا زكريا يحيــي بن شرف النووي الدمشقي): رياض الصالحين، تحقيق: محمد الصادق بسيس، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩م، باب الزهد، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢) في النص (جناياها).

(٣) في النص (لم يكون).

(٤) في النص (من خلتان).

(٥) في النص (لم ينال)

(٦) في النص (ازتادت).

(٧) في النص (ازتادت).

وقال آخر: ما أجهل من يطمئن[١] إلى الدنيا وهو يرى تصرفها بمن تقدمه. وقال آخر: العاقل من اعتبر بغيره قبل أن يصير[٢] عبرة لغيره. وقال آخر لما سئل عن الدنيا، قال: أقول هي دار أولها عناء وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب. من استغنى فيها فتن. ومن فقر فيها حزن. ومن ساعاها فاتته. ومن قعد واتته. ومن بصر بها بصرته. ومن أبصر إليها أعمته، فذمها[٣]. وآخر قدامه فقال: لا تذمها بالمرة فهي دار صدق لمن صادقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها[٤]، مهد وحي الله ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه، فيها الجنة بها الرحمة. وقال أيضا: لا تهتموا بالدنيا، لا تبقى لأحد، ولا ترفضوها لأن[٥] الآخرة لا تنال إلاّ بها. وقال بعض الصالحين وقد رأى إنسانا[٦] يمشي وهو يزهو بنفسه، فقال فيه:

كيف يزهو من رجيعه	أبد الدهر رجيعه
هو منه وإليه	وأخوه ورضيعه
ليس يخلو منه إلا	وقت ما لا يستطيعه[٧]

---

(١) في النص (يطمأن).

(٢) في النص (قبل يصير)

(٣) اقتبس هذا المأثور من مقولة الإمام علي في صفة الدنيا، حيث قال: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، وفي حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها أبصرته، ومن أبصر إليها أعمته. انظر: الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص ١٤١.

(٤) تتطابق هذه العبارات مع ما أورده الإمام (علي) في صفة الدنيا، فذكر: أن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها. انظر: الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص ٨٠٤.

(٥) في النص (بأن).

(٦) في النص (إنسان).

(٧) تنسب هذه الأبيات لابن الرومي (٢٢٢-٢٨٣هـ) وهو علي بن العباس بن جريج الرومي، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل ولد ونشأ في بغداد ومات فيها. انظر: المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب) -www.cultural.org.ae

وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

كيف يزهو من رجيعه أبدا الدهر ضجيعه	يوهو منه وأخيه ورضيعه
فإن استصعب عليه فهو لا شك صريعه	وإن انحل فقد أدناه للموت سريعه

وقال أيضا:

كيف يزهو من أوله نطفة مذرة

وآخـــــره جيفــة قـــــذرة

وهو بينهمـــا إنـــــاء للعـــذرة.[1]

وقال آخر:

هل الجسم إلا نطفة في مشيمة	نمت بـــدم الأحشاء شر نماءِ
وهل هو إلا ظرف بول وغائط	وإن يطل من طيب بكل طلاءِ
كثيف ولكـــن سترت جدراتـــه	بزر قميــص واشتمـــال رداءِ
فبعـــدا لشيء هـــذه صفة لـــه	وسحقا ونأيا لا يقاس بنـــاءِ[2]

وقال آخر: يا عجبا لمن جرى في مجرى البول ثلاث دفعات كيف يزهو. وكثير مثل ذلك لا نطول. وقال بعض زهاد **الحكماء** رحمهم الله وهو ربي يهودا اللاوي رحمه الله: ***وكيف يتجبر من التصق بنطفة ماء ودم قذر، الذي صار مقيما فيه وخرج منه دون رغبته، ومأكله ومشربه ونهاية حياته بقدر معين. وليس هناك لحظة بلا مصيبة ولا عناء ولا خوف، ولا يوجد صالحون بلا دماء، ولا من***

---

(١) في النص (وهو بيناه إناء للعاذرة)

(٢) تنسب هذه الأبيات للشاعر اليمني (السلطان الخطاب) (٤٧٥-٥٣٣هـ) متصوف وشاعر وفارس، نظم هذه الأبيات في بحر الطويل. المجمع الثقافي بأبي ظبي - الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب) -www.cultural.org.ae

ووردت هذه الأبيات في النص على النحو التالي:

الجسم إلى صار نطفة في مشيمة	نمت بـــدم الأحشـــاء شـــر نمائي
وهل هو إلاّ ظرف بول وغيـــاط	ولو طلي من طيب بكـــل طـــلاني
ولكـــن ستــــرت جـــدراتــــه	بزر قمـــيص وأسمـــال ردائــــي
فكيف لشيء هـــذه صفته لهـــو	بعـــد يستحـــق ليقـــاس بفـــاني.

يفتدى من نار جهنم. نال الرضا ووجد السعادة من أخطأ واعترف. وقدم ترتيلة وتسبيحات عند التابوت والمذبح، للرب إلهنا الرحمات والغفرانيات. ومن المواعظ أن بعض العلماء قالوا له: عظنا يا سيدنا، فقال: عليكم بتقوى الله سبحانه وبترك الفضول من الطعام والفضول من الكلام والفضول من المنام واحتمال الأذيّة من الناس، قالوا له: وما فائدة ذلك؟ قال: أما بتقوى الله فتنالون السعادات، وبترك الفضول من الطعام تموت الشهوات، وبترك فضول الكلام تسلمون من الآفات، وبترك الفضول من المنام تتفكرون في خلق الأراضين والسماوات[١]، وباحتمال الأذيّة من الناس تبلغون جميع المرادات فتصير أنفسكم كالملك في البستان، وكالفرس في الميدان. وقال بعض الخلفاء لقي رجلا زاهدا واقفا[٢] في بيت من بيوت الله، فقال الخليفة: اسأل تعط، فقال له الزاهد: أنا أحتشم من ربي كيف أكون في بيته وأطلب غيره. وقال آخر: الله وهبه[٣] خير الهمة والطاعة، وزاده[٤] اليقين والقناعة، وبصّره في الدين، ووفقه وبسط منه النمّال[٥]، وشغله بدنياه ووكله على هواه فصار يظلم العباد، ويخرج من الدنيا بغير زاد. وقال آخر: الناس يكتبون أجود ما يسمعون، ليحفظوا أجود ما يكتبون، ويتكلمون أجود ما يسمعون، ويعملون أجود ما يعلمون. وقيل: إن رجلا من الفضلاء كان يمشي وخلفه سفيه يشتمه، فلم يلتفت به ولا التفت إليه، فقال له السفيه التفت فإياك أعني، فقال له: وعنك أعرض. وقيل إن سفيها شتم رجلا فاضلا[٦] وقال له: أمك التي[٧] فعلت كذا كذا[٨]. قال: إن

---

(١) في النص (السمدوات).
(٢) في النص (رجل زاهد واقف).
(٣) في النص (الله به)
(٤) في النص (زيده)
(٥) النمّال: أي اللسان (مادة: نمل – المعجم الوسيط).
(٦) في النص (رجل فاضل).
(٧) في النص (الذي).
(٨) في النص (كذى وكذى).

كان قولك صادقا فالله يسامحيا. وإن كان قولك كاذبا فالله يسامحك. وقيل: إن ساعيا أتى إلى بعض الصالحين بسعاية فقال له الصالح: السعاية قبيحة ولو كانت صحيحة لكنّا[١] نبحث عما وصلت به. فإن يكن[٢] صحيحا، مقتناك، وإن يكن[٣] باطلا، عاقبناك. وإن تشته[٤] أن نقيلك أقلناك. فقال له: أقلني، فأقاله. وقيل: إن ساعيا سعى إلى بعض الملوك، فقال له الملك: تشتهي أن نسمع من خصمك فيك مثل ما سمعنا منك فيه، فقال: لا بل أقلني، فأقاله. وقال بعض الملوك: إني لأُعظم حلاوة العفو أشد من حلاوة الانتقام. وقال بعض الصالحين في مناجاته لربه: اللهم إن ذنبي عظيم وحبسي حصين وقيدي وثيق، لكنك غريم شفيق. وقال آخر: اللهم لولا[٥] حشمتني من ذنبي لما خفت عقابك. ولولا حسن ظني برحمتك لما رجوت ثوابك. وقال آخر: اللهم اغفر ذنوبي واستر عيوبي، وبلغني في الدارين محبوبي. وقال آخر: اللهم إنك عالم بذنوبي فاغفرها، وعالم بعيوبي فاسترها، وعالم بحوائجي فاقضيها[٦]. وقال آخر: اللهم ارحم عبدك الذي جره الأمل، وفاته العمل وطلبه الأجل. وقال آخر: اللهم إنّا نحب طاعتك وقد قصرنا عنها. ونبغض معصيتك وإن ارتكبناها. فارزقنا عنها الجنة، وإن لم نكن[٧] من أهلها. وخلصنا من النار وإن كنا قد استوجبناها. وقال آخر: اللهم ارحم عبدك الراجي لثوابك، الراهب لعقابك، فبحق نبيك، وكتابك اجعلني من أحبابك، فلا حول ولا قوة إلا بك. وقيل: إن بعض الناس حضرته الوفاة وكان مذنبا، فقال له بعض من حضر: ما عذرك على ربك، فبكى وأنشد وهو يقول:

---

(١) في النص (لاكنا).

(٢) في النص (يكون).

(٣) في النص (يكون).

(٤) في النص (تشتهي).

(٥) في النص (إن لولا).

(٦) في النص (فاقضيها).

(٧) في النص (لم نكون).

مـــن أنا عند الله حتى إذا		أذنبت لا يغفــر لـــي ذنبي
العفو يرجى من بني آدم		فكيف لا أرجوه من ربي[١]

فإذ قد ذكرنا بعض شيء من الزهد والآداب والتواضع، فلنذكر الآن فضيلة الصدقة والصوم.

اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك إلى رضاه، أن العلماء قد حثوا على فعل الخير في جميع أقاويلهم، والعقول قد أوجبت فعل المعروف مع أهله ومع غير أهله ليكون ذلك للأنفس طباعا. وقال بعضهم:

دع الجميل ولو في غير موضعه		فلم يضع جميل [٢] أينما وُضعا.

وقال بعض الأولياء: اصنع المعروف مع أهله فإن لم يكن[٣] من أهله فلم يضع[٤]. وقالت الكتب المقدسة (الجامعة ١١: ١) "ارم خبزك على وجه المياه فإنك تجده بعد أيام كثيرة". فمن العلماء من فضّل الصوم على الصدقة، واستدل بقول **الحكماء** رحمهم الله (مبحث البركات ٣٢) "إن هذا في جسده وهذا في طعامه"،

---

(١) تنسب هذه الأبيات للشاعر العباسي الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس (١٤٦- ١٩٧هـ) ولد بالأهواز، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، واتصل بخلفاء الدولة العباسية ومدحهم، وخرج إلى دمشق ومصر فمدح أميرها، وعاد إلى بغداد وأقام فيها إلى أن توفي. انظر: بهاء الدين العاملي: الكشكول، المجلد الخامس، مصر ١٠٠٨هـ، ص ٢٠٦٤. انظر أيضا: المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)

www.cultural.org.ae-

وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

**مـــا أنـــا عند الله حتى		إلى مت لم يغفر لي ذنبي**
**العفو يرجى من بني آدم		فكيف لا أرجود من ربي.**

(٢) في النص (لم يضيع جميلا).
(٣) في النص (لم يكون).
(٤) في النص (لد يضيع).

وببرهان أن النفس إذا[١] عدمت الغذاء تغتذي به التفتت إلى الشحم والدم اللذين كانت أعدتهما فأحرقتهما بنورها وغذت به جسمها، فصار بذلك الصوم أفضل من الصدقة. ومنهم من قال: إن الصدقة أفضل من الصوم؛ لأن صاحبها يحيى نفوس الضعفاء وينير بها عيونهم التي قد أظلمت من الفقر. وقال آخر: إن صوم الغني أفضل من صدقته؛ لأنه يرى أنه يتصدق بصدقة ولا يتعب نفسه بصوم، وأن صدقة الضعيف أفضل من صومه؛ لأنه يتصدق من ضيق نفس. وكلا القولين مليحان جيدان[٢]. وقد قالت العلماء عدة أقاويل في فضيلة الصدقة. وأبانوا ذلك بشروح طويلة في كتبهم ونطقت الكتب المقدسة بأنها تنجي من الموت كقوله (حجيجا ٥) "وصدقة تنجي من الموت". وقالوا: إن الصدقة في السر أفضل من الصدقة في العلانية. وبعضهم من قال: العلانية أفضل من الصدقة في السر. والعلانية أوفى حتى[٣] يمتثل الناس من بعضهم بعضاً[٤]، ويستنفع الضعيف. وكلا القولين مليحان صحيحان[٥]. فصدقة السر تحسن لمن لم قط يفتش وجهه ولا اعتاد أخذها. وهو مستور العرض لا يعلم الناس به. فصدقة السر عليه أفضل. وصدقة العلانية لمن كشف وجهه، واعتاد أخذها أفضل من إعطائه بالسر. وعلى الجملة إن الكل جيد من فاعله إذا[٦] قصد به وجه الله تعالى واختار لثوابه إذا[٧] لم يبتغ[٨] به شكر الناس. فكل من مكّنه الله يسارا في هذه الدنيا ولم يخرج منه حق الله سبحانه وحق الضعفاء ولم يصطنع منه معروفا[٩]، فمثله مثل من عنده زيت

---

(١) في النص (إذى).
(٢) في النص (مليحين ، جيدين).
(٣) في النص (لحتى).
(٤) في النص (بعض)
(٥) في النص (القولين مليحين صحيحين).
(٦) في النص (إذى).
(٧) في النص (إذى).
(٨) في النص (لم يبتغي).
(٩) في النص (معروف).

وهو يمسي في ظلام. ويصير ذلك اليسار عليه يعيش به عيش البخل. ويحاسب عليه حساب الأغنياء. ولا بد من إحدى[١] المصيبتين يحلهما الله عليه في دار الدنيا بالحتم من الله سبحانه. إما أن يمر ماله إلى غيره من سلطان قاهر أو سرق أو حريق أو غريق، وهو ينظر بعينيه أو هو أشد ممرًا[٢] ويبقى المال لوارثه أو لغير وارثه. وقد قال بعض العلماء في هذا المعنى كلمة مليحة: بشر مال البخيل، إما بحادث وإمّا[٣] بوارث. وقال الشاعر العبراني: **اختر طريقة للموت واعلم ما هي ولا تسأل السفهاء.**

وقال الحكماء رحمهم الله: **يموت الإنسان ولا يحتاج للمخلوقات.**

وقال شاعر العرب في ذلك بيت شعر:

إذا أظمأتك أكف الرجال كفتك القناعة شبعا وريّا[٤]

قال ذلك أيضا: ما على الأخيار أشد من الاضطرار بحاجتهم[٥] إلى الأشرار. فالموت أيسر من اقتضاهم حاجة. وقال أيضا: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء. وقد علمت ما كان من قصة السيد داود عليه السلام لما ألجأته[٦] الضرورة بحاجة إلى نابل الكرملي[٧] وما كان عاقبة ذلك. وقيل

---

(١) في النص (أحد).
(٢) فى النص ممر
(٣) في النص(وإلا).
(٤) البيت منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب. المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)
www.cultural.org.ae-
وورد هذا البيت في النص على النحو التالي:
إذا أضامتك أكف الأيام كفتك القناة شبعا ورايا.
(٥) في النص (بحاجته).
(٦) في النص (ألجته).
(٧) ورد ذكر نابال الكرملى في سفر صموئيل الأول.انظر الإصحاح (٢٥).

للعلماء: لمَ تصلون تطلبون حوائجكم إلى أبواب الأغنياء، وهم لا يصلون إلى عندكم إلى أبوابكم؟ قالوا: لجهلهم بما عندنا ولمعرفتنا بما عندهم.

وقال بعض الأبطال:

الموت أهون عندي بين الأقنّة والأسنّة

من أن يكون للنذل عليّ فضل ومنّة.

فعليك يا أخي بفعل الجميع ما استطعت، وصاحب الصدقة يعطيه الله سؤله كقوله: ***أليس أن تكسر للجائع خبزك.*** وقال بعده (إشعيا ٥٨: ٧- ٩) "حينئذ تدعو فيجيب الـــرب يستغيث فيقول ها أنذا". وبالخاصة على القرابة كقوله ***ومن جسدك لا تتوارى.*** وقال في ذلك (الأمثال ١١: ١٧) "والقاسي يكدر لحمه". ومن فضيلة الصدقة أن ***الحكماء*** رحمهم الله جاءوا في وصفها في عدة مواضع: (مبحث بابا بترا ١٠) "والمتصـــدق يحظـــى باستقبـــال الـــرب له" قيل: (المزامير ١٥:١٧) "أنا بالصدقة أرى وجهك"، وكذلك الآباء الأوائل حظوا في الدنيا والآخرة بفضل الصدقة والأعمال الصالحة كأبينا إبراهيم. ورد (التكوين ١٩: ١٨) "لأنني عرفته الذي يأمر أبناءه وبيته بعده، واحفظوا طريق الرب في إخراج الصدقة والقضاء". قال: (التكوين ١٢: ٢٦) "وزرع إسحاق هذه الأرض ولا زرع سوى الصدقة" قيل: (هوشع ١٢: ١٠) "ازرعوا لأنفسكم بالبر"، ***صغير أنا عن جميع ألطافك ومن جميع الحق، ولم أصغر إلا قليلا ولا قليل إلا صدقة*** قيل: (الأمثال ١٦: ٨) "قليل من الصدقة خير" **صنع الرب صدقة وأحكامه مع إسرائيل، وروي عن داود قوله: أنا** ***بصدق أرى وجهك فعندما يفتح الإنسان يديه ويخرج صدقة، كذلك يبسط الخالق عز وجل له من خزائن خيراته.*** قيل (التثنية ٢٨: ١٢) "يفتح لك الرب كنزه الصالح السماء"، ***ومن الضروري أن يتعلم الإنسان من جسده ففي كل وقت يقص فيه شعره فهو يبدله. وكلما أغدق عليه الله سبحانه وتعالى الأموال ويتجاهل الصدقة. فتؤخذ منه، فمن الثروات ما تفر من هذا لتذهب إلى ذاك.***

وكذلك يا أخي فضيلة الصوم أشهر ومَنافعه أكثر. فمن منافعه الظاهرة أنه سبب رياضة النفس لفعل الخير، وإماتة الشهوات وتقطيع الأخلاط. وأما منافعه الباطنة فهي تصويم الجوارح كلها عمّا حرّم الله سبحانه. بيان ذلك أن يقمع عينيه من النظر إلى ما حرّم الله سبحانه عليه من النساء وسواها، ويمسك يده عن أخذ ما يحرّم الله عليه وعن البطش بالضعفاء وبما لا يجب البطش به. وكذلك يصم أذنيه من استماع ما حرّم الله عليه سبحانه. وقد قال النبي في قوله (إشعيا ٣٣: ١٥)" السالك بالحق والمتكلم بالاستقامة، الراذل مكسب المظالم، النافض يديه عن قبض الرشوة الذي يصم أذنيه عن سمع الذم[١]، ويغمض عينيه عن النظر إلى الشر". ولو سمع ما يؤذيه[٢] احتمل وامسك لسانه عن فضول الكلام وعن الرفث والقذيعة في الناس، فلسانه أكبر عدو له. وقد أكثر العلماء بالأمر بضبطها ما استطاع الإنسان وغالوا[٣] في ذم من يطلقها كقول بعضهم: زلة[٤] القدم ولا زلة اللسان. وقال آخر بيت شعر:

احفــظ لسانــك أيها الإنسان	لا يلــدغنــك إنـــه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه	كانت تهاب لقاءه الأقران[٥].

(١) في النص (الدما)
(٢) في النص (يانيه).
(٣) في النص (غايو).
(٤) في النص (زلت).
(٥) تنسب هذه الأبيات للإمام الشافعي (١٥٠- ٢٠٤هـ) وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبت الشافعية، ولد بغزة بفلسطين، وارتحل منها إلى مكة وتوفي بمصر، برع في الشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة.
المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)
www.cultural.org.ae-

وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

احفظ لسانك أيها الإنسان	لا يلسعـك إنـــه الثعبـــــــاني
كـــم في المقابر من قتيل	لسانه وكانت تهاب مكانه الأقرانـــي

وقال العلماء عليهم السلام في ذم ***لسان السوء*** ما قد علمت حتى أمرهم أنهم قاسوه بإزاء الثلاثة ***المعاصي***[١] الكبار التي هي ***سبع وسبعون وكشف العورات وسفك الدماء.*** وبرهنوا على ذلك وقالوا (الخروج ٣٢: ٥) "آه لقد أخطأ هذا الشعب خطيئة عظيمة"، وكتبوا في ***كشف العورات***، (التكوين ٣٩: ١٠) "وكيف أصنع الخطيئة العظيمة". وفي ***سفك الدم*** كتبوا ***ذنبي أعظم من أن يُحتمل، لكن لسان السوء كتبوا يقطع الرب جميع الشفاه الملقة، اللسان المتكلم بالعظائم.*** وحسبك ما جاء[٢] به الأنبياء في وصفها، إذ قالوا: ***الموت والحياة بيد اللسان*** فإمساكها عن الكلام أوفى من إمساكها عن الطعام. وكذلك يضبط الإنسان رجليه عن المشي إلى الموضع الذي لا يجب له وعن مسايرة الأشرار، وعلى أن قد نهانا النبي عن مسايرتهم ومشاورتهم ومجالستهم كقوله ***طوبى لامرئ لا يتبع مشورة الأشرار.*** وقال سليمان عليه السلام: (الأمثال ١: ١٥)" يا بني لا تمش في طريق بصحبتهم"، ومثل ***أرجلهم للشر***. وكذلك صيانة فرجه وتزكيته عن الحرام الذي حرّم عليه وخاصة في هذا[٣] عضو الختانة وهي ***العهد***[٤] التي عهدها الله سبحانه مع أبينا إبراهيم عليه السلام بقوله (التكوين ١٧: ١٣) "فيكون في لحمكم عهدا أبديا". فواصل في فضيلتها ذكر **العهد**[٥] ثلاث عشرة مرة. وكذلك جوارحه الباطنة يجب عليه أن يضمها من المعاصي. فلا يتفكر في عمل معصية ولا أذية من لا تجب أذيته، كقوله فيمن[٦] يتفكر في ذلك (المزامير ٣٦: ٥) "يتفكر بالإثم على

---

(١) في النص (العفيروت) وهي من الألفاظ العبرية التي أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية وهي بمعنى: المعاصي أو الآثام.

(٢) في النص (جايو).

(٣) في النص(هذي).

(٤) في النص (البريت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية بمعنى العهد.

(٥) في النص (البريت).

(٦) في النص (في من).

مضجعه". فإذا يصح للإنسان جميع ذلك أو كثرته أو بعضه وأمسك مع ذلك جارحة الطعام. فهذا هو الصوم الصحيح الذي يرضى به الله سبحانه. وتصير جميع أعضائه مطيعة لله شاكرة له كقوله (المزامير ٣٥: ١٠) "كل أعضائي تقول يا الله من مثلك". فسبحان من افترض علينا هذه الفرائض الجليلة لينفعنا في دار كرامته كقوله: *وأمرني الرب أن أصنع كل هذه الشرائع.*

كمل الفصل الرابع يتلوه

الفصل الخامس

في التوكل على الله في الحياة والموت والرزق وجميع الأمور

باب التوكل على الله سبحانه في طلب الرزق وسواه من سائر الأمور الدينية والدنيوية[١].

اعلم يا أخي أن الأرزاق عجيبة، وأن الله تبارك وتعالى متكفل بأرزاق خلقه من صغير إلى كبير (مبحث السبت ١٠٧: ٢) "من أكبر الأمور حتى أصغرها". وأن الرزق أشد طلبه للعبد من أجله. وأن بعض الصالحين سئل[٢] وقال له السائل: لو أني أغلقت بابي هل كان يأتيني رزقي؟ فقال له: نعم، قال السائل: وما الدليل؟ قال له: كما أنك ولو أغلقت بابك أتاك أجلك. وقال الصالح: لو أن العالم يتوّكلون على الله حسن توكله لرزقهم كما يرزق الطير، تسرح خماصا، وترجع بطانا[٣].

---

(١) في النص (الدنيئية).

(٢) في النص (سأل).

(٣) هذه العبارات تحمل في نصيا نفس مضمون الحديث الشريف، وفيه: حدثنا علي بن سعيد الكندي، حدثنا ابن مبارك، عن حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم الجيشاني، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا). انظر: الإمام النووي: رياض الصالحين، باب في التوكل على الله، ص ٤٥.

وقيل: إن موسى الكليم (عليه السلام) سأل العالي تبارك وتعالى في مناجاته له وقال: يا رب كيف ترزق؟ قال: أسبب أرزاقهم من بعضهم بعضًا[1]. قال: أرني ذلك، فأمره أن لا يشعل أحد من بني إسرائيل نارا إلا هو. فرُفعت النار من بين أيديهم، وعدمت وبقي عنده إصباح واحد فعمد بعد ذلك بنو إسرائيل يسرجون[2] سرجهم من عنده، من ذلك السراج الأول فالأول[3] وبعضهم يسرج من بعض. فما مضى من الليل بعضه حتى أنارت جميع مساكنهم، واشتعلت فيها النيران، فقال سبحانه لموسى: هكذا أرزق خلقي من بعضهم بعضًا. وقيل: إن سليمان بن داود عليه السلام سأل الخالق كيف سريرته في أرزاق خلقه، وهل ينسى أحد من الرزق؟ فقال له: لا أنسى أحدا يا سليمان، فبيناه ذلك اليوم يشقق حجارة لبيت المقدس من صخرة بمناشير الفولاذ[4] ملقمة بالماس إذ وجد في الصخرة دودة نامية رطوبة خضرة تغتذي منها. فقال له الخالق سبحانه: انظر يا سليمان هل نسيت هذه وهي في جوف الصخرة؟ فما يفعل بك إلا ما يراه أليق بك وأصوب لك وأنفع، ولو رأيت ذلك الفعل المفعول بك ينافر طبعك ويضجرك ويضيق صدرك، فالواجب عليك أن تأخذه بقبول. فإن خالقك سبحانه أعرف بمصالحك منك، ومتكفل بك ومعتنٍ بك من أول نشأتك نطفة إلى كمال خليقتك في الرحم. وأوصل إلى هناك رزقك على أضيق طريق حيث لا تصله يد مخلوق. وكذلك أخرجك من أصعب طريق على أيسر حال، وسبب لك الرزق في ثديي أمك. وكذلك في نشأتك أولاً بأول[5] إلى أن أتاك الهرم والشيب. فهو لا يسيبك أبدا إلى أن ينقلك إلى دار كرامته. وقد نطقت الأنبياء بذلك إذ قالت: (المزامير ٢٢: ٩-١٠) "لأنك أنت جذبتني من البطن، جعلتني مطمئنا على ثدي أمي، عليك ألقيت من الرحم، من بطن أمي أنت إلهي". وقال (المزامير ٢٧:١٠) "إن أبي وأمي قد تركاني والرب ضمني"، (المزامير ٧١: ١٨) "إلى

---

(١) في النص (بعضهم بعض).
(٢) في النص (يسرج فعمدوا بعد ذلك بنى إسرائيل).
(٣) في النص (في الأول).
(٤) فى النص (الفيلاذ)
(٥) فى النص (أول فى أول)

الشيخوخة والشيب يا الله لا تتركني". وقال الحكيم في المتقي لله والمتوكل عليه ***في شبابه ماذا يقول؟*** (إشعيا ٤٠: ٣١) "ومنتظرو الرب يجددون قوة". ***وفي شيخوخته ماذا يقول؟*** (إشعيا ٤٦:٤) "وإلى الشيخوخة أنا هو وإلى الشيبة".

فلا تغتر يا أخي بأن الله سبحانه يكلفك في صغرك ويسيّبك في هِرمك، فلو اجتمع العالم بأسره يبيّضون منك شعرة سوداء قبل أن يُقدّر الله سبحانه ذلك لا يقْدرون، لو يغمسونها[1] بكل ما في الدنيا من أسفاذج أو صباغ، ما ابيضت حتى يأتيها الوقت الذي قدره الله سبحانه. وكذلك لو اجتمعوا بأجمعهم أن يزيدوا في رزقك خردلة أو في عمرك ساعة أو لحظة أو يخرجوك من بطن أمك قبل الوقت المقدر بلحظة لما قدروا على شيء من جميع ذلك. بل الكل في يد الخالق سبحانه كقوله (أيوب ١٢: ١٠) "الذي بيده نفس كل حي وروح كل إنسان". فمن توكّل بالله كفاه، ومن استعان به أعانه. وقد قال بعض العلماء: توكّل تُكف. وقال: ثلاثة تضحك بثلاثة، الأجل بالأمل، والقدر بالحذر، والرزق بالحرص. وقال: الرزق رزقان: رزق يطلبك ورزق تطلبه، ما أحسن الذي يطلبك. فإن لم تأته أتاك. فما أهنأ الذي يطلبك[2]. وقال: الدنيا يومان: يوم لك ويوم عليك، فما كان لك أتاك، وما كان عليك فلا تدفعه بقوتك[3].

---

(١) في النص (يغمسوها)

(٢) يبدو أن الحكم والأقوال المأثورة عن الإمام علي (كرم الله وجهه) من المصادر العربية الإسلامية التي اعتمد عليها المؤلف اعتمادا كبيرا، وهذا المأثور مستمد من أقوال الإمام في التوكل على الله في طلب الرزق، حيث قال: (الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك، فلا تحمل همّ سنتك على همّ يومك، كفاك كل يوم ما فيه...) انظر: الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص ١٤١.

(٣) هذا المأثور الإسلامي استقاه المؤلف من خطاب الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) يقول فيه: أما بعد، فإنك لست بسابق أجلك، ولا مرزوق ما ليس لك، واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، وأن الدنيا دار دول، فما كان منها لك، أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك.

انظر: شرح نهج البلاغة، المجلد (١٨)، (١٨، ٦٠).

وحكي أن رجلا فاضلا عبر على قوم يبيعون[1] أجزاء لحم بالمهلة إلى وقت ما، فسألوه أن يأخذ جزءا[2]، ويمهلوه بقيمته إلى تلك المدة التي[3] أمهلوا سواه. فكره ذلك. فألحوا[4] عليه. وذكروا له أنهم يمهلونه[5] بالقيمة ضعف ما يمهلون الناس. فكره وقال لهم: قد شاورت نفسي قالت هي تمهلني من أكل اللحم أكثر من مهلتكم أضعافا، وانصرف. وقيل: إذا شئت أن تستقرض المال منفقا على شهوات النفس في الزمان العسر فاسأل نفسك الاستقراض من كيس صبرها عليها، وإمهال إلى الزمان اليسير، فإن فعلت كنت الغني، وإن أبت فكن معنيًّا[6] بعذرها واسع العذر. وكذلك حكى أيضا أن ضعيفا سائلا[7] عبر على رجل بخيل وهو يأكل طعاما وهو وقت قصره، فسأله أن يواسيه بشيء يأكله. وحقق له أن الجوع قد بلغ به إلى الغاية منه. فأبى البخيل أن يطعم السائل. فمضى في طريقه، فلقي في بعض المذابل شيئا من قشر الموز مرميًا[8] فأكل منه وسدد جوعته به. فبينما هو[9] يأكل فإذا بالرجل البخيل قد لحقه إلى هناك ودفع له قرصا[10] من الطعام، فأبى الضعيف أن يأخذ من ذلك البخيل ذلك القرص، وقال: ولو أراد الله بك خيرا لأعطيتني في

---

(١) في النص (يبيعو)
(٢) في النص (جزوا).
(٣) في النص (الذي).
(٤) في النص (فالحو).
(٥) في النص (يمهلوه).
(٦) في النص (معني).
(٧) في النص (أن ضعيف سائل).
(٨) في النص (مرمى).
(٩) في النص (فبيناه).
(١٠) في النص (قرص).

وقت سؤالي لكن معي نفس قد قنعت مني بما تراه. وقال بعض العلماء: من خاف الله خوّف منه الله كل شيء. ومن لم يخف[1] الله خوّفه الله من كل شيء.

وقال بعض العلماء: إن الله سبحانه قال للدنيا: من خدمني اخدميه[2]، ومن خدمك فاستخدميه. وقيل: إن بعض الملوك جاز على رجل فاضل فلم يقم[3] في وجهه. فاستنهره[4] عبيد الملك، فقال: لست[5] أقوم في وجه عبد عبدتي. فاستقام الملك وسأله وقال له: كيف صح لك أني عبد عبدتك؟ فقال له العابد: أما علمت أني رفضت الدنيا التي أنت خادمها؟ ومن ترك شيئا فقد اقتدر عليه، فلما تركتها أنا اختيارا وخدمتها أنت اختيارا يجب أن تكون لها عبدا. فعلم الملك أنه حكيم. وسأله صحابه أن يفيض[6] عليه من الذهب والفضة، فقال له الحكيم: لو كان لهما قدر ما اشتري بهما[7] أخس الأشياء، فقال له الملك: أطعمك الطيّبات، فقال الحكيم: وما فضل شبع الملك على من هو دونه إنما هي جوعة قد انسدت. فقال له الملك: أزينك بأفضل الثياب. فأجابه الحكيم: إن زينة العلماء العلم والعمل والزهد فيما في أيدي الناس، والتقوى لله سرا وجيرا. فبكى الملك وانصرف عنه. وقال الأنبياء عليهم السلام (إشعيا ٦٥: ١٣) "هكذا قال السيد الرب هو ذا عبيدي يأكلون وأنتم تجوعون"، وقال ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث الآباء ٨٣: ٤٠-٢) "كل من ألقى عن كاهله عبء التوراة يؤخذ عليه عبء الملك وحمل السلوك الحسن". فطوبى لمن

---

(١) في النص (لم يخاف).

(٢) في النص(خدمتيه).

(٣) في النص (لم يقوم).

(٤) في النص (فاستنهروه).

(٥) في النص(ليس).

(٦) في النص (ويفيض).

(٧) في النص (به).

عبد الله حق عبادته وأخلص النية بالتوبة إليه، والرجاء لما في يديه سبحانه كقوله (المزامير ٢: ١٢) "طوبى لكل من احتمى به".

واعلم يا أخي -وفقنا الله وإياك إلى رضاه- أن الرزق رزقان: رزق الدنيا، ورزق الآخرة. فرزق الدنيا ما كفى الإنسان من قوت وسد جوعه وستر عريه وابنه. هذا ما لا بد منه، وقد ضمن الخالق سبحانه قوت البشر من كبير إلى صغير كقوله (المزامير ١٤٧: ٩) "يعطي للبهيمة طعامها"، (المزامير ١٣٦: ٢٥) "يرزق كل إنسان"، وقوله (المزامير ١٤٥: ١٦) "تفتح يدك فتشبع كل حي رضى"، ***وهو يتبارك اسمه يرزق العالم من كبيرهم إلى صغيرهم***. وأما الآخرة هي لمستحقيها بالعلوم الشريفة والأعمال الصالحة مع توفيق الله سبحانه ورحمته ولطفه وتفضله على من يشاء من عباده الصالحين.

وأما عطايا الدنيا وأرزاقها الواسعة ونعيم أهلها، ونعم الكافرين والطاغين[١] من بني آدم، وضيق يد الصالحين والعلماء وشقاهم وتعبهم ونصبهم فيها وألمهم وأوجاعهم وجميع ما ينالهم فيها، فقد اختلف[٢] فيه العلماء على وجوه شتى. فمنهم من قال: إن البارئ سبحانه ينعم على الكافر في الدنيا لحسنة قد تقدمت له، فكافأه[٣] بذلك النعيم في الدنيا حتى لا يبقى له نصيب في نعيم الآخرة، ويؤلم الصالح في الدنيا بما أذنب فيها وينقله منها إلى دار الحياة، وقد محصه فيها ليستحق ثواب الآخرة كاملا. واستدلوا على أن نعيم الطالحين بهذا[٤] الوجه بقول الكتاب (التثنية ٧: ١٠) "والمجازي الذين يبغضونه بوجوههم ليهلكهم"، وعلى ألم الصالحين أنه

(١) في النص (الطاغيين).
(٢) في النص (اختلفو).
(٣) في النص (فكافه).
(٤) في النص (هذي).

بشفقة من الله عز وجل عليهم كما يشفق المرء على ولده ويؤدبه على كراهية منه كقوله (التثنية ٨: ٥) "فاعلم في قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك". فلا يجب لهم أن يضجروا من أدبه سبحانه كقوله (الأمثال ٣: ١١) "يا بني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه؛ لأن الذي يحبه الرب يؤدبه وكأب بابن تُسر به". وكقوله أيضا (المزامير ٨٩: ٣٣) "افتقد بعصا معصيتهم، وبضربات إثمهم". ومن العلماء من قال: إن الله جعل نعمة الفاسق في دار الدنيا ليمتحن قلب الصالح هل يبقى على صلاحه، ويعلم أن الذي في يـد الله له أبقى وأوفى وأدوم من ذلك، ولا يحسد الظالم على ما يرى في يده من يسار وفسحة يد. ويرى نفسه على ضد ذلك. فإذا بقي على صلاحه وقد توكل على ربه وازداد به يقينا بما عنده غبطة استحق الثواب الجزيل، والنعيم الجليل. وإن اغتر بما يراه في أيدي الظالمين من نعم الدنيـا وجهل الحكمة، أعطاه الله في ذلك حسب أجره، وهبطت درجته من درجة الصالحين.

ومنهم من قال: إن نعمة الطالح في دار الدنيا محنة له من الله سبحانه لعله يتوب ويفعل الخير ويخرج من تلك النعمة حقوق الله سبحانه وحقوق الضعفاء. ربما[1] لا يفعل ذلك ويجعل نعمة الله تعالى سببا[2] لمعصيته فيستعين بنعمة المنعم على معصيته، ويزداد في فسقه وطغيانه فيصير أشدّ لعقابه. وقد وبخ الله الفاسقين على مثل ذلك كقوله (هوشع ٨:٢) "وأكثرت لها فضة، وذهبا جعلوه لبعل"، وقال (إرميا ٥: ٧) "ولما أشبعتهم زنوا". فعاقبهم بعد العقاب الشديد.

---

(١) في النص (وقد ربما).

(٢) في النص (سبب).

ومنهم من قال: إن نعمة الله على الفاسق ربما تكون لولد صالح ينشئه[١] الله منه. فهو يجمعها ويؤهلها[٢] لذلك الولد الصالح. واستدلوا بقوله (أيوب ٢٧: ١٧) "يعد والبار يلبسه". وإن لم يحصل له الولد فلربما كان ذلك لمن يستحق سواه أو لضعفى كقوله (الأمثال ٢٨:٨) "ليرحم الفقراء يجمعه"، أو لعظم مصيبة ينتقم الله منه بها في الدنيا كقوله (الجامعة ٥: ١٣) "ثروة مصونة لصاحبها لضرره".

ومن العلماء من قال: إن نعم أهل الدنيا بأسرها أصلها مواليد فلكيّة وأحكام نجوميّة، وأمور سماويّة. وحكموا بأن من ولد من العالم في طوالع السعود سعيد، ومن ولد في طوالع النحوس نحس، وسائر أحكام النجوم في المواليد. وعلى أن النجوم لا تقدر أن تفعل إلا ما بذر[٣] فيها خالقها سبحانه إذ هي لا تعصيه، ولا تعدّى أمره ونهيه، فأصل أفعالها منه سبحانه لا منها؛ لأنه أجراها بحكمة، ودبرها بإرادته، وحكمها بصنعته. فكل فعل يصدر عنها فالكل منه صادر وإليه وارد. وهي وسائط بينه وبين خلقه كالخدم الثقات بين الملك وبين الرعيّة. فكل ثواب أو عقاب يتصل بأحد من رعية الملك، فإنما هو من الملك لا من الخدم؛ لأن الملك يجلّ من مباشرة ذلك بنفسه كقتل القاتلين وقطع أيدي اللصوص وأرجلهم أو جلد أهل الحدود الشرعيّة، وما شاكل ذلك من إبادة المفسدين بضعفهم. وكذلك تفريق الأرزاق والنفقات في حاشيّة الملك وجنوده ورعيته: إن الملك يجلّ عن مباشرة ذلك وما أشبهه بنفسه فيجعل ذلك على أيدي الوزراء والرتبة والخدم وسائر الوسائط، كلّ[٤] فيما يليق به ويحسنه. وقد أهّل[٥] الله كل صناعته لصناعتهم. فإذا

---

(١) في النص (ينشيه).
(٢) في النص (ييليها).
(٣) في النص(بزر).
(٤) في النص (كلن).
(٥) في النص (وهّل).

كان ملوك بني آدم وملكهم مُلكا دنيويا منقطعا[1] لا دوام له وعلى أنهم لو باشروا من يثيبونه أو من يعاقبونه[2] لما ضرّهم ذلك شيئا. فصانوا أنفسهم وتكبّروا عن مباشرة العالم، فأحرى وأجدر ملك الملوك جلّ جلاله الذي له المثل الأعلى، وهو أجل وأعلى من أن يمثل به مثل أن ذاته تقدست وتشرفت وتكبرت عن أن تباشر أحدا[3] من الخلائق برزق أو بسواه من سائر الأشياء. فأوجبت حكمته تعالى أن يجعل ذلك على أيدي وسائط قد استخصهم وجعلهم سكان طوابق السماء[4] ليسبحوا بحمده أبد الآبدين، ويعبدوه حق عبادته، ويوصلوا ما أفادهم من العطايا والأرزاق والسعادات إلى خلقه بغير خيانة ولا مخالفة لبارئهم سبحانه. فالشكر والعبادة واجبة له تعالى لا لهم. إذ هو خالــق الجميع، ورازقهم ومعطيهم النعم والخيـــرات التي لا يحصونها. فإذا صح ذلك فنعمة الكافر في الدنيا وشقاء المؤمن لمعانٍ[5] ظريفة وأسرار شريفة لا يعلمها إلا الله جل وعز، ومن أنعم عليه بمعرفتها من أنبيائه وأوليائه وأتقيائه ومن ورث علمهم من العلماء المتقين الراسخين[6] في العلم.

وعلى أن جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في ذلك مستحسنة، ولولا الخوف على سر استودعناه في ذلك مِنْ مَنْ هو أعلم منا لكشفنا طرفة من ذلك. اطلبه يا أخي من أهله تصبه إن شاء الله. وكذلك في الجبر والقدر فإن الإنسان مجبور على خلقه والرزق والأجل في دار الدنيا. وقد جف القلم بذلك.

فإنما الطاعة للبارئ تبارك وتعالى والمعصية. فالاختيار مع حسن التوفيق من الله جل وعز لمن اختار فعل الخير وفقه الله وسببه له وأعانه عليه كقول

---

(١) في النص (ملك دنيايي منقطع).

(٢) في النص (من يثبتوه أو من يعاقبوه).

(٣) في النص (أحد).

(٤) في النص (سكا أطابق السما).

(٥) في النص (لمعاني).

(٦) في النص (الراسخون).

الكتاب (التثنية ٣٠: ١٥) "انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير". وقال (التثنية ٣٠: ١٩) "فاختر الحياة"؛ لأنه سبحانه حاشا أن يقرع العبد بابه فيغلق في وجهه، ويحجب رحمته عنه. وكذلك من يختر[١] فعل الشر والمعاصي، ويؤثر معصية الله على طاعته فإنه سبحانه يحمله ويتركه؛ لأنه سبحانه أجل وأعلى وأشرف من أن يهجر العبد بابه ويهرب منه ويؤثر معصيته على طاعته فيجبره عليها. تعالى الله علوا كبيرا. وأن الإنسان مجبور على خلقه والرزق والأجل في دار الدنيا وما ينال إلاّ ما قدّره الله سبحانه له. وقد جف القلم بذلك، كقوله (الجامعة ١: ٩) "ما كان فهو يكون والذي صنع فهو الذي يصنع فليس تحت الشمس جديد". فكل ما يبشر به المنجمون[٢] ويحذرون منه[٣] فإنه عن قدر البارئ سبحانه كائن. لا يقدرون أن يجعلوا كونه قبل أوانه بلحظة، ولا أن يؤخروه عن الوقت الذي هو كائن فيه بلحظة. كل ذلك بحكمة البارئ في بريته سارٍ[٤] بالعدل الذي لا جور فيه كقوله (التثنية ٣٢: ٤) "الصخر الكامل صنيعه إن جميع سبله عدل". وقال (المزامير ٧٥: ٨) "لأن الرب هو القاضي هذا يضعه وهذا يرفعه". يميت ويحيي، ويمرض ويشفي، ويغني ويفقر، كما شاء وكيف شاء كقوله (التثنية ٣٢: ٣٩) "أنا أميت وأحيي سحقت وأني أشفي"، وقال (صموئيل الثاني ٦: ٧-٨) "مميت ومحي". وقال: ***الرب يورث ويُغني يرفع الفقير من التراب***. وقد يمرض المريض ويشرف على الهلاك ييأس[٥] منه الحاضرون[٦] فيقدر الله المعاش فيعيش، ويموت[٧] العواد. وكذلك قد

(١) في النص (يختار).
(٢) في النص (المنجمين).
(٣) في النص (يحذرو عنه).
(٤) في النص (ساري).
(٥) في النص (يوييسو).
(٦) في النص (الحاضرين).
(٧) في النص (فيقدر الله المعيش فيعيش ويموتو).

يصطاد الصيد ويصير في قفص فيقدر الله النجاة ويموت الصياد، وقال شاعر العرب:

قــد يعيــش العليل من بعد يأسٍ وعنىً ويهلك العوادُ

ويصطاد القطُ فينجو سليما بعد الهلك ويهلك الصيــادُ.

وقد يبلغ الإنسان إلى حياض الموت وسم الأخياط فينجو بقدرة الله سبحانه كقوله (المزامير ٤٠: ٢) "وأصعدني من جب الهلاك من طين الحمأة وأقام على صخرة قدمي". وكثير من ذلك. وقال شاعر العرب:

ولربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرجه.

وقد يكسب الإنسان شيئا فيصير لغيره كقوله (أيوب ٢٢: ١٣) "يعد والبار يلبسه"، حتى أن الصياد لربما اصطاد صيدا وأخذه غيره كقول شاعر العرب:

لطفا من الله يرزق ذا بحيلته هذا يصيد وهذا يأكل السمكا.

وكذلك في الخلْقة يخلق هذا أعمى وهذا موهنًا، وهذا صحيحًا، وهذا غير صحيح. والأعمار، يعيش هذا عمرًا طويلاً، وهذا عمرًا قصيرًا، وآخر مقنوطًا (مقنوعًا) مترفًا منعمًا عليه في طيب عيش وأهنأ حياة، وأحسن ما يكون من الشبيبة يختطفه الموت. فالكل يا أخي بالعدل من البارئ تبارك وتعالى. فمن زعم من المنجمين أن ذلك من أفعال الكواكب والأفلاك فهي يا أخي مقهورة مجبورة تحت أمر خالقها تبارك وتعالى لا تعصي أمره. ولا تفعل إلا ما ركبه فيها. فأفعالها منه سبحانه صادرة لا منها. وقد قال الشاعر في ذلك:

إن كنت تزعم أن النجــو م تضر وتنفع ما تحتها

فــلا تنكرن على من يقو ل إنك بالله أشركتها[١]

---

(١) اقتبس المؤلف هذين البيتين من قول الشاعر (منصور بن إسماعيل الفقيه) (ت/ ٣٠٦هـ) وهو=

فجميع، يا أخي، ما تراه مما العالم فيه من حياة أو موت وفقر وغنى وصحة وسقم فإن ذلك أجمعه تقدير البارئ سبحانه في بريته جارٍ[١] بعدل لا جور فيه. وذلك لأسرار شريفة ومعانٍ[٢] لا يعلمها إلا هو ومن أنعم عليه بعلمها من أنبيائه وأوليائه ومن تورث علمهم. وفقنا الله وإياك إلى الخيرات وأرفع الدرجات في الدارين جميعًا[٣] برحمته. فسبحان من ييسر لعباده الطريق إلى الآخرة التي هي أشـرف المنازل، وأعلى الرتب، والرزق الباقي، والعطية الدائمة التي لا تسترد ولا تضمحل ولا تبيد ولا تنتقل من حالة إلى حالة، كالدنيا التي قدر الله لهم فيها أرزاقهم وأجلهم. فلو كانت باقية دائمة لدامت أرزاقهم وعطاياهم. فسبحان خالق الكل ورازقهم ومميتهم ومحييهم أتوكل عليه وأفوض أمري إليه إنه غفور رحيم. وكذلك يا أخي الاعتبار بجميع مخلوقاته والتفكر في دقيقها[٤] وجليلها وصغيرها وكبيرها، فإن حكمته سبحانه زاهرة قبالة الناظرين إليها غير خافية منهم، ولا منسترة عنهم. فهي من المعادن وتكونها جواهر مختلفة من يواقيت ملونة إلى ذهب وفضة وحديد ونحاس ورصاص، من الزئبق إلى الأسرب، ومن النَّفط إلى القار والملح والخشب إلى ما سوى ذلك. ما لا يحتوي علمه إلا هو سبحانه. وكذلك حكمته في النبات واختلاف فنونه وأشكاله، وأوراقه وأثماره، وألوانه ورياحه، ومنافعه المختلفة، ومضادها إلى السم وإلى الترياق من الأرز الكبير إلى الحشيش

=شاعر وفقيه شافعي من رأس العين بالجزيرة العربية، توفي بمصر، والبيتان من بحر المتقارب. انظر: المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب). *www.cultural.org.ae*

وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

إن كنت تزعم أن النجوم ... تضر وتنفع ما تحته

فلا تعتبر على من قال ... أنك بالله أشركتها.

(١) في النص (جارى).

(٢) في النص (معانى).

(٣) في النص (جميع).

(٤) في النص (دقيقا).

الصغير، الملازق لوجه الأرض، ما لا يحصـــى معــرفته وعدده، وكثرة أنواعه إلا هو جل وعز. وكذلك حكمته جل في الحيوانات واختلاف تركيب أعضائها وبنيتها وآلتها وطبائعها وأغذيتها ومنافعها وأنواعها الترابية والمائية الهوائية والنارية على اختلاف أشكالها وأدويتها جنسا جنسا ونــوعا نــوعا ما لا يحصيها ولا يحيط بها إلا خالقها ومنشئها تقدست أسماؤه[١].

وكذلك ظهور حكمته الباهرة في بني آدم على اختلاف أشكالهم وبنيتهم وطبائعهم وتركيبهم وألوانهم وآرائهم في مشارق[٢] الأرض ومغاربها ما لا يحصى عدده وكثره، ولا يحيط بذلك جميعا إلا خالق الخلائق وبارئها ومنشئها ومدبرها ورازقها وكافلها. تبارك وتعالى علوا كبيرا.

وكذلك يا أخي إذا تفكرت جلالة قدر الإنسان، وما أعطاه الله تعالى من العقل والحكمة، والفطنة والمعرفة، وجودة الرأي، وسائر الفضائل التي اختصه الله بها على سائر الحيوان، وجعله مأمورا منهيا مثابا معاقبا قاهرا للشهوة المركبة فيه الغالبة للبهائم ما لم يكن[٣] ذلك في البهائم، صار يتجمل بالورع، ويتظاهر بالعفة وينظر في العلوم الدينية[٤] في عبادة بارئه سبحانه حق عبادته. ويوحده حق توحيده وينزهه حق نزاهته، ويسلك في أوامره ونواهيه كما يجب، ويقيم الحدود الناموسية فيستحق بذلك الثواب الجسيم، والنعيم المقيم ما ليس كذلك في البهائم. وما منحه الله من التعلم لسائر العلوم وطوالع النجوم وأفوالها وأحكامها وحوادثها قادم الدهر، حتى أنه قدر صورة الفلك ومقدره في مقدار صغير، وساج لنفسه مرآة قريبة فيها البروج بهيئتها والنجوم على تصاويرها من الجارية والثابتة مقسومة على مجاريها. فيعرف بها حقائق الدقائق والسعادات والأزمان وطوالع النجوم كأنها في النفس،

---

(١) في النص (أسمايه).
(٢) في النص (أراهم في مشارقة)
(٣) في النص (لم يكون).
(٤) في النص (الدنييات).

ومعرفته بالمواليد واستخراجها والحكومات والحوادث[١] قبل كونها، والخسوفات وزوال الدول واختلاف الممالك وحدوث الحروب والفتن والجوع والشبع وسائر أحكام النجوم على اختلاف فنونها على مرور الزمان والدهر ما لم يكن[٢] كذلك في البهائم. وكذلك ما آتاه الله من المعرفة بأمور الطب وإصلاح الأدوية وتركيبها من العقاقير المختلفة المعدنية والنباتية والحيوانية على اختلاف فنونها ومنافعها ليشفي بها الأجسام، ويزيل بها الأمراض، وينفي بها فضول الأكل عن الأبدان من الناس والحيوان. وما يفعله من القطع للأعضاء وضماد[٣] الجراحات وتركيب المُرّات المختلفات وقدح العيون وكحلها بالكحال المختلفة وغير ذلك مما يفعله الطبيون والجراحون[٤] ما لم يكن في البهائم. وكذلك ما آتاه البارئ من الحكمة والهندسة في بناء القصور من الصخر المنحوت، واللبن المضروب، والنقش بالنقوش المختلفة في الهياكل بأنواع الأدهان المختلفين الألوان والمذاهب، وتشكيل الصور والأشكال وغرس البساتين من جميع الأنواع، وتركيب نوعين ليظهر منهما سواهما من النبات والحيوان، وإجراء الماء في القنوات والنواعير والشاذروانات والدواليب المختلفة، وتركيب الطواحن والحمامات وسواها، وبناة السفن المحكمات بالآلات المتقنة على أتقن نظام، ويقطع بها لجاج البحار ليصل بها مقصودة بتوفيق خالقه وبارئه وهاديه بالكواكب المنيرة، ومسيره بالرياح المعتدلة وصلوح البحار عن الهيجان فيوصل إلى كل بلاد بضائع وتحفًا ليست فيها. وكذلك يجلب منها إلى سواها، ويغوص بالبحار ليستخرج منها الدرر الفاخرة، والمرجان وغير ذلك. ويركب الشباك والمصائد ليصيد السماك صغارًا وكبارًا[٥] ليستنفع بذلك ويتغذى منه على اختلاف فنونه وأنواعه. وكذلك ما ينفعه من استخراج الزئبق والذهب

---

(١) في النص (الحيادث).

(٢) في النص (لم يكون).

(٣) فى النص (وبطال)

(٤) في النص (الطبايون والإجراحيون).

(٥) في النص (صغار وكبار).

والفضة والنحاس والحديد والرصاص من المعدن واليواقيت والجواهر على اختلاف أنواعها. وسبك[١] الزجاج من الرمل وصبغه ألوانا وصورا مختلفة، ونصب الفخاخ ليصيد السباع والحيوانات والطيور من الهواء، وعصر الأشجار لاستخراج الأدهان وسواها وما رزقه الله عز وجل من المعرفة لاستخراج الخطوط وقراءة[٢] الكتب ونظم الأشعار والآداب والتفاسير، وإنشاء المكاتبات والبلاغات وحفظ التواريخ للسنين للأنساب والدول والقرانات. كما البهائم عن معزل من هذه الخصال الشريفة بأجمعها، غير ما لم نذكره من فضائل الإنسان الذي خصه الله عز وجل بها على سائر المخلوقات[٣] وعرضه للكلف ليكثره بذلك أجرًا[٤] ولينفعه دنيا وآخرة. وكذلك في الأمهات الأربع التي هي التراب والماء والهواء والنار، وما بذر سبحانه فيها بحكمته الباهرة من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، واستحالت أطراف بعضها إلى بعض، حتى تكون منها ما قدره سبحانه بحكمته الباهرة الإلهيّة التي يعجز[٥] الخلق عن وصفها وعن إدراك كنهها[٦]. وكذلك إذا تفكرت يا أخي في جلالة ترتيب الفلك وتركيبه وما فيه من الكواكب السيارة والثابتة والمنقلبة واللبانيّة والسعود والنحوس والقطبين الجنوبي والشمالي والعقدتين اللتين[٧] هما الرأس والذنب. وما في ذلك من حكمة البارئ سبحانه وعظم. وقد أمرنا سبحانه بالنظر إليها والتفكّر في خِلقَتها وعجيب إتقانها لتزداد عظمته في قلوبنا وهيبته في نفوسنا كقوله (إشعيا ٤٠: ٢٧) "ارفعوا إلى العلا عينكم وانظروا". وقال أيضا (إشعيا ٥١: ٦) "ارفعوا إلى السماء عينكم". وقال (المزامير ١٩: ١) "السماء تحدث

---

(١) في النص (يبك).
(٢) في النص (قرات).
(٣) في النص (المخلوقون).
(٤) في النص (أجر).
(٥) في النص (يعجزون).
(٦) في النص (كنتيا).
(٧) في النص (الذين).

بمجد الرب.... يوم إلى يوم يذيع كلاما"، وقال: (المزامير ١٩: ٤) "جعل للشمس مسكنا فيها وهو مثل العريس الخارج من حجلته". فلنذكر من ذلك طرفا واحدا ليكون تذكارة لجلالة صنعة الصانع الحكيم جل جلاله.

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن أصل جميع الفلك وبنيته سبعة كواكب واثنى عشر برجا. السبعة كواكب: زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر حسب. والاثنا عشر برجا: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والدلو والحوت حسب. وأنها بأجمعها جنود الله سبحانه وسكان سماواته وملائكته المقربون[1]، الواسطة بينه وبين خلقه، الموكلون[2] بخلائقه أجمعين، الموصلون[3] البركات والخيرات والسعادات إلى من قدّر سبحانه من البرية. وكذلك يوصلون العذاب والبؤس والشقاء والنقمة إلى من قدّر الله سبحانه له ذلك بالاستحقاق. وقد نطقت الأنبياء بذلك إذ قالت (التثنية ٤: ١٩) "التي قسمها الرب إلهك". وبنزول البركات من السماء روحانياتها وتأثيراتها قال (التثنية ٢٨:١٢) "يفتح لك الرب كنزه الصالح". وقال (هوشع ٢: ٢٣) "ويكون في ذلك اليوم يقول الرب إني أستجيب للسموات". وكثير مثل ذلك يكنى به عن ورود الخيرات إلى البرايا من السماء، وكذلك ورود المصائب من السماء على مستحقيها حتى محاربة سيسرا نسبها إلى روحانيات الكواكب لقوله (القضاة ٥: ٢٠) "من السموات حاربت الكواكب من حبكها حاربت سيسرا". وكذلك عبادتها لخالقها وتسبيحها له دائما، فمن قوله: (المزامير ١٤٨: ١) "سبّحوا الرب من السموات". وقال أيضا (نحميا ٩: ٦) "وجنود السماء يسجدون لك".

---

(١) في النص (المقربين).

(٢) في النص (الموكلين)

(٣) في النص (الموصلين)

وقال (المزامير ١٠٣: ٢١) "باركوا الرب يا جميع جنوده". وقد صح أن الخلائق جميعها من ثمار ونبات وحيوان صامت وناطق يسبحون بحمده كقوله (المزامير ١٤٥: ١٠) "يحمدك يا رب كل أعمالك"، وكذلك قوله في مزمور ***سبحوا الرب من السموات*** من أوله إلى آخره. فإذا ذلك في عالم الطبيعة عالم الكون والفساد فأحرى وأجدر هذه الأفلاك والكواكب التي هي في العالم الفوقاني الغيبي[١] الخفيف الجرماني، وهو أعلى وأشرف من هذا العالم، فهم سكان سماواته يسبحون له دائما لا يفترقون من عبادته طرفة عين فما أقل من ذلك، ولا يعصون أمره، ولا يتحركون إلا في طاعته، ولا يتعدون مما رسمه وأهلهم له وبذرهم فيه وطَبَعهم عليه بالجبر، وكما صنع جل وعز في عالم الطبيعة خلفاء وأنبياء وأوصياء وأولياء وأتقياء، فأحرى وأجدر في ذلك العالم إذ هو أقرب نسبة إلى عالم الإبداع وأسبق بالكون على هذا العالم. فقد صح أنهم جنود الله سبحانه وسكان طوابق سماواته وخلفاء[٢] عالمه، وموكلوه[٣] على أتقيائه برأيه[٤] طول الزمان، في الليل والنهار للإضاءة، وسلطهم وولاّهم بإيصال الخيرات إليهم. وقد نطق الكتاب بذلك إذ قال (التكوين ١: ١٤) "وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء". وقال ***وتصير علامات وأعياد وأيام وسنوات***. وقال: (المزامير ١٣٦: ٨-٩) "الشمس لحكم النهار... والقمر والكواكب لحكم الليل". وقال: (التكوين ١: ١٦) "النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم". وقالوا: ***لحكم النهار*** حتم قاطع. وقالوا في إصلاحهم للغلات والفواكه (التثنية ٣٣: ١٤) "ونفائس مغلات الشمس ونفائس منبتات الأقمار". وكذلك مما أفادهم خالقهم سبحانه مما ينبت منها في العالم، وخاصة الشمس

---

(١) في النص (الغبي).
(٢) في النص (وسكا أطابق سماواته وخلفايه).
(٣) في النص (موكليه).
(٤) في النص (برإياه).

وحرارتها التي هي سبب حياة العالم بأسره من معادن إلى نبات وحيوان، وكمنت منها النار في الحجر والشجر والتراب والماء، ونضجت الأثمار، وأزهرت الأشجار، وتفجرت وسالت الأمطار، وجرت الأنهار بتقدير العزيز الجبار الذي بذره فيها، وأفادها وجعلها في وسط الفلك كالقلب في الجسد الذي يفيده الحركة والحياة. كذلك هي تفيد من فوقها من الكواكب، ومن دونها النور الباهر مما أفادها خالقها ومنشؤها[١] جل جلاله. وكذلك كل ما في الأرض قَبِلَ من فيضها كل جنس بحسب ما في قوته من المعادن والنبات والحيوان. فهذا بعض أفعالها الظاهرة للحس. وأما أفعالها المدركة بالقوة النظرية فأكثر من أن يسعها الكتاب، وعلى أنها لا تتعدى[٢] ما فوضه إليها بارئها سبحانه وتعالى، ولا تقدر أن تعطي من لا يقّدر له عطية من قبلها؛ لأنها عبد من عباده، وخليفة من خلائفه في عالمه. ومما جاءت به الأنبياء عليهم السلام في وصفها أنهم شبهوا الثواب والعقاب اللذين جهل العالم[٣] معرفتهما فوصفوها بأوصافها. فأما الثواب فلوّحوا به، وقالوا (ملاخي٤: ٢) "ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها". وقالوا (دانيال ١٢: ٣) "والفاهمون يضيئون كضياء الجلد، والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور". وأما العقاب فلوّحوا أيضا به عن شعاعتها والساوس الحادث منها كقوله (ملاخي ٣: ١٩) "فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل فاعلي الشر يكونون قشا ولهبا". وقال: (التثنية ٣٢: ٢٤) "خاوون من جوع، ومنهوكون من حمى". وكذلك باقي الكواكب لها روحانيات ولطائف تسري في العالم بإذن خالقها ومدبرها سبحانه تُوَصل ما أُمرت إلى من شاء من خلقه في أوقات معلومة ومواليد

---

(١) في النص (منشيها).

(٢) في النص (لا تعدى).

(٣) في النص (الذين جهلو العالم).

موقوتة[١] لا يَقدِرُها ســواه جــل ثناؤه[٢]. فهي بأجمعها لا تَقْدر أن تخالف أمره ولا نهيه، وفيما قد قدّره له، ومكنه منها وسلطها عليه. مثال ذلك أن القمر لا يقْدر على حرارة الشمس وطبعها وفعلها. وكذلك الشمس لا تقدر على برودة القمر وطبعها وفعلها. وباقي الكواكب كذلك، حتى أن الخالق سبحانه قدر لكل واحد منها مسيرا غير مسير الآخر من وقت خَلْقهم إلى أن ينقضي العالم. وذلك أنه سبحانه جعل مسير القمر وهو أقربها إلى الأرض يقطع الفلك جميعه في شهر، والزحل وهو أعلاها يقطع الفلك في ثلاثين سنة. والشمس وهو أوسطها يقطع الفلك في سنة. وباقي مشي الكواكب مختلف المقــدار لمـــا قـــدّره الله سبحانـــه وإرادته. ولا يشاركه أحد في عالمه. ولا يسأل عما يفعل سبحانه كقوله (الجامعة ٨: ٤) "ومن يقول له ماذا تصنع؟". بل قد شهد لنا على حكمته ونفاذ قدرته واتصلت لنا الخيرات الكلية من إحسانه. وعرفنا من ذلك المسير الشهور والسنين والقرانات حيثما بلغ علمنا وانتهى إليه فهمنا والذي غاب[٣] أضعاف ذلك أطوارا. فسبحان من هذه الخِلقة خلقته، وهذه القدرة قدرته، والكل عاجز عن كنه معرفته كما قال بعض العلماء: سبحانه إذا همّ الوهم بالعروج إلى معراج كبريائه[٤] ضرب صادق العجز من دونه وورائه. فالكل من ذكره مَسّون[٥]، ومن فيض نوره قابسون[٦].

وكذلك يا أخي اغتر من اغتر من الأمم السالفة بأفعال الكواكب وتأثيرها فعبــدوها وبخِروا لها. ولم يعلموا أنها لا تساعدهم على مرادهم ولا توصل إليهم إلا ما قدّره لهم على أيديهم، وقد نهانا الله سبحانه عن جميع ذلك في مواضع كثيرة

---

(١) في النص (موقتة).
(٢) في النص (ثناه).
(٣) في النص (غبا).
(٤) في النص (كبرياه).
(٥) في النص (مسّين).
(٦) في النص (قابسين).

نترك شرحها لشهرتها. حتى أيضا أن من طغى من آبائنا في الدهور السالفة عملوا صورة زحل وعبدوه، وكانوا يحملون[1] معهم تمثاله ذلك لما علموا أنه موكل بتدبيرهم، إذ لكل أمة مدبر وكله البارئ سبحانه بها كما أكنه الأنبياء عن ذلك في قولهم *رئيس مملكة اليونان، ورئيس مملكة فارس*. وقال (دانيال ١٢: ١) "الرئيس العظيم القائم لبني شعبك" فكنت عنها.

فالملائكة التي هي أرواحهم المحركة لها السائرة بها حيث ما أمرها خالقها سبحـــانه. فكـــانوا يحملـــون معهم تماثيل ذلك كما وبّخهم النبي. وقال: (عاموس ٥: ٢٦) "بل حملتم تمثال أصنامكم نجم إلهكم" واسم زحل باليونانية "كيوان".

فما أعجب يا أخي مسيرها الذي سيّرها الخالق سبحانه من المغرب إلى المشرق، وفلك البروج قهرها من المشرق إلى المغرب، وبيان ذلك إذا كانت الشمس أو القمر في آخر برج الحمل إلى الثور. والحمل هو الغارب فهي سائرة بالعين. والحس من البرج الغارب إلى البرج الذي لم يَعْدُ[2] يغرب. فصح أن مسيرها من المغرب إلى المشرق ومسير الكواكب بضد ذلك من المشرق إلى المغرب، فشبيه بطاحونة تدور على اليمين ونملة فوقها تدور على الشمال، فتلك في مسيرها ثابتة، وتلك في مسيرها ثابتة. فسبحان مُدبّرها ومُسيّرها خالق الشيء وضده للدلالة على وحدانيته، وعلى أن ليس له ند ولا ضد. فصح أنها لا تجلب لأحد منفعة باختيارها، ولا ترفع عنه ضررا إلا بإذن خالقها وتقديره وطاعتها له، وانقيادها لأمره، وتقديسها له، وتسبيحها له، متوجهة بأجماعها إليه، ساجدة راكعة بإجلاله.

---

(١) في النص (يحملو).

(٢) في النص (لم عاد).

وقد شرح كثيرا مما في العالم. سبعة واثنا عشر بإزائها، فمن ذلك في الإنسان وهو عالم صغير سبع حواس واثنا عشر نقبا على ما بيّنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب. وكذلك في الزمان سبعة أيام، واثنتا عشرة ساعة في النهار، واثنتا عشرة ساعة في الليل، واثنا عشر شهرا للسنة. وكذلك بعددها كلها ***الصلاة***[1] ثماني عشرة مع الأولى[2] فإن هي الأم. وكذلك التوراة سبع كلمات أولها وآخرها اثنتا عشرة وهم ***في البدء وللكل اليد القوية***. وكذلك إخراجها وإعادتها هو ***التابوت***[3] بقراءة فصلين سابع واثني عشر. وهما: ***وحدث عند ارتحال هارون، وبعودته يقول فلتعد***. وكذلك أول ***الأنشودة***[4] التي افتتح بها السيد المنير موسى كليم الله عليه السلام، سبعة واثني عشر ***أنصتوا، سيدمّر***. وكذلك أول ***وهذه البركة، والتوراة أمر بها***. وكذلك نظم حجارة الجوهر الذي في صدر ***الكاهن الأعظم*** اثنى عشر حجرا من اثنى عشر لونا، منقوش فيها أسماء اثنى عشر سبطا. والثياب التي يلبسها التي أمر الله بعملها له كقوله (الخروج ٢٨: ٤) "وهذه هي الثياب التي يصنعونها صدرة ورداء وجبة وقميص محزم، عمامة ومنطقة ". وكذلك عدد أيام ***الأعياد***[5] تسعة عشر وهي: **السبت ورأس السنة وعيد الغفران، وثمانية أيام العيد *وسبعة أيام الفصح ويوم الباكورة***. وكذلك ***إبراهيم وإسحاق ويعقوب*** في التوراة بعددها في فواسيق[6] معروفة. وكذلك في الصلاة تسعة عشر اسما للصلاة: ***تضرع، ابتهال، خطاب، تقدم، طلب، سؤال، مناجاة، استعطاف، دعاء، حديث، انتصاب، استصراخ،***

---

(١) في النص (التفلا) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.

(٢) الأولى: وردت في النص (الأوله).

(٣) في النص (الأرون) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.

(٤) في النص (الشيرا) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.

(٥) في النص (الموعاديم) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية.

(٦) في النص (فواسيق) لفظة عبرية بمعنى فقرات من العهد القديم.

استغاثة، قول، ركوع، سجود، خلاص، اعتراف، تبتل[1]. فذلك بعددها. وقد قال الكتاب (التثنية ٣٢: ٨) "نصب تخوما لشعوب حسب عدد بني إسرائيل" يعني اثنى عشر سبطا *وأربع أمهات وثلاثة آباء*. وقد ذكر عن اسم حواء التي هي أم كل حي. ومنها جميع البشر محتوى في العدد على تسعة عشر، ثمانية، ستة، خمسة، فذلك تسعة عشر[2]. فأتقن البارئ سبحانه جميع الأشياء بعددها. فهو أحق أن يعبد من دونها، إذ هو سبحانه مالك الكل، وقاهر الكل، وخالق الكل، ورازق الكل، ومدبر الكل، والكل له شاهد بذلك. كما ناجاه بعض الصالحين وقال: *الكل لك، والكل من لدنك، والكل تحت سلطانك، والكل ملكك، والكــل صنع يديك، والكل شهودك*. لا إله إلا هو أعبده وأشكره وأتوكل عليه وأفوض أمري إليه إنه جواد رحوم. ونذكر من فضيلة الموت ما أمكن ليكون تذكارا لنا إذ هو الباب إلى دار الثواب.

اعلم يا أخي -أيدك الله وإيانا بروح منه- أن الموت هو مفارقة النفس من الجسد وتركها استعمال الجوارح والحواس. اعلم يا أخي أن الموت موتان: موت طبيعي جسماني وهو المقضي على البشر جميعا[3] من صالح وطالح وعامي وخاصي ونبي ووصي كقوله (الجامعة ٩: ٢) "الكل على ما للكل حادثة واحدة للصديق وللشرير وللصالح وللطاهر وللنجس وللذابح وللذي لا يذبح كالصالح الخاطئ الحالف كالذي يخاف الحلف". والموت الثاني موت نفساني وهو الجهل بالله

---

(١) أسماء مختلفة لكلمة واحدة وهي الصلاة.

(٢) اسم חוה يحتوي على العدد تسعة عشر منها:

ח = ٨

ו = ٦

ה = ٥. فالمجموع (١٩).

(٣) في النص (جميع).

وبشريعته وبأهله، نعوذ بالله، فَهُم الموتى بالحقيقة وإن كانت أجسامهم متحركة حساسة، فأنفسهم مظلمة كدرة ميتة بالجهالة المتراكمة. وقد نطق الكتاب بذلك كقول الحكماء (مبحث البركات ١٨: ٢) "الأشرار موتى بحياتهم"، قيل (حزقيال ٣٣: ١١) "حي أنا يقول السيد الرب إني لا أسر بموت الشرير"، ومكتوب (المزامير ١١٥: ١٧) "ليس الأموات يسبحون الرب"، إلى المكتوب ***يتحدث عن الأشرار أنهم يدعون أمواتا في حياتهم وهم يعدون البهائم*** حيث قيل (المزامير ٤٩: ١٢) "والإنسان في كرامة لا يبيت يشبه البهائم التي تباد". وقال شاعر العرب في ذلك:

في الجهل قبل الموت موت لأهله   فأجســامهم قبــل القبور قبور

وإنّ امرأ لم يحي بالعلــم ميتٌ   وليس له حتّى النشور نشور[1]

وهكذا الأبرار حتى في موتهم يدعون أحياء. فقد قيل (صموئيل الأول ٢٥: ٢٩) "لتكن في نفس سيدي محزومة في حزمة الحياة" يعني دار الآخرة التي هي دار الحياة الدائمة كقوله (زكريا ٣: ٧) "وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين". وقال (المزامير ١٠١: ٦) "السالك طريقا كاملا هو يخدمني"، وقال (المزامير ١٥: ١- ٢) "من ينزل في مسكنك السالك بالكمال والعامل الحق". وقال (المزامير ٤٢: ٣) "من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه". وموت الصالح له كالعُرس.

---

(١) البيتان نظمهما الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في البحر الطويل. انظر: المجمع الثقافي بأبي ظبي – الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)

-www.cultural.org.ae- وورد هذان البيتان في النص على النحو التالي:

وفي الجهل بقل الموت موتٌ لأهله

فأجسامهم قبل القبور قبورن

وإن إمر لا يحيي بالعلم ميت

فليس له قبل النشور نشورن.

ومن فضيلة الموت يا أخي أنه منزلة من منازل الآخرة، وأنه سبب النقلة من دار إلى دار، من دار الأشرار إلى دار الأخيار، ومن دار الفناء إلى دار البقاء. فلولاه[١] ما كان للأنبياء والأوصياء والعباد والصالحين طريق[٢] إلى الجنة دار الثواب. ولا للكافرين والطالحين طريق إلى جهنم دار العقاب. ولولاه لما اتسعت الأرض بسكانها وأهلها، ولتراكم الناس على بعضهم بعضا[٣]، وما كان يعرف أهل الأجيال المتقدمة من الصالحين الماضين[٤] ولا يُقتدى بسيرهم، ولكَفَر[٥] الناس بخالقهم وادّعوا الربوبية. فقد صح أن الموت حكمة إلهية[٦] ساوى الخالق سبحانه بين جميع الخلائق صغيرهم وكبيرهم، ونبّيهم ووصيّهم، وكافرهم ومطيعهم. فإذا قيل: ما السبب في ذلك؟ وأين فضيلة العالم على الجاهل في ذلك، والفاضل على المفضول؟ فالكل بيّن. ونحن نبيّن من ذلك طرفة ونضرب فيه مثلا ظاهرا[٧] وعلى أن عاد لذلك أسرار شريفة ومعانٍ[٨] لطيفة ظريفة لا يحتمل الكتاب إيضاحها فيه.

ونقول: إن المثل في ذلك أن ملكا[٩] عمل ضيافة لقوم من أهل بعض الأقاليم فيهم عال ودان[١٠] ورفيع ووضيع، فلما وصلوا إلى مدينته دخل الجميع منهم من باب المدينة، فعند دخولهم من باب واحد مضى رسل الملك بكل واحد منهم إلى منزلة قد أُهّلت له. من استحق أن يكون منهم بقرب الملك كان بقربه. ومن استحق

---

(١) في النص (فلولا).
(٢) في النص (طريقًا).
(٣) في النص (بعض).
(٤) في النص (الماضيون).
(٥) في النص (ولإذن لكفرو).
(٦) في النص (إلاهوتية).
(٧) في النص (مثل ظاهر).
(٨) في النص (معاني).
(٩) في النص (ملك).
(١٠) في النص (عالي وداني).

أن يكون بعيدا منه كان بالأبعد. ومن جانس الأمراء كان منهم على اختلاف حاشية الملك. وكذلك السقط منهم كالمشاعلين وساسة الدواب وأهل كل طبقة إلى طبقتها اللائقة بها. فكل واحد من الضيوف[1] قد لحق بطبقته وأبناء جنسه. فهكذا يا أخي مثال أهل الدنيا إذا حل الموت بساحتهم وانتقلوا منها، لحق كل واحد منهم بأبناء جنسه وأهل طبقته، الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار. وقد نطقت بذلك الكتب بقوله (صموئيل الأول ١٩:٢٥) "لتكن نفس الرب محزومة بحزمة الحياة" "يعني الأحياء الذين هم بجوار ربهم ولا يموتون[2]. وقال: ***وتلقى نفس أعدائكم داخل مقلاع*** أي مع الطالحين الذين هم في الحياة معذبين لا يقدرون الصعود إلى أولئك فيكونوا من جملتهم، ولا يطيقون العودة إلى دار الدنيا فيعملوا صلاحا. وقد أُمرت الأنبياء ببغضهم وبحب أولئك. فأما ببغض هؤلاء كقوله (المزامير ١٣٩: ٢١) "أليس كارهوك يا رب أكرههم". وقال ***الحكماء*** (مبحث الآباء ٤٩/ ٢) "واحسرتاه على من يتدفأ أمام نور الحكماء، واحسرتاه على من احترس من جمرتهم لئلا يحرق فلدغتهم كلدغة الثعبان وهمسهم كفحيح الأفعى السامة ولسعتهم كلسعة العقرب وجميع أقوالهم كلهيب النيران". ووجه الحكماء إلى أن قالوا (مبحث بابا باترا ٨ / ١) "لا خير في العالم إلا في مسلكهم ولا يحدث سوء إلا في طريقهم". فهلم بنا يا أخي إلى الخير وأهله والصالحين وأحباب الله تعالى لنقتدي بسيرتهم، ونسلك بطرقاتهم، ونكون من جملتهم ونحشر في زمرتهم. بلغنا الله وإياك أفضل الدرجات، وأنالنا وإياك أوفر السعادات بمنّه وكرمه ولطفه.

وقد كان تقدم لنا في باب الزهد بعض حكايات من الأخلاق الحسنة، وأصحاب التواضع لله سبحانه. ونزيد فنذكر[3] حكايتين لبعض الفضلاء. فإحداهما أنه ذكر أن رجلا سائحا[4] على ساحل البحر، وإذ بقوم غواصين قد خرجوا بشيء

---

(١) في النص (الضيفان).

(٢) في النص (يموتو).

(٣) في النص (نزيد فنذكر).

(٤) في النص (رجل سائح).

من اللؤلؤ، لأولاد تحت يديه، فألحّ عليهم ولو بشيء يسير فما فعلوا، بينا هم في الكلام، إذ بقُطّاع الطريق خرجوا عليهم، فعند نظر الغواصين إلى القُطّاع من بعيد ابتلعوا جميع ما كان معهم من اللؤلؤ. لما وافاهم[١] القُطّاع وسألوهم تسليم اللؤلؤ أجحدوا أن معهم شيئاً[٢]، فعزموا على شق بطونهم ليفتشوها ويأخذوا ما يجدونه فيها، فلما رأى ذلك الرجل السائح أنه إذا شقت[٣] بطون الغواصين ولقي فيها اللؤلؤ إن بطنه يشق بعدهم، فقال للغواصين في السر من القُطّاع: هلم أفديكم[٤] وأخلصكم بروحي وذلك أنكم تتقدمون القُطّاع وتتضرعون إليهم بألاّ يقتلوكم[٥] دفعة واحدة بل يضربوا القرعة على واحد منكم ويشقوا[٦] جوفه، فإن وجدوا فيه شيئا شقوا[٧] أجواف الباقين وإلا سيّبوا الباقين، فإذا أنعموا لكم أخرجتم القرعة عليّ[٨]. فإذا شقوا بطني لم يجدوا فيه شيئا أطلقوكم، ففعلوا ذلك، فشقوا جوف السائح وتخلّص الباقون[٩]. فانظر يا أخي مروءة هذا[١٠] الرجل وحسن خلقه وسموحته بنفسه لهؤلاء الذين لم يكونوا يستأهلون[١١] ذلك منه.

وكذلك حُكي أن رجلا عابدا[١٢] التقى بصديق له عابد بعد مدة طويلة، فسأله: كيف حالك وسيرتك مع أهل عصرك؟ فقال له: أما حالتي فكما ترى

---

(١) في النص (وافوهم)
(٢) في النص (أجحدوا أن ما معهم شيء).
(٣) في النص (أن إذى أشقت).
(٤) في النص (أفيدكم).
(٥) في النص (بأن لا يقتلونكم).
(٦) في النص (يشقون).
(٧) في النص (كانوا شقوا).
(٨) في النص (عليبا).
(٩) في النص (تخلصو الباقين).
(١٠) في النص (هذي).
(١١) في النص (يستأهلوا).
(١٢) في النص (رجل عابد).

مصالحتي لأربعة أعداء بين أضلاعي متضادة[١]، فإن هاج عليّ واحد منهم أهلكني. فأنا دائما ملاطف لهم بتصليح المزاج وتلطف الغذاء إلى أن آمن من شرهم. فإذ صلح الحال صرت في مصادمة الغذاء، إن شبعت تخمت، وإن جعت ألمت. فإذا[٢] عدلت ذلك صرت في مقاسات دخول الخلاء والخروج منه والغسل والتنظيف. وبعد ذلك من مقاسات فصول الزمان من حر أثير، وبعد زمان برد كثير وحوادثه التي تطرأ في الليل والنهار وأمراضه وتقلبه بأهله من حال إلى حال، ولا يدوم على حالة واحدة، مع ما أقاسي من أهل البغي والحسد، والنميمة والكذب، والشرور وفساد الدين. إن سمعوا خيرا كتموه، وإن سمعوا شرا أذاعوه. وإن لم يسمعوا كذبوا. وقد كلفني الزمان مباشرتهم ومداخلتهم بغير اختيار وصار مثلي معهم كقول الشاعر:

ومـــن عجب الدهر على المرء أن يـــرى

عـــــدوا لــــــه مـــا مـــن مصادقته بُدّ[٣]

فـــإن أحسنت إليهـــم كـــافأونـــي بالشـــر

وإن لـــم يحسنـــوا منّـــوا علـــيّ بالسلامة

وصرت أتلافاهم كالخرق [٤] المرثث الذي

إذا رقعـــت موضعا تهرّى منه موضع آخر

وقد قال الشاعر في ذلك:

تكلفني الأيام عشرة مـــن أرى   عـــلامات أولاد الـــزنا كلها فيه

يكافئنـــي على الإحسان بالسوء   كلما تلافيته لـــم يغن عني تلافيه

---

(١) في النص (متضاددة).

(٢) في النص (فإذى).

(٣) في النص (عدو له من ما مصادقته بدا).

(٤) في النص (اتلافهم كالخلق).

هو الخلق المرثوث يوما فها أنا   مـــرقعـــه طـــول الزمان ورافيه

بإبرة لطيــف كلمـــا صح جانب   من الجانب الثاني تهرت كنافيه[١]

فهذه حالتي. وأما سيرتي مع أهل عصري فأعاشرهم بالحق والإنصاف والعدل. أُحسن إلى من أحسن إليّ، وأُسيء إلى من أساء إليّ. وأكافئ أهل الخير بالخير وأهل الشر الشر. وأحب الأخيار وأدعو لهم. وأبغض الأشرار وأدعو عليهم. فهذه سيرتي مع أهل عصري. فأخبرني بحالك وبسيرتك مع أهل عصرك. فقال له العابد الآخر: أما حالتي وجسمي فكحالتك سواء بالسواء. وأما سيرتي مع أهـــل عصري فعلى غير ما وصفت، وذلك أني أنفسهم من نفسي بما أقدر عليه ولا أستنصف منهم مثل ما أنصفهم، بل أحسن إلى من حرمني. وأعفو عمن ظلمني، ومن قرعني وسبني احتملته لوجهين، إما أن يكون قوله باطلا فلا جناح عليّ. وإما أن يكون ما قاله صادقا فلا جناح عليه، وبعد ذلك بعد سلامتي منهم ومن بغيهم وحسدهم وشرهم أنصرف من جهادهم الأصغر إلى جهاد نفسي الحسية بطبعها وهواها وشهواتها ورداءتها، وآرائها الفاسدة، واعتراضاتها بالتمويهات والمحالات التي تريد أن تستغرقني بها، مثل ذلك أنها تتشهى على أنواع المأكولات. فإذا طاوعتها صرت لها كالعبد المملوك. وصار بطني قبورا للشهوات ومدفنا للحيوانات[٢]، فإن وجدت يوما غذاء ذلك الذي قد ألفته من وجه حلال[٣] تناولته، وإلا احتلت عليه بكم من حيلة من وجوه الحرام. توقعني في أبواب العقوبات والفضيحة وهتك[٤] الستر عند الله سبحانه وعند الناس بعد الخيانة

---

(١) دوّن المؤلف الكسرة في نهاية البيت الشعري ياءً.

(٢) في النص (قبور للشهوات ومدافن للحيوانات).

(٣) في النص (حالل).

(٤) في النص (هتف).

والسرقة واللصوصية والغصب والخدع والمكر وغير ذلك مما يناله من إعطاء شهواته. وكان كالعبد لها. كذلك إن طاوعتها في باب شهوة النكاح نلت منها أكثر من ذلك وأوفى *مما* كتبه البارئ سبحانه في محكم كتابه من عقوبات الزناة على اختلاف طبقاتهم مما يطول شرحه. وإذا صادمتها بالحجج الزهديّة والشرعيّة والعقليّة في ضبط ذلك ورغبتها في الميل إلى القناعة واستعمالها وذكّرتها نقم من اتبع شهواته، انهزمت حينئذ بين يدي وأقبلت عليّ تحاججني في ذات الخالق تبارك وتعالى في التعطيل به فأوجدتها أمور العالم بأسره أعلاه وأسفله بأنه لم يخلق نفسه وإن غيره خلقه وأبدعه من العدم إلى الوجود، وقهر العالم بالموت، وأغنى من شاء وأذلّ من شاء. فلو كان العلماء خلقوا نفوسهم لكانوا يختارون البقاء والغنى ويفعلون[١] لأنفسهم. لكن غيرهم الذي خلقهم فأحياهم وأماتهم وأغناهم وأفقرهم وفعل بهم ما شاء كيف شاء، فإذا فلجتها بذلك حاجّتني في تكذيب الأنبياء، وأن الله سبحانه ما أوحى إلى البشر، فأحاجج عليها بالحجج العقلية بكون النبوة حتما مقضيا وأمرا ضروريا على ما سنذكر ذلك في فصل ذكر *المسيح المخلص* في الفصل التالي لهذا[٢] الفصل إن شاء الله. فيسقط ما في يدها من الباطل والتمويه والمحال عند استماعها ذلك. فتقابلني حينئذ في تبطيل كون الثواب والعقاب ودار الآخرة، وتقول لي ما ثم إلى هذه الدنيا حسب. فمن عمل فيها خيرا لعله يلقى منها فيها شيئا يذكر به بعد وفاته، وكذلك من فعل شرا. فأحتج عليها بالحجج العقلية والشرعية في تصحيح دار الآخرة وتحقيق الثواب والعقاب فيها بحجج لا يشوبها كدر ولا يداخلها خلل كما سنذكر طرفا من ذلك في فصل ذكر الآخرة الذي هو آخر فصل في هذا

---

(١) في النص (يختارو البقا والغنا ويفعلو).

(٢) في النص (لهذي).

الكتاب. فحينئذ تنقاد إليّ وتطيع أمري كما ينقاد الجمل والبعير[١] مع الصبي الصغير. فتجدني[٢] حينئذ أني أشّرف أهل دهري وأفْخر أبناء عصري وأُجلّ أبناء جنسي، فإن صادقتها واستحسنت مقالها دخل عليّ العكس بالكبر والسهو والخيلاء، وإلا فقد[٣] نجوت من الحمق، واستأنست بالصدق، واستكنأت بالعظمة والظفر بما ينجيني عن مكايدتها، واستمسكت بالعروة الوثقى، بقدرة الله تبارك وتعالى مولانا ونعم الوكيل. وكذلك الصالحين منهم أزداد[٤] بهم غبطة وأدعو[٥] إلى الله سبحانه أن يحشرني في جملتهم، والطالحين أدعو لهم إلى الله أن يغفر لهم وأن يهديهم. أنّي ما لقيت أحدا منهم شيخا كان أم صبيا صالحا كان أم طالحا إلا واعتقدت أنه عبد الله بأفضل مني، قال له: وكيْفَ ذلك، قال: أما الشيخ فأفضل مني؛ لأنه صلّى قبل أن أصلّي[٦]، وصام وزكى قبل أن أخلق، وعاشر الأخيار المتقدمين قبلي، واكتسب العقل التجاريب قبلي. فهو لا شك أفضل مني. وأما الصبي الصغير فلأن ذنوبي أكثر من ذنوبه. وسيئاتي[٧] أكثر من سيئاته. فإذا عرضت معه في الحساب يوم القيامة كان ميزانه أرجح من ميزاني. فهو لا شك أفضل مني. وأما الصالح منهم فلصلاحه ولعل نيته إلى الله أصلح من نيّتي، واعتقاده أفضل من اعتقادي. وأما الطالح العاصي فما أبين فضيلته عليّ وما أشهرها لديّ، وذلك أنه يعصي الله عن سهـــو وأنـــا أعصيــــه عن تعمد، وهو لم يعلم عظيم ما يقدم عليه من السيئات. وأنا لا يعزب عليّ

---

(١) في النص (البكير).
(٢) في النص (فتوجدني).
(٣) في النص (فقا).
(٤) في النص (ازتادت).
(٥) في النص (وأدعا).
(٦) في النص (قبل أصلي).
(٧) في النص (ساياتي).

شيء[١] من ذلك، فعذره يا أخي مقبول عند الله أكثر مني لا محالة. فاستحسن العابد الثاني منه ذلك وعاهده ليسلك في طريقته.

وقيل: ولما توفي الإسكندر جعل جسمه في تابوت، وحضر عندها عشرة من الحكماء، تكلم كل واحد منهم بكلمة.

فقال الأول: أيها[٢] الساعي المغتصب جمعت مكانك عند الاحتياج، وودعك عند الاحتجاج فلا قرابة تعضدك[٣]، ولا وزير ينقذك.

وقال الثاني: هذا[٤] الإسكندر قد توضحت زهرة بهجته كما توضح شعاع الشمس زهر النبات.

وقال الثالث: هذا الإسكندر ذو الأسرى[٥]، أصبح اليوم أسيرا.

وقال الرابع: انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى الغمام كيف انجلى.

وقال الخامس: قد كان هذا[٦] الشخص يسأل عما قبله، ولا يسأل عما بعده.

وقال السادس: ورد علينا هذا الجسد ناطقا، وصدر عنا صامتا.

وقال السابع: ما كان آمن هذا الجسد لما يستكنه[٧].

وقال الثامن: ما أرغبنا فيما فارقت، وأغفلنا عمّا عاينت.

---

(١) في النص (شيئًا).
(٢) في النص (أييه).
(٣) في النص (يعضدك).
(٤) في النص (هذي).
(٥) في النص(الأسرارا).
(٦) في النص (هذي).
(٧) فى النص (يستقنه)

وقال التاسع: ما أبعد شبه مكانك الذي أنت فيه اليوم، من مكانك الذي كنت فيه بالأمس.

وقال العاشر: لم يقض هذا[1] الجسد همته من الدنيا، حتى قضت الدنيا همته منه.

وقال راوٍ[2] آخر: إن عشرة حكماء حضروا[3] أيضا عند تابوته، فقال **الأول:** خرجنا إلى الدنيا جاهلين، فأقمنا فيها غافلين، وفارقناها كارهين.

وقال الثاني: هذا الإسكندر طوى الدنيا العريضة، فطوى منها في ذراعين.

وقال الثالث: قد كنت لنا واعظا، وما وعظتنا بموعظة أوعظ من وفاتك.

وقال الرابع: كانت حياته لله، وكانت وفاته لنفسه.

وقال الخامس: ما يسافر الإسكندر سفرا بلا عون ولا إله، سوى سفره هذا.

وقال السادس: هذا الإسكندر كان يحكم على الرعية فصارت تحكم عليه.

وقال السابع: رب هائب لك كان يغتابك من ورائك، فهو اليوم لا يخافك بحضرتك.

وقال الثامن: كنت حريصا[4] على سكونك أن لا تسكن وها أنت اليوم[5] حريص على كلامك إذ لا تتكلم.

وقال التاسع: كم أمات هذا[6] النفس حتى لا يموت وقد مات.

وقال العاشر: وكـــان صـــاحب خـــزانته: كنت أمرتني أن لا أتباعد عنك، واليوم لا أقدر على الدنو منك.

---

(١) في النص (لم يقضي هذي).
(٢) في النص (راوي).
(٣) في النص (حصلو).
(٤) في النص (حريص).
(٥) في النص (وهي اليوم).
(٦) في النص (هذي).

وقيل: سُئل بعض العلماء وهو خارج من بعض المدن الكبار، فقيل: له كيف رأيت أهل المدينة العظيمة؟ فقال: رأيت أشباها حائلة، وأعراضا زائلة[١].

فانظر يا أخي ما أحسن تقوى الله والخضوع بين يديه، والتوكل عليه، نسأله سبحانه أن يجعلنا من المستكنين إليه والمتوكلين عليه كقول وليه عليه السلام (المزامير ١٢٥: ١) "المتوكلون على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزعزع بل يسكن إلى الدهر".

تم الفصل الخامس بعون الله سبحانه، يتلوه

(١) في النص (أشباه حائلة وأعراض زائلة).

الفصل السادس

في ذكر فضائل المسيح المخلص[1] عجّل الله ظهوره والخلاص[2] عجل الله بذلك وشيكا[3] برحمته

اعلم يا أخي، وفقك الله وإيانا إلى رضاه، أن هذا الفصل شريف المقدار، ومعرفته من أجل العلوم، وذلك نريد أن نذكر طرفا من فضيلة المسيح المخلص وما قد خصّه الله به من الفضائل على من تقدمه من الأنبياء السابقين.

اعلم بأن قد تكلمنا في أول الكتاب بذكر جود الله سبحانه وإنعامه على العقل الأول بإبداعه إياه كاملا تاما على أوفى غاية وأبلغ نهاية، فصار جنس الأجناس، وعنصر العناصر. فهو عقل وعاقل ومعقول. فأما عقل لما انعقلت فيه جميع الأشياء التي[4] أفاده إياها مبدعه جل جلاله. وعاقل لما عقل ذاته ونزّه مبدعه عن جميع الصفات التي رآها[5] في ذاته، ومعقول ممن سواه وممن دونه في الرتبة

---

(١) في النص (الماشيح) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية، ومعناها (المسيح المخلص).

(٢) في النص (اليشوعا) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربيـــة ومعناهـــا (الخلاص).

(٣) في النص (وشيشا).

(٤) في النص (الذي).

(٥) في النص (رآه).

وهي النفس الكلية التي فاضت منه وانبعثت عنه. فلما طلبت[1] التشبه به واللحوق به أفاضت[2] من جُودها الذي اكتسبت منه فيضا آخر فكان ذلك الفيض الذي أفاضته هي ناقصا من درجاتها لبعد نسبته من الإبداع الأول كنسبة الثلاثة من الواحد. وكذلك باقي الرتب إلى أن انتهى الشيء إلى الفلك، وبعده عالم الطبيعة وما تكوّن فيه بقدرة العزيز الحكيم من معادن ونبات وحيوان إلى أن كان الإنسان آخر العمل، فأوجبت حكمة البارئ سبحانه خلاص نفوس البشر من ظلم عالم الكون والفساد. فكان من موجب حكمته تقدست أسماؤه[3]، أن رحمته عطفت عليهم. فسرى من عالم القدس الذي هو عالم النفس الكلية مما اكتسبت من فيض علتها المقدسة التي هي العقل الكلي مما أفاده إياها مبدعه جل جلاله على شخص من شخوص البشر قد تَصَفَّتْ روحه من كَدر عالم الطبيعة. وارتاض بالعلوم الشريفة والأعمال الزكية. فَسَرَتْ إليه تلك القوة القدسية. واتَّحدَتْ به فصار نبيا[4] ناطقا يصل إليه الوحي ويطرقه من قبل الخالق سبحانه. فينبؤه[5] بالأشياء قبل كونها. ويمكنه من فعل المعجزات وخرق العوائق، وقبل الأعيان. كل ذلك سببا لهداية العباد ونجاتهم من ظلم عالم الكون والفساد. فمن قبل الشريعة من ذلك النبي وعمل بها واهتدى بهدايتها، فقد نجت نفسه من ظلمة الطبيعة. ومن تخلف عنها وعاندها وعصى ذلك النبي وكذبه، فقد ظلم نفسه وبئس المصير. كفانا الله برحمته.

فلما كان ذلك كذلك وتخلص من نفوس البشر في زمان الأنبياء عليهم السلام من تخلص وبقي من بقي، وقد كان سَبق من إنعام البارئ سبحانه وجوده،

---

(١) في النص (طلبة).

(٢) في النص (أفاضة).

(٣) في النص(اسمايه).

(٤) في النص (نبي).

(٥) في النص (فينبيه).

أنه قد وعد على ألسنتهم بإقامة الشخص في آخر الزمان لخلاص باقي العالم، ونجاهم كما نجا من نجا من الأزمان السالفة والدهور المتقدمة، فتتم حينئذ نعمته وتشمل بركته سبحانه. وتلحق العلة بمعلولها، كما يُدرك التلميذ بأستاذه، فتنكشف حينئذ الحكمة التي كانت مستورة في أوقات أولئك الأنبياء المتقدمين. وتظهر العلوم المكنوزة. ويشمل فضل البارئ سبحانه وإحسانه على جميع البرية من كبير إلى صغير وأنثى وذكور. وكذلك تشمل السلامة بين المخلوقين. ولا يبقى بينهم حسد ولا غبطة ولا أذية حتى لا يحتاجوا لحمل سلاح. وهو يكون أيضا لا يضرب الظالم بالسيف بل يدعو على الظالمين فيبيدون. ويحكم بين الخلق بإلهام من الله عز وجل بغير شهود، بل بالعدل والإنصاف والتأييد الذي يؤيده بارؤه[١] سبحانه. وتشمل بركته العالم بأسره حتى لا يبقى أحد من أهل عصره محتاجا[٢] إلى تعليم معرفة الله سبحانه مما يفيدهم الله العلوم بأسرها، ويفيض عليهم البركات الكاملة والنعم الشاملة والخيرات المتواترات الدائمة. ويفيض الله سبحانه الوحي على أهل عصره صغيرهم وكبيرهم. فطوبى وطوبى لمن ألحقه وعاينه. وعلى أن قد وعد الله سبحانه بأنه يحيى على يديه الموتى فيعاينونه ويشاهدونه[٣]. فمن منهم وقد قرت عينه هو مؤمن[٤]. ومن كان مكذبا[٥] به سخنت عينه. ويمكّنه الله تعالى بفعل المعجزات الكبار لم يأت[٦] مثله نبي قبله حتى يؤول[٧] الأمر بكون السلامة أيضا

(١) في النص (يأييده باريه).
(٢) في النص (محتاج).
(٣) في النص (فيعاينوه ويشاهدوه).
(٤) في النص (فمن منهم وقد هو مؤمن قرت عينيه).
(٥) في النص(مكذب)
(٦) في النص (لم يأتي).
(٧) في النص (يأول).

بين الحيوان المفترس وغير المفترس ويختلط البعض بالبعض. ولا يبقى في وقته شر بتة بين الحيوان والناس. وتبطل الحروق والشدود بقدرة الله الواحد القاهر، وسنأتي[١] بدلائل على ما ذكرنا من التوراة المقدسة وأقوال الأنبياء جميعهم عليهم أشرف السلام، مما أوحى الله سبحانه إليهم من إقامة هذا[٢] الشخص الشريف، وإغاثة[٣] هذه الأمة الضعيفة اللهيفة التي هي أمة بني إسرائيل على يديه الذين هم مضطهدون[٤] بين الأمم، مستخف بهم بين سائر الملل. ويجعل فرجها على يديه، فيخلصها مما هي فيه من العذاب وينجيها مما هي فيه من النكال. وذلك من جملة معجزاته التي يؤيده[٥] الله تبارك وتعالى بها[٦]، فيحل عن هذه الأمة إصرها. ويفرج عنها كربها، ويفك عنها أغلالها وقادها. ويعوضها مما كانت فيه من النحوس إلى السعود. ومن الشقاء الأليم إلى النعيم الجسيم المقيم. ومن اللعنة إلى البركة. وينعشها من الثرى إلى الثريّا. وتدرك اليسار العظيم، والخير الجسيم حتى تصير الأمم التي كانت تلعنها تتبارك بها[٧]. والتي كانت تستخدمها والتي كانت تعيّرها تتسامحها عما سلف منها[٨].

وقد وعد سبحانه بجميع ذلك وبما هو أوفى منه وأبلغ، على أن مواعيده سبحانه كثير منها معلق بشروط التوبة وتعجيل ذلك. وشيء من مواعيده سبحانه

---

(١) في النص (سانأتي).

(٢) في النص (هذي).

(٣) في النص (إغاثت).

(٤) في النص (مستضهدين).

(٥) في النص (يوديه).

(٦) في النص كلمة (بها) غير موجودة.

(٧) في النص (حتى يصيرو الأمم التي كانو يلعنوها يتباركو بيا).

(٨) في النص(والذين كانو يستخدمونها والذين كانو يعيرونها يتسامحونها ما سلف منهم).

حتم كظهور هذا[١] الشخص الشريف، وفَرَجُ الأمة على يديه حتم ولو لم يتوبوا. فجميع مواعيده سبحانه من البلوى والشقاء وجميع ما تواعدهم به خاصة في ***إذا كان في شريعتي*** وفي ***وكان عندما تأتي تحل بهم***. ووافاهم، وصاروا لعنة في الشعوب، وقسم يقسمون[٢] به الأمم، وبيعوا كالعبيد والإماء، وبددوا في أقطار الأرض. وما كفى الأمم بذلك فيهم حتى يعيّروهم ويقولوا[٣] شريعتهم قد نسخت وأبطلت[٤]. وسنذكر في ذلك ما أمكن بأن التوراة ما نُسخت ولا تُنسخ أبدا إن شاء الله تعالى. ولا تبطل ولا تُنسى من أفواه الأمة ما دامت السموات والأرض. وكذلك

---

(١) في النص (هذي).

(٢) في النص (يقسموا).

(٣) في النص(يعيرونهم ويقولون).

(٤) يجمع المفسرون المسلمون على أن الكتاب واحد في التوراة والإنجيل والقرآن، فلا نسخ بينهم لقوله تعالى في سورة البقرة الآية (٢١٢) ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ ، كما أن القرآن ينذر بعذاب النار لمن يكفر بأحد الكتب، حيث قال تعالى في سورة غافر الآيات (٧١-٧٢) ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ونقول أيضا إن القرآن قد أعلن في أكثر من موضع أنه تصديق الكتاب وفي ذلك برهان ينفي النسخ لقوله تعالى في سورة البقرة الآية (٨٩) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ من ناحية أخرى تشير المصادر الإسلامية إلى أن شريعة عيسى ليست رافعة لشريعة موسى بأسرها، ولكنها ترفع بعض أحكامها، وتثبت بعضا كشريعة عيسى، فهذه شريعة ناسخة؛ لأنها تنسخ بعضا وتفسر بعضا، فالمسيح رسول نسخ بعض التوراة وهو ما نصّ على نسخه لقوله تعالى في سورة آل عمران الآية (٥٠) ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

الأمة لا تنفد ولا تبيد ولا تفنى. فلنأت بدلائل جميع ذلك أولاً[1] بأوّل بعون الله سبحانه. ولو طلبنا نذكر جميع ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام. في ذلك لما وسعته الأوراق، لكنّا نأتي بما أمكن. إذ فيه الكفاية لمن أنصف. وبعد وقبل. حاشا الله تعالى بأن يكون وعيده يوافي الأمة ويبقى وعده، (أيوب ٣٤: ١٠) "حاشا لله من الشر وللقدير من الظلم".

فأما الدليل في ظهور ***المسيح المخلص*** عليه السلام وخلاص الأمة على يديه وفي عصره، وفي ذلك قال الكتاب (العدد ٢٤: ١٧)، "أراه ولكن ليس الآن أبصره ولكن ليس قريبا، يبرز ككوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب، ويهلك كل بني الوغى"، وتمام ذلك الكلام هنالك، وقال أيضا (التكوين ٤٩: ١٠) "لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه". وهو يومئ[2] إلى ***المسيح المخلص*** عليه السلام. وأما النبي إشعيا فكثرت نبوته في سببه وأوصافه وجلالته، وكون السلامة بين جميع المخلوقين من إنسان وبهائم بأمره، وحكمه بالإلهام من الخالق تبارك بين البرايا، وكثير من أوصافه الحسنة مما ذكرنا ومما لم نذكر. فمن ذلك قوله عليه السلام: (إشعيا ١١: ١-٢) "ويخرج قضيب من جذع يسّى وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم ومخافة الرب"، (إشعيا ١١: ٦) "فيسكن الذئب مع الكبش". وفي جميع الأمة في وقته. قال (إشعيا ١١: ١١- ١٢) "ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني شعبه ويرفع راية للأمم ويجمع منفي إسرائيل". وقال في وصفه أيضا (إشعيا ٥٢: ١٥) "من أجله يسد الملوك أفواههم؛ لأنهم قد أبصروا وما لم يسمعوه فهموه". (إشعيا ٥٣: ٢) "ونبت قدامه كرضيع وكعرق من أرض يابسة". وفي عقب ذلك قال (إشعيا ٥٣: ١٠) "ومسرة الرب بيده تنجح". وقال (إشعيا ٥٢: ٧) "ما أجمل على

(١) في النص (أول فأول).

(٢) في النص (يوماً).

الجبال قدمي المبشر المخبر بالسلام، المبشر بالخير القائل لصهيون قد ملك إلهك". (إشعيا ٥٢: ٩) "أنشدي ترنمي يا خرب أورشاليم". (إشعيا ٥٢: ١٠) "شمّر الرب عن ذراع قدسه أمام كل الأمم، كل أطراف الأرض، خلاص إلهنا". وقال (إشعيا ٤٩: ١٢) "هؤلاء من بعيد يأتون، وهؤلاء من الشمال وبحرا، وهؤلاء من أرض سينيم". وقال (إشعيا ٤٩: ٢٢) "هكذا قال الرب ها أني أرفعك إلى الأمم يدي وإلي الشعوب أقيم رايتي فيأتون بأولادك من بعيد". وقال (إشعيا٤٩: ٢٣) "واليوم يكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك، الوجوه إلى الأرض يسجدون لك". وقال: (إشعيا ٤٣: ٦) "أقول للشمال أعط وللجنوب لا تمنع، ائت ببني من بعيد وبناتي من أقصى الأرض". وكثير من ذلك في سفر إشعيا خاصة. ولباقي النبيين في ذلك كلام ما لا يحصى كثرته لشهرته في نبوتهم. فمن ذلك قوله: (إرميا ٢٣: ٥- ٦) "ها أيام تأتي قال الرب وأقيم لداود غصن بر فيملك وينجح ويجري حكما في الأرض في أيامه يخلص يهوذا وإسرائيل أمنا". (إرميا ٣٠: ٢١) "ويكون حاكمهم منهم ويخرج واليهم من وسطهم" وقال أيضا (زكريا ٩: ٩) "ابتهجي جدا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشاليم هوذا ملكك يأتي إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان". وقال في خلاص الأمة (صفنيا ٣: ٢٠) "في الوقت الذي آتي فيه بكم في وقت جمعي إياكم، اسما وتسبيحا". وقال (زكريا ٨: ١٣) "ويكون كما أنكم كنتم لعنة بين الأمم يا بيت إسرائيل وبيت يهوذا كذلك أخلصكم فتكونون بركة فلا تخافوا لتتشدد أيديكم". وقال (إشعيا ١٤: ٢) "وتأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيدا وإماء ويسبون الذين سبوهم، ويتسلطون على طاغيهم". وفي إحياء الموتى قال (حزقيال ٣٧: ١٣) "هكذا قال الرب ها أنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبـوركـم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل". وفي حلول النبوة والوحي على العالم قال: (يوئيل ٢: ٢٨-٢٩) "ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم

شيوخكم أحلاما ويرى شبابكم رؤى. وعلى العبيد أيضا وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام". وقال (حزقيال ٣٩: ٢٩) "ولا أحجب وجهي عنهم بعد؛ لأني سكبت روحي على بيت إسرائيل يقول السيد الرب". وبكونهم عارفين لله تعالى، وغير محتاجين إلى معلّم. قال (إرميا ٣١: ٣٣) "بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلها وهم يكونون لي شعبا". وقال (إرميا ٣١: ٣٤) "ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب؛ لأنهم كلهم يعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد". وكثير من ***التعازي والتنبؤات***[1] يطول شرحها، فمنها ما هو معلق بشرط التوبة، كما قال السيد المنير عليه السلام (التثنية ٣٠: ١-٣) "وحدث أنه أتت عليك كل هذه الأمور البركة واللعنة ورددت إلى قلبك. ورد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددوك إليهم الرب هناك في الأرض". (التثنية ٣٠: ٥) "ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي امتلكها أباؤك فتتوارثها وسكنت بها". وأما الذي ليس هو معلقا بشرط، بل[2] هو حتم منه تبارك وتعالى ذلك قوله (إشعيا ٦٠: ٢٢) الصغير يصير ألفا والحقير أمة قوية أنا الرب في وقته أسرع به". وقال ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث سنهدرين ٩٨) "لن يأتي ابن داود حتى تصبح إسرائيل بارة صديقة" (إشعيا ٥٩: ١٦) "ورأى أنه ليس إنسانا وتحير من أنه ليس شفيعا، فخلصت ذراعه لنفسه وبره هو عضده". وقالوا رحمهم الله (مبحث سنهدرين ٩٧: ٢) "إذا ما تابت إسرائيل فسوف يتم خلاصهم في الحال وسيظهر ابن داود في ذلك اليوم"، ***اليوم إذا سمعتم قوله وإذا لم تسمعوه فسوف يسلط***

---

(١) في النص (النحموت والعتيدوت) وهما لفظتان عبريتان أدخل عليهما المؤلف أداة التعريف العربية وهما بمعنى: التعازي والأحداث التي سوف تقع في المستقبل أو التنبؤات.

(٢) في النص (وأما الذى ليس هو معلق بشرط كل).

عليكم الرب ملكا أحكامه قاسية كهامان وهم سيتوبون وسيتم خلاصهم. فلو كان ذلك باختيار كان أفضل وأسرع لقبول السعادة. وإن كان باضطرار منا أدركنا العوائق والصعوبات لقول الكتاب (التثنية ٤: ٣٠) "عندما ضيق عليك وأصابتك كل هذه الأمور في آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله". ونرجو أن قد قرب ذلك إن شاء الله تعالى لأننا قد وقفنا على تفسير ***موعد النهاية*** (دانيال٧: ٢٥) "ونصف إلى زمان أزمنة ونصف زمان" لبعض الفضلاء. وبرهن على ذلك قران وقرانان[1] ونصف قران وذلك لزحل. وأقام من أحكام النجوم البراهين القوية أنه المستولي على ملتنا، وعند انتقاله إلى القران الذي ذكره يبدل الله تعالى أحوال العالم بأسره كما وعد وقال (إشعيا ٦٥: ١٧) "لأني ها أنذا خالق سموات جديدة وأرض جديدة فلا تذكر الأولى". وعنه أكنى النبي بقوله (دانيال ١٢: ١٠) "في ذلك الوقت يقول ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك". فيجب علينا طاعة البارئ سبحانه وتقواه فإن أدركنا ذلك فهنيئا لنا وإلا فلا عدم. وأما الدليل بأن البارئ تبارك وتعالى لا يخلي هذه الأمة الضعيفة من رحمته ولا يتخلى عنها فقوله (اللاويين ٢٦: ٢٤ -٢٥) "ولكـن مـع ذلك أيضـا متى كانوا في أرض أعدائهم لا أبيتهم ولا كرهتهم بل أذكر لهم العهد مع الأوائل"، وقال قبل ذلك (اللاويين ٢٦: ٤٢) "وأذكر ميثاقي مع يعقوب، وأيضا ميثاقي مع إسحاق، وأيضا ميثاقي مع إبراهيم أذكر، وأذكر الأرض". وقال إنه لا يفنيهم كقوله (ملاخي ٣: ٦) "لأنـي أنا الرب لا أتغير فأنتم يا بني يعقوب لم تفنوا". وقال (إرميا ٣٠: ١٠-١١) "وأمـا أنـت يا عبدي يعقوب فلا تخف ولا ترتعب يا إسرائيل لأني ها أنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض سبيه. فيرجع يعقوب ويطمئن ويستـريح ولا مـزعج. ألأنـي أنا معك يقول الرب لأخلصك وإن أفنيت جميع الأمم الـذين بـددتك إليهم فـأنت لا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرؤك تبرئة" (إرميا ٣١: ٣٥-٣٦) "وهكذا قال

---

(١) في النص (قرانين).

الرب الجاعل الشمس للإضاءة نهارا إن كانت هذه الفروض تزول من أمامي يقول الرب فإن نسل إسرائيل أيضا يكف من أن يكون أمة أمامي كل الأيام". وقال (إرميا ٣١: ٣٧) "هكذا قال الرب إن كانت السموات تقاس من فوق وتفحص أساسات الأرض مـــن أسفل فإني أنا أيضا أرفض كل نسل إسرائيل من أجل كل ما عملوا يقول الرب". وقال (إرميا ٣٩: ٤١) "وأعطيهم قلبا واحدا وطريقا واحدا ليخافوني كل الأيام لخيرهم وخير أولادهم. وأقطع لهم عهدا أبديا لا أرجع عنهم لأحسن إليهم وأجعل مخافتي في قلوبهم فلا يحيدون عني. وأفرح بهم لأحسن إليهم وأغرسهم في هذه الأرض بالأمانة بكل قلبي وبكل نفسي". وقال (إرميا٣٢: ٤٢) "لأنه هكذا قال الرب كما جلبت على هذا الشعب كل هذا الشر العظيم هكذا أجلب أنا عليهم كل الخير الذي تكلمت به إليهم" وقال (إرميا ٣٠: ٢٠ – ٢٢) "هكذا قال رب الجنود إن نقضتم عهدي مع النهار وعهدي مع الليل حتى لا يكون نهار ولا ليل في وقتهما فإن عهدي أيضا مع عبدي ينقض فلا يكون له ملك على كرسيه. كما أن جند السموات لا يعد ورمل البحر لا يحصى. هكذا أكثر نسل داود عبدي واللاويين". وقال (إرميا ٣٣: ٢٠) "هكذا قال الرب إن كنت لم أجعل عهدي مع النهار والليل فرائض السموات والأرض فإني أيضا أرفض نسل يعقوب وداود فلا آخذ من نسله حكاما لنسل إبراهيم وإسحاق ويعقوب لأني أرد سبيهم وأرحمهم". وكثير من ذلك مشهور أنه لا يـــزهـــد فيهم ولا يفنيهم. وكـــذلك لا تبطـــل شريعتهم ولا تُنسخ. ولا تحوّل ولا تزول كقوله على لسان الأنبياء الصادقين عليهم السلام (إشعيا ٥٩: ٢١) "وأن هذا هو عهدي معهم قال الرب روحي التي عليك وكلامي الذي وضعت في فمك". وقال ***إذا لم يكن عهدي نهارا وليلا، فلم أضع فرائض السموات والأرض،*** وهو يعني ***بالعهد***[1] التوراة. وقال في محكم كتابه (التثنية ٣١: ٢١) "لأنه لا ينسى

(١) في النص (البريت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية وهي بمعنى: العهد أو الميثاق.

من أفواه نسله". وكفى بواحد من هذه الدلائل بأنها لا تنسخ ولا تبطل. والخاصة ما أوصانا بحفظها سبحانه نحن وأولادنا طول الدهر في مواضع شتى، وألاَّ[١] نزيد عليها ولا ننقص منها كقوله (التثنية ١٢: ٣٢) "كل الكلام الذي أوصيكم به احرصوا لتعلموه لا تزد عليه ولا تنقص منه". وكما أقام عليها الحدود وأكّد عليها العهود والمواثيق بحفظها والعمل بها حتى قال في آخر الإيمان والعهود ***ملعون الرجل الذي لا يقيم كلام التوراة هذا ولا ينفذه***. وأكّد علينا العهود قبل أن نخلق وعاهد عنّا[٢] آباؤنا كقوله (التثنية ٢٩: ١٤-١٥) "وليس معكم وحدكم أقطع أنا هذا العهد وهذا القسم بل مع الذي هو هنا معنا اليوم واقفا أمام الرب إلهنا ومع الذي ليس هنا معنا اليوم". فما عذرنا إليه تبارك وتعالى إذا تركناها والتزمنا بسواها أقذعتنا[٣] الأمم بذلك. وقالوا لنا: قد بعث الله إلينا نبيا من بعدكم وقد نسخ شريعتكم.

فتعلّم يا أخي أن الله تبارك وتعالى لم يمتنع أن يبعث إلى عالمه من شاء متى شاء. إذ فيض عالم القدم دائم متواتر غير منقطع. والمادة الشريفة من العالم اللطيف إلى العالم الكثيف دائمة لخلاص النفس من بحر الهيولي وعالم الطبيعة، ومن الهلكة في السعير ونار الجحيم، وأنه سبحانه قد بعث إلى الأمم أنبياء من قبل نزول التوراة[٤] كما قال ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث بابا بترا ١٥: ٢) "تنبأ سبعة أنبياء لأمم العالم قبل نزول التوراة وهم ابن يثرو، وبلعام، وأيوب، وأليفاز، وبلدد وصوفر"، فلم يمتنع أن يبعث إليهم من شاء بعد نزولها ولا يبقى العالم بلا دين، وقد نطقت الأنبياء بأنه سبحانه يعبد من مشرق الشمس إلى مغربها في سائر الأمم

---

(١) في النص(أن لا).

(٢) في النص (عننا).

(٣) في النص (أقذعونا) وجاء في المعجم الوجيز أن أقذعه: شتمه بالكلام السيئ، والمقذعات: الشتائم المستقبحة. انظر: المعجم الوجيز، ص٤٩٤.

(٤) في النص (التوريه).

كقوله (ملاخي ١: ١١) "لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم". وقال (إشعيا ٤٥: ٢٣) "إن لي تجثو كل ركبة، يحلف كل لسان"، لكنه سبحانه اختارنا وشرفنا من بين الأمم لا لفضيلة سبقت[١] لنا، بل من إنعام الله على آبائنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب كقوله (التثنية ٧: ٧-٨) "ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم؛ لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم". وقال (ملاخي ١: ٢) "أحببتكم قال الرب وقلتم بماذا أحببتنا، وأحب يعقوب". فاختارنا الله وأنزل إلينا توراته وشرائعه وكلفنا كُلفا عظيمة لم يكلفها أحدًا[٢] من قبلنا ولا من بعدنا ليجزل بذلك ثوابنا كقوله (التثنية ٦: ٢٤) "وأمرنا الرب لننفذ كل التعاليم تلك لخيرنا كل الأيام لحياتنا كهذا اليوم". وقال (التثنية ٦: ٢٥) "وصدقة تصير لنا؛ لأننا نحافظ على تنفيذ كل تلك التعاليم". وقال (المزامير ١٤٧: ١٩) "يخبر يعقوب بكلمته وإسرائيل بفرائضه وأحكامه لم يصنع هكذا بإحدى الأمم". وقال (الخروج ١٩: ٥) "وتكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب"، وقال: ***لأنه من أعظم من الرب قريبون إليه.*** وأقسم على لسان أنبيائه عليهم السلام أنّا ولو تبرأنا من شريعته وكلفه أنه يملكنا بالقهر كقوله (حزقيال ٢١: ٣٣) "حي أنا يقول الملك رب الجنود إذا لم يكن بيد قوية وبنسل ممتد أملك عليكم". وقد نطقت شريعة العرب بالذي أنعم علينا وفضلنا سبحانه على العالمين بأسرهم[٣]. كقوله "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت

---

(١) في النص (سبقة).

(٢) في النص (أحد).

(٣) لم يكتف المؤلف بالتأكيد على فكرة شعب الله المختار- هذا المعتقد الراسخ في أذهانهم- بأدلة من العهد القديم، بل أورد آيات من القرآن الكريم، ظنا منه أنها تحمل نفس المعنى الراسخ في فكرهم، وجهلا منه في تفسير معاني الذكر الحكيم. فالإيمان بأن اليهود هم شعب الله المختار مقولة أساسية في الدين اليهودي، حيث وردت في مواضع كثيرة في المقرا، منها ما جاء في سفر التثنية (١٤: ٢) "لأنك شعب مقدس للرب إليك وقد اختارك الرب لكي تكون له=

عليكم وأني فضلتكم على العالمين"[1] بأسرهم. فقوله وإني فضلتكم حتما مقضي ليس هو خبر. وكذلك نطقت في آيات كثيرة بمثل هذا. وبأن التوراة ما نُسخت كما يزعمون[2] بجبروتهم علينا، واستضعافهم لنا وانقطاع مغوثتنا. فمن ذلك قال: كما بين يديّ ومصدق لما بين يديّ من التوراة[3]. وقال "كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله"[4]، وحكم الله لا ينسى أبدا. وقال "ولن تجد لسنة الله

=شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض". فقد كانت لليهود دعاوى عريضة تؤكد أنهم هم وحدهم المهتدون الذين سينالهم ثواب الله، وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك، وهنا يكذب القرآن هذه الدعوى ويقرر قاعدة أساسية ألا وهي وحدة الإيمان، ووحدة العقيدة حتى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيمانا ينبثق منه العمل الصالح، وأن فضل الله ليس محجورا على عصبية خاصة، وإنما هو للمؤمنين أجمعين في كل زمان ومكان، كل بحسب دينه الذي كان عليه، وفي ذلك يقول المولى عز وجل ﴿إنّ الذينَ آمَنُوا والذين هَادُوا والنّصارَى والصابئينَ مَنْ آمَنَ بالله واليَوم الآخر وعَمِلَ صَالحًا، فَلَهُمْ أجْـرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ ولا خَوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾. أما التفضيل الذي ذكر بصددهم في القرآن- كما نقله الإمام طنطاوي عن الإمام الرازي- أن الله قد فضلهم على عالمي زمانهم، فأمة محمد لم تكن موجودة في ذلك الوقت، فلا يلازم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين أنهم أفضل من الأمة المحمدية، وهذا هو الجواب من قوله (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وبهذا يتعين بطلان دعوى اليهود بأنهم شعب الله المختار. انظر/ سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٩٧، ج١، الباب ٤٠، ص٤٧. انظر أيضا/ محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، ١٩٧٧، ج١، الباب ٤٧، ص٧٦.

(١) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة البقرة الآية (٤٠) ﴿يَا بَنِي إِسْرَائيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾ وكذلك قوله تعالى في الآيتين (٤٧ و١٢٢) من سورة البقرة ﴿يَا بَنِي إِسْرَائيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنّي فَضّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(٢) في النص (يزعمو)

(٣) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة الصف الآية (٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وكذلك قوله تعالى في سورة المائدة الآية (٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

(٤) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة المائدة الآية (٤٣) ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

تحويلا"[1] وهو يعني التوراة. فكيف نحول سنته ودينه الذي أتى به موسى عليه السلام، فلم ير المطيعون[2] من آبائنا تحويل سنة الله ودينه المتخذ من موسى رسوله. فنحن على آثارهم نقتفيها ونمتثل بأحوالهم المحمودة بلزوم التوراة والعمل بفرائضها وأحكامها فلا يجوز تبديل ذلك ولا تحويله[3]. وقال "يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم" [4]، فدلّ أنه رسول إليهم لا للذين[5] من قبلهم. وقال يا أهل الكتاب لن يقبل منكم عمل حتى تقيموا التوراة[6]. وقال: وإن كنت في شك مما أنزل عليك فاسأل الذين أوتوا[7] الكتاب من قبلك[8]. فدلّ على أنه لم يأمره أن

---

(١) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة الفتح الآية (٢٣) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

(٢) في النص (فلم يرى المطيعين).

(٣) يدحض المؤلف هنا فكرة تحريف التوراة، إلا أن القرآن نفسه يبيّن لنا مقدرة اليهود على التزييف والاختلاق وتحريف الحقائق، وليّ الكلم عن مواضعه، وتزييف المعاني والمفاهيم، كما في قوله تعالى في سورة المائدة الآية (١٣) ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ...﴾. وكذلك قوله تعالى في سورة النساء الآية (٤٦) ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وهم يحرفون كلام الله دون نسيان أو جهل، وإنما يفعلون ذلك عن عمد وهم يعلمون، حيث قال تعالى في سورة البقرة الآية (٧٥) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

(٤) استشهاد قرآني من سورة النساء الآية (٢٦) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(٥) في النص (للذي).

(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة المائدة الآية (٦٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(٧) في النص (أوتي).

(٨) حملت استشهادات المؤلف وإشارته بعض الآيات القرآنية، وفيها إضافات من لدنه ولم يدونها بصورة صحيحة. بالإضافة إلى أنه لم يأت بالآية كاملة بل كان يستشهد بالجزء الذي يدعم وجهة نظره ويهمل ذكر الجزء الآخر.

يسأل من كتاب قد نسخه[١]. فإن قالوا: إن كتابنا نسخ كتابكم كما نسخ كتابكم كتاب إبراهيم. قلنا لهم: ليس ذلك بصحيح. بل نحن مقيمون على ملة أبينا إبراهيم وخاصة في الختانة التي افترضها عليه كقوله (التكوين ١٨: ١٩) "لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده". فلما بعث الله سبحانه موسى الكليم بتوراة[٢] بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف فافترض الله عليهم ما افترض على يديه فرائض وزاد على فرائض إبراهيم عليه السلام لما أوجب الوقت ذلك. ولم يبطل شريعة إبراهيم، بل كان موسى الكليم عليه السلام يتوسل به وبإسحاق ويعالي الله تعالى في عدة مواضع. وكانت الأخوات جميعهن حلالا[٣] من أصل شريف لعدمهم حتى لا يتزوجوا المتقدسين من بنات كنعان. فلما تكاثرت الأمة حظروا عليهم وليس ذلك نسخا[٤]. وكذلك شرع على بني نوح سبع فرائض لقلتهم، ولم يكن[٥] الوقت يحتمل غير ذلك إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام وزاد الله عليه فرائض شتى وعمل بشريعة موسى والتزمها قبل كونها. كما افترض الله على بني إسرائيل فرائض تعمل بأرض الشام ولم يعودا يدخلونها[٦] فالتزموها طاعة لبارئهم مثل الفطير والخبز الموجه والفريك وحج الأسابيع وسواها من الفرائض التي تعمل في بلاد الشام. فأقاموا أربعين سنة في البرية وهم مؤمنون[٧] بها غير عاملين بها، بل تعبدهم ليؤمنوا بها. وكذلك آدم ونوح وإبراهيم، وقد قال سبحانه في آدم (التكوين

---

(١) في النص (فدلّ أنه لم يأمره سأل من كتاب قد نسخه).

(٢) في النص (بتورات).

(٣) في النص (جميعهم حلال).

(٤) في النص (نسخ).

(٥) في النص (لم يكون).

(٦) في النص (عاد).

(٧) في النص (مومنين).

٢: ١٥) "ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها". وكذلك في إبراهيم قال فيه (التكوين ١٥: ٨) "عقب ما سمع إبراهيم لصوتي وحفظ تعاليمي". وكما افترض علينا سبحانه الفرائض التي تكون من قرابين وسواها في *أيام المسيح المخلص* ولم يعد[١] يظهر، كمثل ما هو مشروح على لسان النبي حزقيال عليه السلام في *القاعات*[٢] من قرابين وبناء البيت. وكذلك التئام جميع الأمم إلى المسيح المخلص عليه السلام لقوله (إرميا ٣: ١٧) "يجتمع إليه كل الشعوب"، (صفنيا ٣: ٩) "ليدعو جميعهم باسم الرب".

فإذا قالوا لنا: كان ذلك يلزمكم في وقت موسى لا غير. فإذا جاء آخر نسختم شريعتكم ودخلتم في الأخرى. قلنا لهم: اعلموا أن الله تعالى أمر أن يتعبد كل قوم بشريعة، ويحل لكل قوم شيئا حرمه على الآخرين، ويحرم عليهم شيئا قد أحله للآخرين؛ لأنه عارف بمصالح خلقه، وبما يوافقهم كمعرفة الطبيب الماهر بالمرضى. ولله تعالى المثل الأعلى. فيحمي منهم من يشاء، ويبيح لمن يشاء الأكل والتخليط. وليس لهم أن يكابروه في شيء؛ لأنهم قد سلّموا له الأمانة والصدق والعدل. فأحرى وأجدر بالخالق سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء، وهو أشرف وأعلى من كل مثل وممثول، وعاقل ومعقول، أنه أعرف بصلح خلقه أجمعين وحسابهم وعقابهم مفوّض إليه سبحانه. فمن شاء عاقب، ومن شاء أثاب، ومن شاء رحم. وليس على يديه يد، فله يجب القطع والحتم على أحد أنه يستحق العقاب، وأن يقنط من رحمة الله عليه، فالكل عباده ورحمته تسعهم في الدنيا وفي الآخرة كقوله (المزامير ١٤٥: ٩) "الرب صالح للكل".

---

(١) في النص (عاد).

(٢) فى النص (الأولموت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها: القاعات أو المداخل.

فالواجب علينا أن نتحفظ بما قد صار في أيدينا، وما نشأنا[١] عليه، ولا نعاند أحدا من سائر الشرائع فنصير كقوله (نشيد الأناشيد ١: ٦) "جعلوني ناطورة الكروم أما كرمي فلم أنظره"، ولتعبد الباري سبحانه لبريته بأجمعها بما شاء كيف شاء مثل مليح. وذلك كملك استخدم أهل مدينته لبناء قصر. فمنهم في البناء ومنهم في النجارة ومنهم في التزويق ومنهم في الصياغة ومنهم في الحدادة. فمنهم من كان مجتهدا[٢] فيما أمره الملك، ومنهم من كان مسهلا، ومنهم من كان تاركا لخدمة الملك. وعلى الجميع منهم نفقة الملك. وكان علمهم يتصل بالمَلك. فأمهلهم إلى أن أحضرهم ليحاسبهم على ما عملوا مما أمرهم به، فكافأ أهل الإحسان من أهل كل مهرة بأضعاف ما فعلوه. وكافأ أهل الإساءة من أهل كل مهرة بما فعلوه. فلم ينفع النادم ندمه حينئذ، حيث لم يكن[٣] قدم خيرا، كذلك الباري جلّ ثناؤه قد أذن بخراب الدنيا وعمارة الآخرة، فبعث الأنبياء في كل عصر وزمان ليحثوا الخلائق بالعبادة وفعل الخير والهدى إلى الرشاد، فمن نجا منهم فقد نَجا عن بيّنة، ومن هَلَكَ فقد هلك عن بيّنة. فيجب على كل أمة أن تهتدي بما وصل إليها وورد لديها وتقتدي بأنبيائها وأئمتها وأوصيائها. ولم يبق أحد بغير شريعة، فالكل من رب واحد وإليه يرجعون، والكل داعون إليه، ومتجهون[٤] لديه. وكل نفس صالحة منتقلة إليه، كقوله (الجامعة ١٢: ٧) "والروح ستعود إلى الرب الذي أعطاها". وسنتبع ذلك بذكر الآخرة في الفصل الذي بعد هذا –إن شاء الله تعالى– لئلا يكون بعد ***المسيح المخلص*** شيء إلا ذلك. والله أعلم وأحكم، وكذلك إذا لاجّنا المجادلون[٥] من غير ملّتنا بنسخ شريعتنا قلنا لهم جوابًا مُسْكِتًا[٦]: ما تقولون فيما أوتي به موسى الكليم

(١) في النص (نشونا).

(٢) في النص (مجتهد).

(٣) في النص (لم يكون).

(٤) في النص (داعين إليه ومتجهين).

(٥) في النص (لاجونا المجادلين).

(٦) في النص (جواب مسكت).

عليه السلام أَجَهْلٌ هو أم حِكمة؟ فليس يمكنهم أن يقولوا: جهل بل حكمة. فحسبهم هذا الجواب. أن الحكمة لا تتحول ولا تتبدل ولا تنسخ ولا تتغير. والله سبحانه إنه حاشا بأن يأمر بأمر على يدي نبي بآيات وبراهين ومعجزات وخرق عوائد في السماء والأرض ثم يُبْدى له وينسخ ذلك ويبطله، بل له سبحانه أن يزيد، يأمر من شاء، ويبعث من شاء إلى من شاء، إذ العوالم كلها ملكه وقبضته. ودليل على أنه سبحانه أرسل إلى كل قوم رسولاً[1] بلغتهم كقوله في القرآن ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[2]. فلو كان أرسل إلينا لكان بلغتنا، وكذلك لو كان إلينا لما قال له ﴿إنك من المرسلين لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم﴾[3]، فهو يعني القوم الذين كانوا يعبدون[4] الأوثان والعزات. وأما نحن فإن آباءنا لم يزل منهم نذر المنذرين طول الزمان، وكذلك لم تنقطع عنهم الرسل، فكانت رسالته إلى قوم لم ينذر آباؤهم[5]، ولا معهم شريعة يهتدون بها. فهداهم إلى شريعته إذ هم محتاجون إليها[6]. وأما غيرهم فعنده شيء يهتدي به[7]. فلا يحسن لأحد أن يعاند من أهل

---

(١) في النص (رسول).

(٢) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة إبراهيم الآية (٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(٣) استشهاد قرآني من قوله تعالى في سورة يس الآية (٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

(٤) في النص (يعبدوا).

(٥) في النص (أبايهم).

(٦) في النص (محتاجين إليها).

(٧) في النص (فقد عنده شيئا يهتدي به). لقد تجاهل المؤلف آيات الذكر الحكيم التي تؤكد أن الرسالة المحمدية رسالة عالمية إلى كافة شعوب الأرض، فهي دعوة شاملة للناس كافة وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنما جاءهم بالحق من ربهم فمن آمن فهو الخير، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين، يقول الله تعالى في سورة الأنبياء الآية (١٠٧) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وكذلك في سورة الأعراف الآية (١٥٨) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وقوله أيضا في سورة الأحزاب=

سائر الملل إذ حسابهم وعقابهم إلى سوانا سبحانه وتعالى. بل يجب علينا أن نخافه ونتقيه كمثل ما أمرنا في شريعته المشروعة على يدي أنبيائنا المأخوذ فيها العهود عليهم وعلينا كما سبق الكلام. وقد قال بعض العلماء في ذم التعصب في المذاهب والمجادلة عليها:

ورأي التعصب لا تبتغوه[١] أبدا فالعلم في غيره قد لاح واشتهرا

خذ الدليل الذي عزت مطالبـــه ولا تك جاهلا[٢] تخبر به البشرا

وإما بأن البارئ تبارك وتعالى متول[٣] حساب العوالم بأسرها من ولد آدم على ما خفي منهم وظهر في فعلهم للخير والشر، كما نطقت الكتب بذلك إذ قالت (الجامعة ١٢: ١٣-١٤) "فلنسمع ختام الأمر كله اتق الله واحفظ وصاياه؛ لأن هذا هو الإنسان كله؛ لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيرا أو شرا".

واعلم يا أخي، وفقنا الله وإياك إلى رضاه، أن ***الاستعباد***[٤] الذي نحن فيه بين الأمم، والاستخفاف الذي حلّ بنا بين الملل، قد كان سبق أعلم البارئ سبحانه

=الآيتـــين (٤٥- ٤٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ فالنبي (صلى الله عليه وسلم) أرسله رب العزة شاهدا على أمته بالتبليغ لهم، وعلـــى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ومبشرا للمؤمنين المطيعين الله ورسوله بثواب الله والجنة، ونذيرا للعصاة الكافرين من النار وعذاب الخلد، ودعوته للناس أجمعين إلى الإيمان بـــالله وحـــده، وبإذنه وبأمره ونورا هاديا من ظلم الضلالة.

(١) في النص (تبتغونه).

(٢) في النص (ولم تكن جاهل).

(٣) في النص (متولي).

(٤) في النص (الشعبود) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربيـــة ومعناهـــا العبودية.

في قادم الزمان لآبائنا بأنه سيكون. فنالتنا المصائب وأصابتنا النوائب فأكلتنا البلاد وأفنتنا العباد كقوله (اللاويين ٢٦: ٣٨) "فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم". وتلاعنت بنا الشعوب وطالت ألسنتهم وامتدت أيديهم علينا حتّى صرنا بينهم لا نقدر أن ننطق كالشاة بين يدي من يجزها كقوله (إشعيا ٥٣: ٧) "كنعجة صامتة أمام جازّها". وقال الشاعر العبراني في ذلك:

كم أرجو إلهي وأبناء　　راحيـــل مذبوحين كشاة

وإلـــى متـــى تستمر　　في شتات قد ضربته[١].

أو كعصفــور في يد طفل يلعب به. وقد بلغت نفس العصفور إلى الهلاك وما الطفل شاعر بذلك[٢]. وقد قال شاعر عبراني:

واقعة في يد عـــدو　　كعصفور في يد طفل

يعـــذبه ويضحـــك　　وهـــو يـــأن أنينا[٣]

وقال شاعر العرب في هذا المعنى:

كعصفورة في يد طفل يسومها　　ورود حياض الموت والطفل يلعب[٤].

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر سليمان بن جبيرول بعنوان (שדודים נדודים - مسلوبون مشردون)עיין/ שירי הקודש לרבי שלמה אבן גבירול، מאת: דוד ירדן، ירושלים، תשל"ז، כרך שני، עמ' 362. (انظر: الأشعار الدينية لربي سليمان بن جبيرول، إعـداد: دفيد ياردن، القدس، ١٩٧٧، الجزء الثاني، ص ٣٦٢).

(٢) في النص (وما عند الطفل شاعر من ذلك).

(٣) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر سليمان بن جبيـرول، بعنـوان (שזופה נדופה - مشتتة مبددة)، (المرجع السابق، ص ٣٦٦).

(٤) ينسب هـذا البيت للشـاعر بن الزيات (١٧٣ - ٢٣٣هـ) (٧٨٦ - ٨٤٧م) وهو محمد بـن عبد الملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر المعروف بابن الزيات، وزيـر المعتـصم والواثـق العباسيين، وعالم باللغة والأدب من بلغاء الكتاب والشعراء.

انظر: الموسوعة العالمية للشعر العربي WWW.adab.com. =

ومع ذلك بأسره ما يرثي[1] لنا. ولا يرحمنا ولا يتوجع لنا أحد مما نحن فيه كقوله (إرمياء١٥: ٥) "ومن يعزيك ومن يميل ليسأل عن سلامتك"، وقد رثت الأمة نفسها بمراث[2] طويلة فمن ذلك سفر المراثي بما فيه، والأنبياء رحمهم الله كلهم شرحوا من ذلك في أسفارهم ما شرحوا، وسيدنا عليه السلام قد تنبأ بخراب القدس، وبما نال الأمة من النكال في مزمور (المزامير ٧٩: ١) "لأساف اللهم إن الأمم قد دخلوا ميراثك". وكثير مثل ذلك في كل جيل، وأجيال لحكماء الأمة مراث[3] لا تسعها الأوراق ولا تحويها الخواطر لكثرها[4]. وكذلك في هذه الأزمان ألّف سليمان الصغير وربي يهودا اللاوي مجلدات في مثل ذلك. ولنذكر من تأليفهما فقرتين أو ثلاثًا للطف صنعتهم[5] وعجيب قولهم. فمن ذلك سليمان رحمه الله: ***انقضت سنواتنا في فقر ومذلة نرجو الرب وإذا بمهانة ووضاعة. حكم العبيد ونحن في العوز فلتخلص يا رب لأن بك القدرة. ومن أجل جلالك يا رب اصنع معجزة لصالحنا. يا إلهي إلى متى نهاية المعجزات. حكم عليّ من سكن حتى الذي ركع. وشتتني لعيلام ومشاخ وتيراس وأيضا لإسماعيل قتل وخرّب، خمسمائة وتسعة وخمسين عاما. يا إلهي إلى متى نهاية المعجزات؟ وله رحمه الله: منقسمون مضطهدون مثقلو الكاهل مجزوزن مخرَبون تدهسنا الأقدام. إلى متى يا رب يصرخون ظلما؟ منذ عدة سنوات يعملون عبيدا ومن الشقاء ذابت قلوبهم،***

= ورد هذا البيت فى النص كما يلى:

كعصفورة فى يد طفل يسموها   ورود حيا من الموت والطفل يلعب

(١) فى النص (يراثو)

(٢) في النص (مرثو).

(٣) في النص (مراثو).

(٤) في النص (لكثرها).

(٥) في النص (ثلاثة للطف صنعتم).

إسماعيل كأسد، وعيسى كصقر، هذا يتركني وهذا يأخذني. يا رب يا مليكنا إليك رجونا. ولربي يهودا اللاوي رحمه الله: ***قنطوا وعادوا إليّ وضباب دخل عليّ وحدد طريقي. توقف الرعاة وخرب الأشرار بستاني في أول ثماره وفي نهاية لا تصدق، لا يوجد من يخلص. وظهر الجلال بين الشوك والحسك، الأعداء كثيرون، وخصومي كثيرون. فهم كالعقارب ضدي. وغاب الخير. ويل لي لأنني سكنت على طول مقامي وسط خيام قيدار.***

وكثير مثل ذلك إلى أبعد[1] غاية ونهاية. فلولا ما نحن واثقون به ومعتقدون[2] له من مواعيد البارئ عز وجل التي لا تختلف المشهودة على ألسن الأنبياء المدونة[3] في كتبهم الصادقة المنقولة إلينا من أب وجد، لكنا قد ضعنا وهلكنا قاطبة وخاصة توثقنا بقوله سبحانه (اللاويين ٢٦: ٤٤) "ولكن مع ذلك أيضا متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم". وصرنا في هذه الحالات الصعبة والمقاساة العظيمة، ونحن مستمسكون بشرائعه، ملازمون لأحكامه، واثقون[4] بعهوده، غير مبطلين لشيء من ذلك لقوله ***كل هذا حلّ بنا ولم نخن عهدك***، وقوله (المزامير ٤٤: ١٧، ٢٢،٢٠) "وإن نسينا اسم إلهنا وبسطنا أيدينا إلى إله غريب أفلا يصفح الله عن هذا". فلو نال بعض الأمم عشر العشير أو الشيء اليسير مما نالنا من قادم الزمان إلى الآن لزالوا عما هم فيه من التدين. ولخلعوا مذاهبهم سريعا. فحاشا الخالق القدير، ***يتبارك اسمه ويتعالى مجده*** أن يوصل إلينا وعيده. ويبقى وعده الصادق الذي لا يخيب رجاءه كقوله سبحانه

---

(١) في النص (بعد)

(٢) في النص (واثقين به ومعتقدين).

(٣) في النص (المديونة).

(٤) في النص (مستمسكين... ملازمين... واثقين).

(إشعيا ٤٩: ٢٣) "إني أنا الرب الذي لا يخزي منتظريه". ونحن راجون[١] لذلك كل عصر وزمان وهو منعم به وموصله إلينا في الوقت الذي قد سبق علمه، وقدره بتقديره، وحتمه بحتمه الوثيق. ولو كانت ذنوبنا توجب تأخير ذلك وقد علم سبحانه حال ضعفنا في *الشتات*[٢]، وقلة[٣] طاقتنا على فعل شرائعه، ولو لعمري قد كان فينا بعض تحرز أكثر من سائر الأمم التي في الأقاليم. فمن ذلك التزام جمهورنا ببعض التعاليم مثل ***تعاليم السبت والختان والفصح والحيض "النجاسة"***، وسائر ما بلغت مقدرتنا عليه مثل ***لا تزن ولا تقتل*** وسواها حتى لا يتظاهر منا في الأسواق ***زانيات، وعابدو الأوثان، وسفك الدماء***. كما يتظاهر سائر الأمم في أسواقهم، ولو قد أمعنّا في المعاصي مثل بعض ما أمعنوا وتظاهرنا بها مثل ما تظاهروا لما بقي علينا بقية. وقد علمت قصة (إشعيا ٣: ١٦) "وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن"، وما وبّخهم النبي وما نالهم بعد ذلك من العقاب الشديد. وآل ذلك إلى خراب القدس والبلْد بأجمعه.

وقد كفى الأمة ما نالها من المصائب كقوله (إشعيا ٤٠: ٢) "إنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها". فكيف من هم عباده ولهم ما لا يحصى من *الذنوب*[٤] والمعاصي والسرق والخيانات، والغصب وسفك الدماء، ولكننا

---

(١) في النص (راجين).

(٢) في النص (الجلوت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها الشتات أو المنفى.

(٣) في النص (قلت).

(٤) في النص (العفيروت) وهي لفظة عبرية أدخل عليها المؤلف أداة التعريف العربية ومعناها الذنوب أو المعاصي أو الآثام.

محسنون[١] الظن بخالقنا بأنه كلّفنا ما لم يكلف سوانا. وناقشنا أكثر من مناقشتهم. وجعل عقابنا ولم يجعل على سوانا، وذلك لمحبته سبحانه لنا، لتشريفنا كما سبق الشرح في أول الفصل. وشهدت بذلك شريعتنا وشريعتهم. ولم يقدروا أن ينكلوا[٢] عن ذلك بوجه، وخاصة لما سبق من وعده سبحانه لآبائنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب كقوله (التثنية ٢٩: ١٢) "لكي يقيمك لنفسه اليوم شعبا"، ونضرب لذلك مثلا برجل طبيب ماهر دخل على مَريضَين فرأى أحدهما دنفًا[٣] على الموت والآخر بقي في بقية يرجى بها العافية. فقال الطبيب لأهلهما: احموا هذا لا يأكل إلا الغذاء الفلاني، ولا يشرب إلاّ الشراب الفلاني بالميزان، ولا يمتلئ من الطعام والشراب، وهو يعني المريض الذي يرجى عافيته. وقال لهم: اتركوا هذا المريض الآخر بخيرته يأكل ما شاء، ويشرب ما شاء بغير وزن. ولا تمنعه شيئا لأنه قد يئس[٤] من عافيته. وكذلك البارئ سبحانه مثل الأعلى وجل على أن يمثل له مثل. حظر[٥] علينا كثيرا من المآكل والمشارب والملابس والمناكح وسواها ما لم يحظره[٦] على سوانا من سائر الأمم كقوله (حبقوق ٣: ٦) "وقف وقاس الأرض نظر فرجف الأمم"، أحلّ لهم ما شاء مما لم يحله لسواهم. وكذلك كلفنا سبحانه كلفا كثيرة مما لا يكلف سوانا مثلها كقوله (المزامير ١٤٧: ١٩) "يخبر يعقوب بكلمته وإسرائيل

---

(١) في النص (محسنين).

(٢) في النص (يقدروا ينكلوا).

(٣) في النص (مدنك). أما دنف فقد ورد في المعجم الوجيز(دَنِفَ المريض)- دَنَفًا: اشتد به المرض وأشفى على الموت. فهو دَنِفٌ. انظر: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص٢٣٥.

(٤) في النص (أيس).

(٥) في النص (حضر).

(٦) في النص (يحضره).

بفرائضه وأحكامه ولم يصنع هكذا بإحدى الأمم". وكذلك سمّاها ***فرائض وأحكامًا عادلة*** أنه لا يمهل من تعدى عليها بحقه. وقال عنها (المزامير ٩٣: ٥) "شهادات الرب ثابتة جدا"، وقال (المزامير ١٩: ٨) "شهادات الرب ثابتة"، وصار ناقشنا عليه بالعاجلة لشرفنا عنده كقوله (عاموس ٣: ٢) "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم"، وتفسير ***عرفت*** شرفتكم، مثل (الخروج ٣٣: ١٢) "عرفتك باسم". فيبادرنا بذلك ليمحص عنّا سيئاتنا[١]، كما يبادر الأب الشفيق ولده بشرب الدواء المر على كره من الصبي، لاستنزاع الخلط الرديء من جسمه، ولمعرفة الأب بمصالحه أكثر من معرفة الصبي بمصالح نفسه. فيجب علينا أن نقبل زجره وعقابه بطيبة نفس ليكون الثواب لنا أكثر لحسن جزائنا كقوله (الأمثال ٦: ١٢) "لأن من أحبه الرب يؤدبه". ونسأل الله أن يجعلنا وإياك من أتقيائـــه، ومحبي أنبيائـــه وأوصيائـــه وأوليائه، وأن يفرج علينا برحمته ويختم لنا بخير بعزته.

تم الفصل السادس، ويتلوه

---

(١) في النص (عننا ساياتنا).

الفصل السابع

في ذكر الآخرة التي هي المنتهى وإليها المأوى، دار الحياة والبقاء

اعلم يا أخي، أسعدك الله وإيانا، بروح منه أن البارئ سبحانه عز وجل ينقل الإنسان من حال إلى حال على التدريج، فالحال التي[1] ينقله إليها أوفى وأعلى وأشرف من الحال التي كان فيها. بيان ذلك أنه كان معدوما بالجملة موجودا[2] بالقوة في المعادن والنبات حتى صار منيًا في صلب والده. فنقله الله سبحانه من صلب أبيه نطفة مني إلى الرحم، فأحدثت به هنالك قوة الطبيعة مما أفادتها النفس الكلية تسمى تلك القوة النامية. فأنمته هنالك في دم الطمث حتى صارت تلك النطفة مني مضغة. ثم بعد ذلك صارت علقة بالتدريج بعناية الحكيم الجبار القدير حتى اكتست وصارت لحما وعظاما[3] وتلك القوة فيها تزداد[4] بتقدير العزيز الجبار إلى

---

(١) في النص(الذي).

(٢) في النص (معدوم بالجملة موجود).

(٣) في النص (لحم وعظام). هناك تأثير قرآني واضح في العبارات السابقة فقد وردت هذه المعاني في قوله تعالى في سورة الحج ﴿يا أيها الناسُ إن كنتمْ في ريبٍ مّنَ البعثِ فإنّا خلقناكُم مّن تُرابٍ ثُمّ من نُطفةٍ ثمّ منْ علقةٍ ثمّ من مُضغةٍ مُخلّقةٍ وغيْرِ مُخلّقةٍ﴾ الآية(٤). وكذلك في قوله تعالى في سورة (المؤمنون) ﴿ثمّ خلقنا النُّطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغةً فخلقنا المُضغةَ عظاما فكسونا العظامَ لحمًا ثمّ أنشأناهُ خلقًا آخر فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين﴾ الآية (١٤).

(٤) في النص (تزتاد).

أن تكمل صورته وتتم بنيته، ويؤون الوقت الذي قدر الخالق سبحانه أن ينقله فيه من هنالك إلى نسيم الدنيا. فيخرجه من هنالك من أضيق طريق من ذلك الحبس المظلم الذي كان فيه. لا يرى شمسا ولا قمرا ولا نجوما[١] ولا سوى ذلك من نسيم الدنيا وأغذيتها الطيبة وملابسها الحسنة وسائر نعيمها على اختلاف فنونه. فعند خروجه إلى نسيم الدنيا يبكي ويكثر حزنه وتضيق أنفاسه لفقد مأواه الذي كان فيه. ولا يعلم أن الخلاّق سبحانه إنما نقله من حالة دنيئة إلى حالة جليلة. ومن رتبة وضيعة إلى رتبة رفيعة. فحينئذ تتحدث به قوة أخرى من قوى الطبيعة مما أفاضت إليه النفس الكلية، يقال لها الحسيّة، فيحس بالبرد والحر والتعب والألم. ويلتذ بالراحة والنوم والغذاء. ويقلب الله له ذلك الدم الذي كان في الرحم لبنا عذبا يمتصه مـــن الثديين لا مفرط في الحلاوة فيمله. ولا حامض ولا مالح ولا دسم ولا فيه من سائر الطعومات المفرطات شيء سوى العذوبة المعتدلة اللذيذة. ولا هو غزير فيسيل، ولا النقوب منسدة فيصعب عليه المص، فيقيم على هذه الحالة مدة إلى أن يفطم وتتم له سنو[٢] التربية وهي أربع سنين. فتحدث به[٣] حينئذ قوة أخرى من قوى النفس الكلية وهي القوة الناطقة. فينطق بالكلام أولا بأول[٤] على التدريج والنظام. وعاد القوتين الأوليين[٥] في فعلهما النامية والحسيّة. ويمشي على رجليه. ويأكل ويشرب وينطق ويتعلم ما ألقي إليه من الكتابة والسواد. ويحفظ ما قدر عليه إلى أن يبلغ الحلم فتحدث به حينئذ قوة عقلية أوفى وأعلى من تلك القوى الأوليات[٦] الثلاث. فيميز الخير من الشر وتلزمه الفروض الشرعية والحدود

---

(١) في النص (لا يرى شمس ولا قمر ولا نجوم).
(٢) في النص (سني).
(٣) في النص (فتتحدث به).
(٤) في النص (أول بأول).
(٥) في النص (الأولتين).
(٦) في النص (الأولات).

الناموسية، وهو في ذلك إلى زيادة إلى أن يصير ابن ثلاثين سنة فيزداد حلما وعلما، إلى أن يكمل في الأربعين والخمسين، إلى أن ينتهي عمره إلى ستين. فتحدث به حينئذ قوة روحانية منبعثة أقوى وأوفى من تلك[١] القوى، إلى أن تجيء نقلته التي قدرها الله الحكيم العليم فينقله إلى دار الآخرة، إما سعيدا وإما شقيا[٢] بما اكتسبه في هذه الدنيا. فإذا قدر نعيم هذه الدنيا جميعه إلى نعيم الآخرة لم يكن[٣] جميعه كنقطة ماء إذا قيست إلى ماء البحر بأسره. كما أن راحة الجنين التي كان فيها في بطـــن أمه[٤] لا تجيء قيراطا من مائة ألف ألف من نعيم الدنيا بأسرها. فتبيّن كما ذكرنا أن الله سبحانه ينقل الإنسان من حالة إلى حالة أرفع منها، وأن الآخرة أوفر حالة وأعلى درجة وأشرف رتبة من الدنيا بأطوار كثيرة إلى غير حد وصفة.

فلما صح ذلك جهل الناس أمور الآخرة. ولم يقدروا أن يتصوروها. وعادهم في الدنيا. كما جهل الجنين تصور الدنيا وعاده في الرحم مسجونا[٥]. فلو أمكن يسأل الجنين تصوير الدنيا وعاده في الرحم في بطن أمه ويقال له: أي ما أحب إليك وقوفك في موضعك هذا الذي أنت فيه. أو تخرج إلى موضع أنفس منه في فساح الفضاء وهبوب الهواء ونسيم الدنيا. وفيه أغذية مختلفة الطعوم وملابس مختلفة الألوان، ونكاح وشراب وغطاء ووطاء وشمس وقمر وكواكب ومعادن وحيوان وغير ذلك من نعيم الدنيا، لقال لهم الجنين: غرّوا غيري، بل هذا الذي أنا فيه أحـــب إليّ وأروح عليّ وأفتـــر لي ممّا ذكرتم. لأني في موضع لا يصل إليّ لا حر، ولا برد، ولا رياح، ولا مطر، فلو أمكن ذلك يا أخي لكان جواب الجنين

---

(١) في النص (أوليك).

(٢) في النص (إما سعيد وأما شقي).

(٣) في النص (لم يكون).

(٤) في النص (أم).

(٥) في النص (مسجون).

مسموعا[١] وعذره مقالا[٢] لجيله بدار الدنيا وبما فيها، وبقصر فكره عن تصور ذلك. والخالق جلّ جلاله إنما هو أعرف منه بمصالحه فهو ينقله من حال إلى حال على ما توجبه حكمته.

وكذلك يا أخي أبناء الدنيا لما قالت لهم الأنبياء عليهم السلام: اعبدوا الله حق عبادته، وازهدوا في أصول الدنيا، فقد أعدّ لكم الثواب الجزيل في دار كرامته فيها ما يلذ النفوس ويقذي[٣] العيون، فجهلوها لقلة فهمهم عنها. وتمنوا الخلود في دار الدنيا. ولم يعلموا أن نِعَمها نِقَمْ، وصحتها سقم، وعن قولهم لهم نقم[٤]. تأكل ما كانت تطعمه. وتهون ما كانت تكرمه. تجعل كثيرهم قليلا وعزيزهم ذليلا [٥]، وقد ذمّها بعض الصالحين وقال:

أفّ للدنيا الذي ألذ ما أُكل فيها العسل، وهو من ذبابة
وأنعم ما لُبس فيها الحرير وهو من دودة
وأذكى ما أُشم فيها المسك وهو من دابة
وأطيب ما فيها النكاح وهو صبّ مبول من مبول.

وبالجملة يا أخي يكفينا فيها على حال الصحة دخول الخلاء والتنظف منها دائما. ولو جهل الناس أمور الآخرة لعذروا؛ لأن حد الإنسان في العلوم إلى مقدار ما لا يقدر أن يتعداه ولا يبلغ فوقه. مثال ذلك أن الله سبحانه خلق الإنسان متوسط

---

(١) في النص (مسموع).
(٢) في النص (مقال).
(٣) في النص (يقذ).
(٤) النص (لقم).
(٥) في النص (كثيرهم قليل وعزيزهم ذليل).

الحالة في جميع أموره. فمن ذلك بنية جسمه أنه ليس كالأجسام الجافية مثل جسم الفيل والجمل والكركذان وما أشبه ذلك من الأجسام الجافية الهائلة، ولا التي مثل التهم من نيب وظفر ومخلاب وحافر[١] وكف وغير ذلك. ولا جعل أيضا مثل صغار الحيوان ولا الهوام. بل خلقه في أحسن تقويم في حالة متوسطة. وكذلك نفسه لم يجعلها الله كالملائكة بالفعل، ولا مثل أنفس البهائم بل متوسطة من الحالتين. وكذلك حواسه[٢] متوسطة التركيب، فبحاسة البصر لا يقدر أن[٣] يبصر ويتبيّن إلا ما قرب وتبين له من الأشكال والألوان بتوسط النور. فإذا عدم النور لم يبصر في الظلام شيئا من الألوان. وكذلك سمعه فالناس يسمعون[٤] ما قرب وسهل لهم[٥] لا ما بعد وصعب، مثل حركة الفلك إلاّ أصوات الصواعق والأصوات الهائلة. وكذلك لا يقدر أن يسمع مشي النملة للطف ذلك. وكذلك اللمس لا يقدر أن يلمس النـــار لإفــراط حــرارتها. وكذاك الهواء للطف جرمه. وكذلك قوة النطق لا يقدر أن يطلق كلمتين معا فما فوق ذلك، فضلا على أن ينهق كالحمير وغيرهم. وكذلك غذاؤه متوسط لا يقدر أن يأكل الأشواك والنوى والحشائش، والعجم كالبهائم، ولا الخشب كالديدان. فكل أموره متوسطة الحالة معتدلة الترتيب. فلما صح ذلك دلّ أنـــه أيضا لا يقدر أن يعلم فوق ما في طاقته ولا يحيط بفوق ما في قوّته. وقد نطق الكتاب بمثل ذلك إذ قال العلي الأعلى لكليمه موسى عليه السلام (الخروج ٣٣: ٢٠) "لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنســان لا يــراني ويعيـــش". وفسّر ذلـــك بعض المفســرين: لا تستطيق أن تنظر إلى ذاتـــي فلـــيس يقـــدر

---

(١) في النص (حاطر).

(٢) في النص (أحواسه).

(٣) في النص (لا يقدر يبصر ، وقد تكرر هذا الاستخدام كثيرا).

(٤) في النص (يسمع).

(٥) في النص (له).

يراني آدمي فيحيا. وكذلك الحواس لا تقدر أن تصل إلاّ قدر طاقتها التي ركبها فيها خالقها سبحانه وتعالى لا سوى ذلك. فقوة البصر لا تُدرك بها قوة السمع. وقوة السمع لا تُدرك بها قوة الشم. وقوة الشم لا تُدرك بها قوة اللمس. وقوة اللمس لا تُدرك بها قوة الذوق. والكل على هذا السبيل. وحد أصل الأشياء المذاقة تسعة طعوم. وهي حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة ودسومة وحروفة وعفوصة وتفوهة وعذوبة. ولها فروع أخرى كثيرة لا يحصيها إلاّ الله عز وجل. وكذلك الملموسة عشرة أنواع: حار وبارد ورطب ويابس وثقيل وخفيف وصلابة ورخاوة وخشونة وليونة. وكذلك المنظورة ستة ألوان وهي: أبيض وأسود وأحمر وأخضر وأصفر وأسمانجوني. وكذلك المشمومة ثلاثة: طعين، طيب، ونتن. وأما الأمور المسموعة فإلى غير حد. إذ أصوات الناس مختلفة على قدر لغاتهم من عربي وعجمي وهندي وفارسي وسوى ذلك. وكذلك أصوات البهائم على جنسها. وأصوات الطيور على جنسها، وأصوات الهوام على جنسها، وأصوات الرعود وهبوب الرياح وما أشبه ذلك، والأبواق والصنوج واصتخاخ الأجراد الأرضية والمعدنية بعضها ببعض، وزفير البحار وأصوات السيول والأمطار وسواها ما لا يحصى ذلك عددا إلا منشؤها وبارؤها[1] ومكونها جل جلاله.

فقد صح أن الواصفين لا يحيطون بوصفها، وجلالة قدرها، لضعف فهمهم وقلة تمييزهم عنها، وأن الله سبحانه أنه ناقل مستحقيها إليها من عذاب الدنيا وألمها وجوعها وعطشها وحرّها وبردها وهمومها وغمومها وحزنها ومصائبها وزوالها وتقلبها بأهلها والخلاص من الجهل وأهل الكنى والفساد والحسد والشرور التي لا تحصى عددها.

(١) في النص (منشيها وباريها).

واعلم يا أخي أن الشر لم يخلقه الله تعالى؛ لأنه سبحانه قال في محكم كتابه (التكوين ١: ٣١) "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا". فالشر لا أصل له في الخليقة، وإنما بنو آدم الذين[١] خرصوه وسببوه وفعلوه[٢]. وسنذكر من ذلك طرفا.

---

(١) في النص (بني آدم الذي).

(٢) إن قضية الخير والشر من المشكلات الفكرية التي عرضت لها الأديان السماوية والمذاهب الفلسفية، وتعددت حولها الآراء والتساؤلات منها: حول بيان الإرادة الإلهية، وعلاقتها بفعل الإنسان من جانب، وبوقوع الشر في العالم من جانب آخر. وهل الآلام والأمراض التي يضج بها الكون تقع مرادة لله؟ وهل الشرور والمعاصي التي يفعلها الإنسان تقع بإرادته؟ وما الحكمة الإلهية في وجود الشر في العالم إذا صح أن هناك شرا حقيقيا. وقد بيّن لنا القرآن الكريم أن الابتلاء هدف مقصود من كل ما ينزل بالعبد من ألوان القضاء، وأحكامه ويتضح ذلك في قوله تعالى في سورة الكهف الآية (٧) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وكذلك قوله في سورة الأنعام الآية (١٦٥) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ ومن الواضح أن المؤلف قد تبنى هنا آراء فرقة المعتزلة الإسلامية، وهي من أبرز المذاهب الفلسفية التي اهتمت بهذه القضية وتقوم فلسفتهم على أساس أن الإنسان مسئول عن وجود الشر في العالم وهم يفرقون في ذلك بين جانبين: الجانب الأول: ما يحل بالإنسان من نوازل البلاء كالآلام والأمراض وما شاكلها، وهذا النوع يتعلق بالقضاء الكوني والذي عبّر عنه القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لذا فهذه الأمور تعد بلاء وابتلاء وفتنة ومحنة، ولا يحاسب عليها الإنسان، وإنما طلب منه الصبر في الضراء والشكر في السراء، وهي ليست ظلما ولا عبثا، وإنما تهدف إلى حكمة إلهية مقصودة فإن صاحبها يثاب عليها بالعوض عنها في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما. أما الجانب الثاني: فيقوم به الإنسان نفسه من أعمال سيئة كالمعاصي والقبح، فهذا النوع يسمى شرا وهو ما يحاسب عليه الإنسان ويسأل عنه. انظر: محمد سيد الجليند: قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي- أصولها النظرية، ١٩٨١، ص٤١.

اعلم يا أخي، أيدنا الله وإياك بروح منه، أن الشر ليس له أصل في خليقة الباري سبحانه، وعلى أن قد قال النبي (إشعيا ٤٥: ٧) "صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذا". فنبيّن ما عرفنا من ذلك مما تعلّمنا من سوانا بمنّ الباري سبحانه علينا وتفضله لدينا، وذلك أنّا تصفّحنا جميع خلائق الله جل وعز فوجدناها خيرا كلها، وعلى أن كثرتها متضادة[1] مثل الليل والنهار والضياء والظلام والموت والحياة والغنى والفقر وما أشبه ذلك للدلالة على وحدانيته وعلى حكمته أنه يخلق الشيء وضده. وما فعل ذلك شرا[2]. وعلى أن من لم يرتض[3] بالحكمة يزعم أن الموت والفقر والظلام شر هي وما يشبهها. وذلك لقلة ارتياضهم في العلوم الشريفة. فأمّا الموت فهو خير محض وحكمة إلهية على ما ذكرنا من ذلك طرفا في فصل التوكل على الله سبحانه. فالحكمة لا تكون شرا بل خيرا، وعلى أن الذي خفي من فضيلته أكثر مما حُكي، فإن الباري سبحانه صنعه بعباده مما يراه أوفق بهم وأليق بهم ولو نافر بعضها طبعنا. فمن فضيلته أن أصحابه محتاجون[4] إلى الباري سبحانه خاشعون[5] له حتى لا ينقطع ذكره من أفواههم ليلا ونهارا، خلاف ما الأغنياء فيه من العطنة والبطرة والغفلة عن ذكر الله تعالى. والشغل بما هم فيه، الذين لو وصلوا إلى أقصى بغيتهم فهم على لا شيء. إذ هم تاركوه لسواهم ولا بد من أن يفارقوا نعمتهم أو تفارقهم هي. وكذلك أهل الفقه آمنون[6] من جور السلطان

---

(١) في النص (متضاددة).
(٢) في النص (شر).
(٣) في النص (لم يرتاض).
(٤) في النص (محتاجين).
(٥) في النص (خاشعين).
(٦) في النص (أهل الإفقاه أمنين).

ومضارته[١] لأهل المال، وآمنون[٢] من قطاع الطُرُق، ومن سرق الليل ومن شغل النفس بالهموم في أوقات الخوف. وتقسم فكرتهم في حفظ المال. وترقب الذي تحول مع أسعار البضائع من الرخص والغلاء وحفظ السلع في المخازن[٣] وفي البر والبحر. كقول بعض العلماء في ذلك: نعوذ بالله من تفرق النفس. قيل له: وما ذلك؟ قال: كثرة المال. وقد قال أيضا *الحكماء* رحمهم الله (مبحث الآباء: ٢ /٧) "كثير المال كثير الهموم".

وقال شاعر العرب في ذلك:

نزداد هما كلما ازددنا غنى   والفقر كل الفقر في الإكثار[٤]

وبالجملة يا أخي ما قد اكتفى الفقراء من أمور الحساد وبغيهم وشرهم وغبطتهم لذوي الأموال فهم بمعزل عن ذلك متخلصون مستريحو[٥] الفكرة، مشغولون[٦] بذكر الله سبحانه وذكر معادهم، زاهدون[٧] بما في أيدي الناس الأغنياء. فكفى بهذه راحة لهم.

---

(١) في النص (مضاررته).

(٢) في النص (أمنين).

(٣) في النص (المخازين).

(٤) استعار المؤلف هذا البيت من قصيدة (حكم المنية في البرية جارِ) للشاعر اليمني (علي بن محمد التهامي) (ت/ ٤١٦هـ) ولد ونشأ باليمن وأصله من الكوفة، وقد نظم هذه القصيدة في ذم التكالب على تحصيل الأموال والإكثار من جمعها. *www.adab.com*

وورد هذا البيت في النص على النحو التالي:

نزتاد همّا كلما ازتدنا غنى   والفقر كل الفقر في الإكثارو.

(٥) في النص (متخلصي مستريحي الفكرة).

(٦) في النص (مشغولين).

(٧) في النص (زاهدين).

وقد[١] يغفر لهم البارئ سبحانه بذلك ذنوبا[٢] عظيمة تقدمت لهم فصاروا قد عوقبوا في دار الدنيا أجمل لهم من عقاب الآخرة للطف الله بهم. وإن لم تكن[٣] لهم ذنوب متقدمة فهنيئا لهم فإن ذلك محنة من الله تعالى يتجربهم بها في دار الدنيا ليعوّضهم عنها بما هو أشرف وأوفى وأعلى من الأموال التي في الدنيا، والله عز وجل لا يمتحن إلا محبيه وأولياءه كقوله (الأمثال ٦: ١٢) "أن من يحبه الله يؤدبه" وقال (المزامير ١١: ٥) "الرب يمتحن البار". فقد صح أن ليس هو شرا، وما خفي من معانيه أكثر مما اتضح.

وكذلك الليل والظلام لولاه لما عرفت تواريخ السنين والشهور والقرانات. ولا نُظرت الكواكب الظاهرة بالليل ولاعُرف قدر حكمة صانعها وجلالته وحكمته الباهرة الظاهرة. فافهم خصوصا على ما بيّنا طرفا من ذلك في فصل التوكّل على الله. وكذلك لو كان الزمان كله نهارا لتقطعت أجسام الحيوان من اتصال التعب والكد والعمل المتواصل طول الزمان. ولما كان هنالك راحة ودعة. وقد سمّي النوم راحة كقوله (أيوب ٣: ١٣) "حينئذ كنت نمت مستريحا"، فصار خيرا. وعلى أن الموت ليس هو فقد الحياة وعدمها، وترك النفس استعمال الجسم، والفقر عدم المال، والليل عدم نور الشمس ومغيبها تحت الأرض، فيظلم ظل الأرض على الهواء، وعلى أن عاد لجميـــع ما ذكرنا أسرار شريفة ومعانٍ[٤] جليلة لا يحيط بها إلا الله تعالى ومن أنعم عليه وآتاه شيئا من علمها من الأنبياء ومن تورث علمهم من بعدهم.

---

(١) في النص (وقد ربما).

(٢) في النص (ذنوب).

(٣) في النص (لم يكون).

(٤) في النص (معاني).

فقد صح أن البارئ سبحانه لم يخلق الشر، وإنما الشر حدث في دار الدنيا من بني آدم لمّا مكنهم البارئ سبحانه من جميع الخيرات فاستعملوها على غير جهاتها، وجعلوها في غيرها فصارت شرا. مثال ذلك أن الله عز وجل مكّن الإنسان من النطق لينطق بذكره وبأوامره ونواهيه. وليقرأ كتابه الذي كتب بيده، وينطق بما ينال به خيرا وما أشبه ذلك. كقول بعض الصالحين:

رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم[1].

فتكلم بعد ذلك مثال الكذب والزور والبهتان والباطل والشتم وقذيفة الناس وقذعهم فصار كلامه شرا محضا، وكذلك بطشه بيده واستعماله باقي حواسه على هذا المثل، وبالخاصة قوة الجماع التي جعلها البارئ عز وجل في الإنسان لإقامة الصورة البشرية، ولحفظ جنس الآدمي. وأمره في شريعته بأن يجعل ذلك حلالا بكتاب وشهود شاهرا ظاهرا بامرأة محصنة مما يحلها له الشرع المفروض. فإذا نكح على غير هذه الشروط فقد زنى. وصار ذلك شرا. حتى أكْل الطعام وشرب الشراب إذا تناول منه الإنسان فوق حاجته وفي غير وقته أتخمه وآلمه. وأحدث عليه أوجاعا وأوراما[2] واستسقاءً. وكان سبب هلاكه. فذلك شر محض[3]. وكذلك باقي الأشياء حتى النار إذا لم يستضئ بضوئها وينتفع بالخبز والطبيخ بها، وما شاكل ذلك وعمد أن يحرق بها الأشياء ويشعلها لغير حاجة ولغير منفعة، صار ذلك شرا. وجميع الموجودات إذا تناولها على غير مواضعها صارت شرا. حتى العلم

---

(١) هذه المقولة اقتبسها المؤلف من حديث شريف لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث ورد عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَيِّتُون، وَإِلَى اللَّهِ صَائِرُونَ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَغَنِم، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ". انظر: ***hadithwww.islamweb.net***

(٢) في النص (أوجاع وأوورام).

(٣) في النص (شرا محضا).

إذا أعطي غير أهله ومستحقه صار شرا. وهو أعظمها وأصوبها وأكثرها عقوبة عند الله. وقد قال *الحكماء* رحمهم الله في ذلك (مبحث سنهدرين ٧:٢) "كل من يرشح تلميذا غير كفء كأنه غرس سارية"، وقيل (التثنية ١٦: ٢١) "لا تنصب لنفسك سارية من شجرة"، فيحدث منه شرور في العالم وفساد. فيفتي بما لا يعرف. ويعمل بما لا يعلم. ويخبط في الظلماء فيضل. فينزل الله بسببه المصائب على أهل الدنيا كما علمت من قصة يربعام بن نباط الذي قيل فيه (الملوك الأول ١٥: ٣٠) "كل خطيئة يربعام التي أخطأها وجعل بها إسرائيل تخطئ"، وقالوا (الآباء ٨٥/٤٠-١٨) "وكل من جعل الربانيين يخطئون فخطيئة الربانيين مرتبطة بهم"، وخاصة إن نصّب تلميذا يفتي ويحكم، فالويل له ولمن نصبه أكثر. وما على العالم بأسره أشد من فعل ذلك كقول الحكماء رحمهم الله (مبحث الآباء ٤٩) "خراب يصيب العالم من جراء من يدعو إلى حكم من التوراة ليس كما ينبغي"، حتى بمن يؤم بالجماعة وهو لا يعرف ما يتقدم به، فالويل له ولمن قدّمه أكثر، كقول **الحكماء** رحمهم الله (مبحث البركات ٢/٣٤) "كل من يمر أمام التابوت ويخطئ فحظه سيئ. وإذا كان إماما للصلاة فحظ من أرسله سيئ. فإرسال الإنسان كموته".

ومن أوصاف *إمام الصلاة* أن يكون متقيا لله سبحانه، عالما فهيما متقنا عارفا لما يتقدم به بين يدي الله تعالى من مناجاة واستغفار وموعظة وتسبيح وتمجيد وتهليل وتقديس وغير ذلك من تفسير اللغة ومعانيها ومجازاتها وتحرير القراءة كما يجب. ويكون عمره ابن عشرين سنة فصاعدا ***ويعرف كيف يكون فقيها في التوراة وفي معانيها وتفسيراتها وقواعدها. ويجب أن يكون بارا مستقيما وبدنه خاليا من كل عيب. وإذا لم يكن كذلك ومرّ باستهانة أمام التابوت حتى لو كان صوته عذبا، حيث ورد*** (إرميا ١٢: ٨) "صار لي ميراثي كأسد في الوعر، نطق عليّ بصوته من أجل ذلك أبغضته"، وقال ***الحكماء*** رحمهم الله (مبحث تعنيت

١٦/ ٢) "إن الذي ينصّب أمام التابوت إماما غير كفء حتى لو كان صوته عذبا، ففي أحيان كثيرة يكون غير فطن وينطق بأقوال ليست كما ينبغي أن تقال، ويختلط عليه الرأي، فيبعد بذلك إسرائيل عن أبيها الذي في السماء". ***وإذا كان شابا ولديه كل الصفات التي ذكرناها أو كبير السن وبيته خاليًا من المعاصي وسيرته حسنة، ولم يُشتهر باسم قبيح منذ طفولته، ولم تتردد عنه بين الناس أحاديث مشينة. فمثل هذا يكون محبوبا من الرب ومن الناس، وصلاته مسموعة أمام عرش الجلالة ويُرضي إسرائيل عند أبيها الذي في السماء، ولابد أن يكون محبوبا حتى يرضى الله تعالى عنه. وكذلك من يكلف بمهمة القضاء والحكم في إسرائيل يجب أن تتوافر فيه كل هذه الخصال الحميدة، وفضلا عنها أن يعرف كيف يفكر مليا ليميز بين سبب كون الشيء طاهرا وكونه نجسا، مع سائر الخصال التي أحصاها الحكماء في التلاميذ، ومثل الخصال السبع التي حددها الحكماء في التلاميذ والطرق السلمية، وطرق دارسي الشريعة كلها حتى يصبح مستقيما أمام الرب إلهك وفي مقدمة هذه الخصال (خشية الله)*** ، حيث ورد في (المزامير ١١١: ١٠) "رأس الحكمة مخافة الرب". وقد ذكر أيضا من أوصاف الإمام ما هو أوسع من ذلك شرحا وسنشرحه بتوفيق الله تعالى لينتفع بذلك من وقف عليه إن شاء الله.

قال السلف الصادق: ***روى حكماؤنا أن من يبلغ سن الرشد يعد مناسبا لإمامة جماعة المصلين، يقول ربي: حتى يبلغ سن العشرين حسب الحكم السامري. وقد ناقشنا في الفتاوى أن مدينة إسرائيل التي لا يوجد بها من هو معتاد المثول أمام التابوت، إلا واحد، وأحيانا يكون مشغولا في عمله، وكان في المدينة شباب في أعمار الثامنة عشرة والسابعة عشرة، ولم يبلغوا سن الرشد أيصح أن يكونوا أئمة وأن يعفوا الجميع من التزامهم ولا يتوقفوا عن الصلاة وقد قام الحاخامات بواجبهم ولم يبطلوا الصلاة. فقد رأينا أن هذا ما أدلى به الحكماء***

حيث قالوا: من بلغ سن الرشد من الجدير أن يصبح إماما في الصلاة. وهي من الوصايا ذات الأولوية. وكم كان مفضلا للرجل البالغ أكثر من الصغير، لكن بالتأكيد في حالة انقطاعه عن تلاوة القديش" تلاوة معينة تقرأ على روح الميت" وتلاوة البركة وتلاوة "وكان رب السموات" دون الحاجة إلى ابن الثامنة عشرة وحتى ابن الثالثة عشرة ويوم واحد؛ لأنه لا يمكن أن يصبح الإمام صغيرا. يقولون هذه القاعدة: كل من ليس ملزما بشيء، يعفي الجميع من التزامه، لأنه لم يصل لعموم الوصايا التي لم يعف فيها الجميع من التزامه؛ لكن من سن الثالثة عشرة ويوم واحد فصاعدا يعني غير مسموح له.

ومرة أخرى فهمنا من الفتاوى أن مرتل الكنيس الذي هو إمام جماعة المصلين، والذي يشكو منه الناس لإبعاده وتعيين آخر بدلا منه، هذا أمر لا يحتاج إلى تساؤل فبالتأكيد عينوا آخر بدلا منه، شخص يرضى إسرائيل أمام أبيها الذي في السماء. أليس من الضروري أن يكون بارا ومستقيما ومبرأ من كل عيب؟ وإذا لم يكن كذلك يقول عنه النص المقدس" صار لي ميراثي......". وكذلك قال المعلم زوطرا بر طوبيا: ".... الذي ينصّب أمام التابوت إماما غير كفء. وكل ما في عيد الغفران وأيام الصيام، حيث من الضروري أن يكون إماما كما أسلفنا القول. يقول ربي يهودا: من يتحمل الأعباء ولا يملك شيئا، سوى عمل في الحقل، وبيته خالٍ من المعاصي، وكان محنكا، حسن السيرة، متواضعا ومحبوبا بين الناس، ويعني بحسن السيرة، يقول ربي: لم يطلق عليه اسم قبيح في طفولته، مثل هذا لا يتذمر منه الناس فيبعدوه عن أداء هذه المهمة. أما الإمام الكفيف فهو كفء، فلا يبعدونه ما دامت أعماله سديدة وصالحة.

ومرة ثانية تناولنا في الفتاوى أن الإمام الذي يمثُل أمام التابوت وهو لا يفهم إلى هذا الحد وصوته عذب، وترغب الجماعة في وجوده، وكان هناك دارس للشريعة متفقه في التوراة، وصوته ليس عذبا، أيهما يتقدم على الآخر؟

دارس الشريعة المتفقه في التوراة، هل يتقدم على ذي الصوت العذب ولا يكاد يبين؟ وأحيانا ينطق بأقوال ليست كما ينبغي أن تقال. يقول سيدنا: إن دارس الشريعة المتفقه في التوراة يتقدم حتى إذا أراد هو أن يوقف آخر بدلا منه، صوته عذب، في الوقت الذي يعرف أنه لن يخطئ. وإن لم يكن فدارس الشريعة يتقدم.

من كل ذلك تعلمنا، أنه في الوقت الذي يوجد به مرتل كفء يقدمونه أمام التابوت، ويجعلونه إماما ليقرب بين إسرائيل وأبيهم الذي في السماء، ولا يدخلون آخر بدلا منه إلا من هو مثله أو بالطبع في مرتبة أعلى من مرتبته، ولا يقدمون أمام التابوت أئمة للصلاة من الفتية الذين لم يبلغوا سن الرشد، أي أقل من عشرين سنة، حتى لو كان أكبر ولا يفهم إلى هذا الحد، وفي حالة وجود من هو أفضل منه رجل محنك، أفضل منه في التوراة- فإنه يتقدم، لأنه لا يكاد يبين، لماذا؟ لأنه أحيانا ينطق بأقوال ليست كما ينبغي أن تقال، أو أن من يشكون منه لا يقدمونه.

من كل هذا تعلمنا أنه في الوقت الذي يوجد فيه مرتل أفضل فلا يفضل الآخرون. ولكن في حالة أنه لا يوجد من يمثل أمام التابوت ويصبح إماما، لا حزانا ولا آخر بدلا من أن ينقطع عن تلاوة القديش والبركة "وكان رب السموات" كل هؤلاء يقدمون هذا الذي غير مسموح له بالذات من سن الثلاث عشرة سنة فصاعدا لأنه صغير السن. قالوا هذه القاعدة: كل من ليس ملزما بشيء فإنه لا يعفي الالتزام عن الجماعة.

فقد صح لك أيها[١] الأخ الكريم هداك الله تعالى من زبدة ما قاله الآباء رحمهم الله من أوصاف *الإمام* أن يكون ذكيا فطينا عارفا حليما خائفا لله عز وجل، متقيا عالما فهيما عارفا لما يتقدم به بين يدي الله تعالى من ابن عشرين سنة فصاعدا ***ويعرف كيف يكون متفقها في التوراة ومعانيها وأسرارها*** ومع علمه أن يكون متقيا لله تعالى.

فإذا صح له ذلك فقد حاز الفضائل وأزهرت له ثمار رضية طيبة كقوله (الأمثال ١١: ٣٠) "ثمرة الصديق شجرة حياة". فإذا كان كذلك فقد استحق الذي إذا تقدم فيرجى له أن ينجح فيه وأن تُقضى حوائج الجميع على يديه كقوله رحمه الله (السبت ١/٣٢) "يؤدي الحق بواسطة البريء"، وبضده ***الذنب بواسطة المذنب*** وإن كان متقيا لله خائفا له فهو يقضي الحوائج على يديه ويعطيه غرضه ويسعف سؤاله كقول الولي (المزامير ١٤: ١٩) "يعمل رضى خائفيه".

فاحرص يا أخي أن تكون من أهل هذه الرتبة بلغك الله إلى الرشاد وجنبك الفساد برحمته وإحسانه. وقد ذم[٢] العلماء غاية الذم من يعطي العلم غير مستحقه. ومثّلوه بالزاني الذي يجعل النطفة في غير مستقرها. بل مُضيّع العلم أعظم عقوبة؛ لأن جاعل النطفة في غير مستقرها يجيء منها صورة جسمانية ويصير زنيما أعني **ابن زنا**. وجاعل العلم في غير مستحقه كأن يجيء منها صورة روحانية فضيّعها وضيّع الحكمة فصارت صورة شيطانية. وقد قالت ***الحكماء***: لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم.

---

(١) في النص (أيه).

(٢) في النص (ذمو).

فقد صح لنا من هذه الدلائل التي جلبناها أن الإنسان فاعل الشر لا الخالق تبارك وتعالى. بل إنه خلق له آلات جميعها خير. فحاد بها إلى الشر. فصار شريرا. فيتجه من هذا قوله (إشعيا ٤٥: ٧) "وخالق الشر"، خالق الإنسان الشرير، لا خالق الشر؛ لأن لفظة شرير تفسر الشرير كمثل قولك ***إنسان شرير وحكم سيئ***، وما أشبه ذلك. فتنزّه سبحانه عن خلق الشر والكذب والمحال والباطل والزور والبهتان؛ لأنه نهانا عن ذلك وعمّا يشبهه.

وكذلك إذا بعث الله سبحانه على قوم عصاة نقمة شر كقوله ***ها أنذا مجلب الشر*** وما أشبهه، فذلك الانتقام وإن تبيّن أنه شر فهو من جهة أخرى خير؛ لأن الانتقام من الظالمين والعصاة خير لهم، لتمحيص سيئاتهم[١]. وخير لسواهم يعتبرون بهم ولا يفعلون مثل أولئك كقول الله سبحانه لإسرائيل **جميع *الرجسات*** وأيضا (اللاويين ١٨: ٢٧- ٢٨) "فلا تقذفكم الأرض". وبالجملة إن السالمين يجب أن يعتبروا[٢] بالمعاقبين كقولـــه (التثنية ١: ٢٠) "ويسمـــع الباقـــون ويخـــافـــون ولا يعودون يفعلون". فإن قال: لم خلق الحيات والسباع وهي شر؟ فنقول: ليس في ذلك ضر بل فيها منافع شتى وكثرتها خافية عن الناس. فأما بعض الذي ظهر من منافعهم كمثل أكل السباع للجيف[٣] الميتة التي على وجه الأرض. فلولا ذلك لتغير الهواء[٤]، وتعفنت المواضع. وتولد الوباء والمرض من ذلك. وفسد النظام. وكذلك جعل البارئ سبحانه السم الذي بين أشداق الحيّات التي جعلها الله لسواهم لتناول بها أغذيتها. وفيها أيضا منافع لتركيب الترياقات العظيمة لنفي السمومات من أجساد

---

(١) في النص (ساياتهم).

(٢) في النص (يعتبرون).

(٣) في النص (للجوف).

(٤) في النص (لتغيرت الهوى).

البشر. وقد ذكرها علماء الطب[1] في كتبهم. وكذلك السباع جعلها الله سبحانه في الدنيا كالجند يطلقها على من عصاه كما أطلق ذلك على فرعون وقومه. وقد تواعد بإطلاقها على القوم العصاة كقوله (اللاويين ٢٦: ٢٢) "وأطلق عليكم وحوش البرية"، وقال أيضا: ***لأنه هكذا قال الرب إنه أيضا هناك أربعة أحكام رديئة السيف والجوع والوباء والوحش المفترس***. فهي جنده وأحداثه لها في العالم خير لينصلح من ينصلح، ويعتبر من يعتبر، ويمتحص من يمتحص. فقد صح يا أخي أن ليس للشر أصل في الخليقة ولا للكذب، وقد قال الحكماء رحمهم الله في ذلك ***لقد علمنا أن كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى في عالمه، باستثناء طبيعة الكذب التي اختلقها البشر من داخلهم***. والكذب، تنتج[2] منه كثرة الشرور والمعاصي وتتفرع منه الدواهي. وهو أصل كثرتها ومنشؤها[3]. وقد علمت ما وبّخ الله به الكاذبين ممن[4] تمادى بهم كذبهم حتى جحدوه. وقال إرميا (إرميا ٥: ١٢) "جحدوا الرب وقالوا ليس هو ولا يأتي علينا شر". وقال (إرميا ٩: ٥) "علم ألسنتهم التكلم بالكذب، لم يقبلوا تأديبا"، وحال السيف بسببه كقوله (إرميا ٢: ٣٠) "لباطل ضربت بنيكم، لم يقبلوا تأديبا"، وذمّ ***أنبياء الكذب*** في عدة مواضع، وصار الكذب أيضا سببا من جملة أسباب خراب القدس كقوله: (إرميا ٥: ١) "طوفوا في شوارع أورشاليم". فإن قال قائل: لما أراد الله خلق الظالمين وقد سبق في علمه أنهم يختارون معصيته ويؤثرونها على طاعته ويظلمون عباده، ويفسدون في أرضه؟ قيل له: إن في ذلك وجوها[5] للحكمة الإلهية[6]. فمنها أن البارئ سبحانه خلقهم لينفعهم، فكرهوا المنفعة

(١) في النص (ذكرتها علما الأطبا).
(٢) في النص (تتنتج).
(٣) في النص (منشاها).
(٤) في النص (مما).
(٥) في النص (وجوه).
(٦) في النص (الإلاهوتية).

واختاروا المعصية. فكانوا هم الذين أضرّوا بأنفسهم. فلومهم على أنفسهم لا على الله سبحانه كقوله (ملاخي ١: ٩) "هذه كانت من يدكم". وقال (حزقيال ٩: ١٠) "أجلب طريقهم على رؤوسهم يقول الرب الإله". وأيضا لإظهار حكمته سبحانه فخلق العاصين حتى[١] تتبيّن فضيلة الصالحين فينماز الطائع من العاصي. ويعتّبر الناس بأحوالهما. فيلحقون بالطائع ويتركون العاصي. ومنها ليمتحن بهم عباده الصالحين في دار الدنيا. وينصدم بهم بعضهم كقول الحكماء رحمهم الله: ***الشرير ينتقم من الشرير، والرب ينتقم من كليهما***، وحتى أنه سبحانه طوّل لهم في المدة لوجوه من الحكمة. فمنها لئلا يقول القائلون[٢]: لو لم يبادر الله على فلان بالعقوبة وأمهله لكان ربما تاب وعمل صالحا، فأمهله وقطع عذرهم وتذمرهم. ومنها أن ابن آدم يبادر بالانتقام من خصمه، لأنه يخشى عليه الموت أو الفقر أو يهرب منه إلى بلد آخر أو يخشى على نفسه مثله فيحمله ذلك على المبادرة والمعاجلة، وترك المهلة. والبارئ سبحانه ليس[٣] كذلك لأنه بريء من هذه الصفات. لا يخاف الموت، ولا الفقر، ولا يخشى على من عصاه فوتًا ولا هروبًا؛ لأنه في يده وقبضته كقوله (إرميا ٢٣: ٢٤) "إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة أفما أراه أنا يقول الرب". وقال وليه عليه السلام (المزامير ١٣٩: ٧- ٨) "أين أذهب من روحك وأين من وجهك أهرب؟ إن صعدت إلى السموات فأنت هناك". وأيضا ***واحمل أجنحة الفجر***. وأيضا (المزامير ١٣٩: ١٠) "هناك أيضا تهديني يدك"، (المزامير ١٣٩: ١٢) "والظلمة أيضا لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضيء الظلمة كالنور". وقال أيضا (المزامير ١٣٩: ١١) "وقلت إنما الظلمة تغشاني"، وقال (عاموس ٩: ٣)

---

(١) في النص (العاصيين لحتى).

(٢) في النص (للا يقول القائلين).

(٣) في النص (فليس).

"وإذا فـــي قعر البحر فمن هناك آمر الحية فتلدغهم". وعلى أن الإنسان إن أحسن أو أساء فنفعه وضره لنفسه ليس لله تعالى من ذلك شيء كقوله (الأمثال ٩: ١٢) "إن كنت حكيما فأنت حكيم لنفسك. وإن استهزأت فأنت وحدك تحمل ذنبك". وقال: ***إذا بررت ماذا تفعل له. وإذا كثرت آثامك ماذا ستفعل بها. ذنبك لرجل مثلك وصدقاتك للإنسان***، وقال بعض الصالحين في ذلك كلامًا مستحسنًا[١]، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق الظالمين ليظهر كرمه بالمغفرة لهم والتفضل عليهم بالصفح؛ لأنه سبحانه أهل[٢] للفضل والجود والصفح والإحسان، وأن الظالمين أحوج لذلك؛ لأنهم أهل للعقاب الشديد كقول وليّه في وصفه تعالى (المزامير ٧٨: ٣٨) " أما هو فرؤوف يغفر الإثم ولا يهلك". وقـــال نبيّـــه (ميخا ٧: ١٨) "من هو إله مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنب لبقية ميراثه". وقال تبارك وتعالى: (إرميا ٣: ١٢) "لأني رؤوف يقول الرب لا أحقد إلى الأبد". فذكرنا ذلك لأنه كلام مليح على أن لا يجب لنا أن نعصيه ونتّكل على عفوه، وعلى أنه سبحانه قادر أن يفعل بنا ما شاء وليس على يديـــه يد. وقد قال بعض الأولياء الصالحين لو لم تخطوا لخلق الله سبحانه قومًا[٣] سواكم يخطون ويغفر لهم ليظهر كرمه[٤]. بل يا أخي ولو كنّا صالحين لم نتّكل علـــى صـــلاحنا إلا على رحمته كقوله (دانيال ٩: ١٨) "لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك، بل لأجل مراحمك العظيمة". فمن انتقل من دار الدنيا كاملا

---

(١) في النص (كلام مستحسن).

(٢) في النص (أهلا).

(٣) في النص (القوم).

(٤) في قوله هذا اقتباس من حديث نبوي شريف، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قـــال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجـــاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم. انظر: الإمام النووي: نفس المصدر، باب الاستغفار، ص ٥٩٨.

بالعلم والعمل والأخلاق الرضيّة والآداب الصحيحة والمذاهب الحسنة والتقوى[١] والعفة كان مستحقا لدار الثواب والبقاء الدائم. وقال بعض العلماء: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء. وكان مثله كالجنين الذي يظهر إلى نسيم الدنيا وهو كامل الأعضاء والأدوات والتركيب. وإن خرج من الدنيا ناقصا جاهلا عاصيا لم يستحق شيئا من ذلك النعيم وكان مستحقا للعذاب الأليم، وكان مثله كالجنين الذي يظهر من بطن أمه ناقصا آلاته وأعضاءه[٢] وحواسه، ولـــو كان إلاّ عضو واحد فلا يقدر يستكمله في دار الدنيا. كذلك العاصي لا يقدر أن يقول أعيدوني إلى الدنيا حتى أعمل صالحا.

واعلم يا أخي، وفقنا الله وإياك إلى رضاه، بأن النفس أشرف الموجودات، وأن الله تبارك وتعالى خلق لها هذا الهيكل الشريف وأسكنها فيه وهيأه لها لجميع آلاته وأعضائه فيها وجوارحه الظاهرة والباطنة. وصيّره لها كالمدينة المعمورة وهي كالملك تأمر وتنهى جميع من في المدينة. وليس أحد من أهل المدينة يخالف أمرها ونهيها، فترتاض فيه مدة مقامها الذي قدره لها بارؤها[٣] سبحانه إلى أن يشاء أن ينقلها إلى دار كرامته. فتنتقل إما سعيدة وإما شقيّة بما اكتسبته. فالواجب عليها أن تسلك في الأمور الشرعيّة وتستقل بالآداب الفلسفية وتتغذى بالعلوم الإلهية، وتزكو بالمعارف الروحانية، وتتزكى بالعبادة الملكوتية، وتتشبه بالأمور الإلهية بحسب الطاقة الإنسانية فتستنشق الصور القدوسية، وتلحق بالكلية، ويشرق عليها نور وتصير كالمرآة المجلوة[٤] في دار الجنان والريح والريحان وجوار الرحمان بالحياة الدائمة والسعادة التامة، أبد الآبدين ودهر الداهرين، ما تعجز

---

(١) في النص (التقوة).
(٢) في النص (أعضائه).
(٣) في النص (باريها).
(٤) في النص (كالمراية المجلية).

الأفكار عن تصوره وتذهل[١] الأوهام عن توهمه ذلك، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[٢]. إذ قالت الأنبياء (إشعيا ٦٤: ٤) "لم تر عين إلها غيرك يصنع لمن ينتظره". وقال: (المزامير ٣: ١٩) "ما أعظم جودك الذي ذخرته لخائفيك وفعلته للمتكلين عليك تجاه بني البشر". وقال في مثل ذلك (المزامير ٢٤: ٣) "من يصعد في جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه". وقال (المزامير ١٥: ١- ٣) "يا رب من يسكن في مسكنك من يسكن في جبل قدسك السالك بالكمال والعامل الحق والمتكلم بالصدق في قلبه ولا يشي بلسانه ولا يصنع شرا بصاحبه". وقال (إشعيا ٣٣: ١٧) "ملك ببهائه تنظر عيناك"، يعني ملك الملوك وجواره (دانيال ١٢: ٣) "والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا إلى البر كثيرين كالكواكب للأبد". وقال: (زكريا ٣:٧) "وهكذا قال الرب إن سلكت في طريقي... وأعطيك مسالك بين هؤلاء الواقفين". والسيد المنير المؤيد ***سيدنا موسى عليه السلام*** قد لوّح بكثير من الثواب في الآخرة وعقابها، لأن لو لم يكن[٣] القوم الذين في عصره لا يتصورون ذلك لإذن كشفه لهم. بل كانوا غلفى القلوب[٤]. كما علمت أنه لم يبق[٥] منهم إلا يهوشع وكالب، فلوّح عليه السلام لهم تلويحات كثيرة منها (التثنية ٦: ٢٤) "وأمرنا الرب أن نصنع كل هذه الشرائع

---

(١) في النص (تدحل).

(٢) هذه العبارة ما هي إلا حديث قدسي حيث ورد، حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثي وزهير بن حرب، قالا: أخبرنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر- مصداق ذلك في كتاب الله- ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة:. انظر: الإمام البخاري: المصدر السابق، باب صفة أهل الجنة، الجزء الرابع، ص ١١٨.

(٣) في النص (لم يكون).

(٤) تأكيد من المؤلف على قوله تعالى في سورة البقرة الآية (٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(٥) في النص (لم يبقى).

لصالحنا كل الأيام لحياتنا كهذا اليوم". وقال في مواضع كثيرة (التثنية ٥: ٣٣) "من أجل أن تحيوا وخير لكم". وقال (التثنية ٢٢: ٧) "لكي يكون لك خير وتطول الأيام". وقال (التثنية ١١: ٢١) "لكي تكثر أيامكم وأيام أبنائكم". وهو يعني بهذه الأعمار الطويلة الممتدة على بقاء الآخرة. وقال (الخروج ٣٢: ٣٤) "وفي يوم افتقادي أفتقد فيهم خطيتهم". وقال: (التثنية ٣٢: ٣٤) "أليس ذلك مكنوزا عندي مختوما عليه في خزائني"، سوى ذلك من أيامه إلى النعيم المقيم أو إلى العذاب الأليم. وكذلك رموز كثيرة رمزها لها عليه السلام ولم يلحق بطبقتهم. وكانت الشريعة التي نزل بها موسى وهي التوراة تنصاغ لكل من كان حيث هو. وفيها كلام مفهوم بظاهره. ولكثرتها بواطن عجيبة لا يعرفها إلا العقلاء، وهم القليلون[١]. وعلى أن كان في الجيل الذي كان فيه سيدنا موسى عليه السلام قوم ذوو عقل[٢] وفهم ولب ومعرفة. وكذلك أشار الكتاب بقوله ***أولئك رجال جيل الصحراء الذين كانوا ذوي علم***، لأنه كان فيها بصلئيل وأهليئيف، وسواهم ولكن قليل، ومع ذلك متفاوتـــون[٣] في الدرجات على حسب ما رزق كل واحد منهم. وللأنبياء في ذلك ما لا يحصى بسرعة.

وفي الأخبار الصادقة أضعاف ذلك مرارا[٤]. فمن بعض أقوالهم (مبحث سنهدرين ٩٩/١) "كل الأنبياء لم يتنبأوا إلا بأيام المسيح المخلص"، ***لكن الآخرة*** (إشعيا٦٤: ٤) "لم تر عين إلها غيرك يصنع لم ينتظره"، وكذلك قالوا (مبحث البركات ١٧/١) "الآخرة لا يوجد بها طعام ولا شراب بل يجلس الأبرار وعلى رؤوسهم الأكاليل". (الخروج ٢٦) "ويرون الرب ويأكلون ويشربون".

---

(١) في النص (قليلين).
(٢) في النص (ذوي عقل).
(٣) في النص (متفاوتين).
(٤) في النص (مرار).

فهكذا يا أخي شروط النفوس الطائعة لخالقها سبحانه التابعة لأوامره، المنتهية[١] عن نواهيه، من قد حصل لها العلم والعمل جميعه وانتهت لسُبُل الأنبياء والصالحين وسلكت في مسالكهم. فهي لا شك تنال السعادة الأبدية أبد الآبدين ودهر الداهرين. وأما النفوس الشريرة والقوم العصاة ومن عاند الله سبحانه وأنبياءه وأولياءه وأتقياءه وحادت نفسه عن طريق الخيرات، وتركت الأخلاق الرضية، واتبعت الأخلاق الرديئة التي ذكرناها في تشريح الإنسان في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وارتكبتها الجهالات المتراكمة، فأظلم ضوؤها، وتكدر جوهرها ولم تطق[٢] أن تستنهض بذاتها من ثقل أوزارها[٣]، فتصير كالمرآة[٤] الـــذالة الغبـــراء التي[٥] لا يطيق السيقل أن يحيك فيها شيئا. ولا تنفع فيها الآداب. فأولئك[٦] في الدنيا في العمى يعيشون. وفي الظلام يتخبطون. كقول الأنبياء عليهم السلام (صموئيل الأول ٢: ٩) "والأشرار يصمتون في الظلام". وقال (أيوب ١٢: ٢٥) "يتحسسون في الظلام ولا نور". وقال (الجامعة ٦: ٤) "يجيء في الظلام، ويذهب في الظلام، واسمه يغطى بالظلام". وفي الآخرة في أخس حالة، وأسقط منزلة، وأقبح حال، كقوله (إشعيا ٦٦: ٢٤) "ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصَوا عليّ لأن دودهم لا يموت". وقال (إشعيا ٦٦: ١٦) "الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل البشر ويكثر قتلى الرب". وقال (إشعيا ٣٠: ٣٣) "لأن تفته تهيؤه منذ الأمس". فهذه حالتي الفاتين حسب ما قدرنا أن نذكـــر. ولـــولا الخوف أن يقع كتابنا في يد من لا يعرفه حق معرفته ولا ارتاض بالشرائع الناموسية والعلوم الإلهية والحكمة

---

(١) في النص (المنتهيين).

(٢) في النص (لم تطيق).

(٣) في النص (أزارها).

(٤) في النص (كالمراية)

(٥) في النص (الذي).

(٦) في النص (فهؤلئك).

الفلسفية لأوضحنا في الثواب والعقاب ما هو أدق من هذا الكلام وأغمض من هذه المعاني وأعجب من هذه الإشارات مما أنعم الله سبحانه علينا به وتعلّمناه من سوانا. على أنّا قد قدمنا أنا لم نتكلم في هذا الكتاب كلمة من أنفسنا، ولا استنبطنا فيه معنى من قولنا. بل الكل تعلمناه من سوانا بتوفيق الله ولطفه بنا. وإياه نسأل المعونة في الدين والدنيا والرحمة والمغفرة والرضوان وموهبة الحكمة كقوله (الأمثال ٢: ٦) "لأن الرب يعطي حكمه من فمه المعرفة والفهم".

كمل الكتاب بعون الله كما عنى بتأليفه راف نتنئيل بيرف فيومي.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية

١- الإمـــام البخاري (محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، تقديم: أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.

٢- الإمام النووي (أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي): رياض الصالحين، تحقيق: محمد الصادق بسيس، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣- الشريف الرضي (أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الكاظم): نهج البلاغة، تحقيق: فارس الحسّون، مركز الأبحاث العقائدية بدون تاريخ.

٤- خير الدين الزركلي: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

٥- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء: تقديم/ بطرس البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧م.

٦- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٩٧ م.

٧- محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠ م.

٨- محمد سيد الجليند: قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي- أصولها النظرية، ١٩٨١.

٩- محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مطبعة السعادة، ١٩٧٧م.

-المعاجم العربية:

- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ١٩٩٠م.

-الموسوعات العربية:

- الموسوعة الشعرية (الشعر ديوان العرب)- المجمع الثقافي بأبي ظبي.

-www.culture.org.ae

ثانيا: باللغة العبرية:

1- דבי גולדמן: ראשי פרקים לתולדות יהודי מורוקו، מרכז ההסברה، ירושלים، 1981.

2- יוסף קאפח: ספר תורת חובות הלבבות לרבנו בחיי אבן פקודה، ירושלים، תשל"ג.

3- מרדכי רבינוביץ: אגרות רבינו משה אבן מימון، הוצאת מוסד הרב קוק، ירושלים، תש"ד.

4- ספר היובל، לכבוד הפרופיסור אלכסנדר מרכס، בעריכת: דוד פרנקל ניו-יורק، תש"ג.

5- שירי הקודש לרבי שלמה אבן גבירול، מאת: דוד ירדן، ירושלים، תשל"ז.

المعاجم العبرية

- דוד שגיב: מלון עברי ערבי לשפה העברית בת זמננו، הוצאת שוקן، ירושלים، 1990.

الموسوعات العبرية

- האנציקלופדיה העברית، הכללית، וארצישראלית، הוצאת פעלים، ת-א، 1982.

ثالثا: المراجع الأوروبية

- *Steinschneider. Moritz: Die Arabische literatur der Juden, verlag von J. Kauffmann, Frankfurt,1902.*

رابعا: مواقع الإنترنت:

1- *www.adab.com*
2- *www.ahl_ulbait.com*
3- *www.alwarraq.com*
4- *www.cultural.org.ae*
5- *www.islamweb.net\ hadith*
6- *www.baheth.info*

المؤلف فى سطور:

نتنئيل بيرف فيومي

ولد في اليمن. واختلفت المصادر العبرية حول المدينة اليمنية التي عاش بها عدن أم صنعاء؟ لم يتمكن الباحثون من تحديد سنة مولده. وعجزوا عن إلقاء الضوء على حياته وثقافته وفكره. وذلك لقلة المصادر التي تحدثت عنه؛ ولأنه لم يحظ بالقدر المناسب من الصيت والشهرة بين اليهود كغيره من مفكريهم في البلدان العربية الأخرى. أما عن وفاته فقد أجمع الباحثون اليهود على أنها كانت سنة (٥٦١هـ/ ١١٦٥م). واستدلوا على ذلك مما ذكره الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون في كتابه "رسالة اليمن".

عُين رئيسا للطائفة اليهودية في بلاد اليمن. وعُرف بكتابه "بستان العقول" الذي تأثر به ابن ميمون كثيرا. ويتضح ذلك من خلال مؤلفيه "مقالة البعث" ومقدمته التي وضعها في تفسير التلمود. كما وضع نتنئيل تقويما عبريا لحساب السنوات الكبيسة. وقد أشار إلى ذلك في الفصل الثاني من كتابه "بستان العقول".

المترجمة فى سطور:

سهير سيد أحمد دويني

- وُلدت في ١٩٦٧م، وحصلت على شهادة الليسانس الممتاز سنة ١٩٨٩م، من قسم اللغات الشرقية وآدابها، كلية الآداب- جامعة القاهرة. وعُينت في السنة نفسها معيدة بالقسم.

- حصلت على الماجستير في الآداب من جامعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

- أنهت دراسة الدكتوراه في الأدب العبري الوسيط في جامعة القاهرة سنة ٢٠٠٢م.

- انتدبت للتدريس في كلية الآداب جامعة الإسكندرية في الفترة بين أعوام ٢٠٠٧ و ٢٠٠٩م.

- قدمت مجموعة من الأبحاث والدراسات المتخصصة في الأدب العبري في فترة العصور الوسطى، في بلاد الأندلس وبلاد اليمن وإيطاليا أبرزت من خلالها الأثر العربي على الأدب العبري في تلك الفترة.

- لها عدة كتب في مجالي الشعر والنثر العبريين، منها كتاب (نصوص من النثر العبري الوسيط)، و(الأدب العبري الوسيط في بلاد اليمن)، و(محاضرات في الشعر العبري الأندلسي).

- حصلت على جائزة الأستاذة الدكتورة/ زاكية هانم رشدي في فرعي اللغات الشرقية سنة ٢٠٠٥م عن بحثها "رمزية الحمامة في الشعرين العبري الأندلسي والعربي، وأثرها في الشعر العبري الحديث – دراسة مقارنة".

المقدمان فى سطور:

- حسن حنفي حسنين

أستاذ الفلسفة غير المتفرغ بجامعة القاهرة، من مواليد ١٩٣٥، حاصل على ليسانس الفلسفة من جامعة القاهرة عام ١٩٥٦ ودكتوراه الدولة من السربون (باريس) عام ١٩٦٦، وعمل أستاذا زائرا بالولايات المتحدة (فيلادلفيا) ١٩٧١-١٩٧٥، والمغرب (فاس) ١٩٨٢-١٩٨٤، ومستشارا علميا لجامعة الأمم المتحدة بطوكيو ١٩٨٤-١٩٨٧، وأستاذا زائرا بعديد من الجامعات فى فرنسا (تولوز) وألمانيا (بريمن) وأمريكا. وهو صاحب مشروع "التراث والتجديد" على مدى نصف قرن ويتكون من جبهات ثلاث: الأولى، إعادة بناء التراث القديم فى "من العقيدة إلى الثورة" (علم أصول الدين) ١٩٨٧، "من النقل إلى الإبداع" (علوم الحكمة) (٢٠٠٠-٢٠٠٢)، "من النص إلى الواقع" (علم أصول الفقه) ٢٠٠٥، "من الفناء إلى البقاء" (علم التصوف) ٢٠٠٨، "من النقل إلى الفعل" (القرآن)، والحديث، والتفسير، والسيرة، والفقه (٢٠٠٩-٢٠١٠). والثانية، الموقف من التراث الغربى فى "ظاهريات التأويل" ١٩٦٥، "تأويل الظاهريات" ١٩٦٦، "مقدمة فى علم الاستغراب" ١٩٩١، "نشته، فيلسوف المقاومة" ٢٠٠٣، "برجسون، فيلسوف الحياة" ٢٠٠٨، "رسالة فى اللاهوت والسياسة لاسبينوزا" ١٩٧٣، "نماذج من الفلسفة

المسيحية للسنج" ١٩٧٧، "تعالى الأنا موجود لجان بول سارتر" ١٩٧٧. ويكتب أيضا فى الثقافة الفلسفية مثل "قضايا معاصرة" ١٩٧٧، "دراسات إسلامية" ١٩٨٢، "دراسات فلسفية" ١٩٨٧، "هموم الفكر والوطن" ١٩٩٨، "حصار الزمن" ٢٠٠٥. ويكتب فى الثقافة السياسية "من مانهاتن الى بغداد" ٢٠٠٠، "جذور التسلط وآفاق الحرية" ٢٠٠١، "وطن بلا صاحب" ٢٠٠٨، "نظرية الدوائر الثلاث، مصر والعرب والعالم" ٢٠٠٨.

- أحمد محمود عطوة هويدى

- حاصل على ليسانس الآداب الممتازة، قسم اللغات الشرقية -كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٩.
- حصل على درجة الدكتوراه بنظام الإشراف المشترك بين جامعتى القاهرة - برلين الحرة ، مايو ١٩٨٧ - ١٩٨٩.
- حصل على مهمتين علميتين فى جامعة برلين الحرة يونيو ١٩٩٠ - سبتمبر ١٩٩٠، ثم يوليو ١٩٩٢ - ١٩٩٣.
- عمل رئيسًا لمجلس قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، أبريل ٢٠١٠.
- التخصص العام: الدراسات الشرقية - التخصص الدقيق: الدراسات اليهودية والاستشراق.
- نشر الكثير من الأبحاث العليمة فى الدوريات العليمة فى مجال الاستشراق والدارسات اليهودية.

- نشر الكثير من المؤلفات فى مجال الاستشراق، ودراسات العهد القديم وتاريخ اليهود وحضارات الشرق الأدنى القديم من هذه المؤلفات:

١ – معالم تاريخ الشعوب العربية القديم (بلاد الرافدين – سوريا وفلسطين– الجزيرة العربية) القاهرة – دار الثقافة العربية (٢٠٠٥).

٢ – المدخل إلى الاستشراق ومدارسه، القاهرة – دار الثقافة العربية (٢٠٠٦).

٣ – أسفار العهد القديم: مدخل نقدى، دار الثقافة العربية (٢٠٠٧).

٤ – تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى نهاية العصر اليونانى، دار الثقافة العربية (٢٠٠٧).

٥ – تاريخ يهود العالم الإسلامي (من ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الفاطمى)، دار الثقافة العربية – ٢٠٠٩.

- ترجم بعض الأعمال من اللغة الألمانية وكذلك من اللغة العبرية منها:

١ – الاستشراق الألماني: تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلة (من الألمانية).

٢ – الأثر الإسلامى فى التفاسير اليهودية الوسيطة (من العبرية).

- رأس تحرير رسالة المشرق التي يصدرها مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة.

- أسس ورأس تحرير مجلة دراسات شرقية ويابانية التى يصدرها مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة.

- شارك فى كثير من المؤتمرات المحلية والدولية داخل مصر وخارجها.

التصحيح اللغوى: رجب عبد الـــوهاب

الإشـــراف الفنى: محســـن مـــصطفى